

إدواردو كاليانو

ذاكرة النار

ترجمة: أسامة إسبر

«سفر التكوين»


ذاكرة النار

الطبعة الأولى - 1995

دار الطليعة الجديدة

سوريا - دمشق - ص.ب: 34494

هـ: 7775872

تصميم الغلاف: بتول محمود السيد

ذاكرة النار

سفر التكوين

تأليف: إدواردو كاليانو
ترجمة: أسامة إسبر

العنوان الأصلي للكتاب:

Memory of Fire
«Genesis»

Edwardo Galeano

مقدمـــة

كنت طالب تاريخ بائس. كان حضور دروس التاريخ يشبه الذهاب إلى معرض التماثيل الشمعية أو إلى إقليم الموتى. كان الماضي ميتاً، أجوفَ وأخرسَ، علّمونا عن الماضي بطريقة جعلتنا نستكين للحاضر بضمائر جافة: لا لنصنع التاريخ الذي صُنِعَ سابقاً بل لكي نقبله. توقف التاريخ المسكين عن التنفس، تمت خيانته في النصوص الأكاديمية، كُذِبَ عليه في المدارس، أغرق بالتواريخ، سجنوه في المتاحف ودفنوه تحت أكاليل الزهر ووراء تماثيل برونزية ورخام تذكاري.

ربما يساعده «ذاكرة النار» على التنفُّس ويستحضر حريته والكلمة.

جُرِّدَتْ أميركا اللاتينية طوال قرون من الذهب والفضة، من النترات والمطاط والنحاس والزيت وانتُهِكَتْ ذاكرتها.

حكَمَ عليها من البداية بداء النسيان أولئك الذين منعوها من الوجود. إن التاريخ الرسمي لأميركا اللاتينية يقتصر على استعراضٍ عسكري لطغاة يرتدون بزّات عسكرية لم تستخدم من قبل.

لست مؤرخاً. أنا كاتب يحبّ أن يساهم في إنقاذ الذاكرة المخطوفة لكل أميركا وخصوصاً لأميركا اللاتينية، الأرض المحتقرة والمحبوبة: أحب أن أتحدث معها، أن أتقاسم معها أسرارها، أن أسألها من أي صلصال شاق ولدت ومن أية ممارسات جنسية واغتصابات جاءت.

لا أعرف إلى أي شكل أدبي ينتمي صوت الأصوات هذا. ليس «ذاكرة النار» مقتطفات أدبية مختارة وهذا واضح. ولكن لا أعرف إن كان رواية أو مقالة أو ملحمة شعرية أو شهادة أو تاريخاً أو.... إن اتخاذ قرار حول هذا الأمر لا يسرق مني النوم، كما لا أؤمن بالحدود التي تفصل بين الأجناس الأدبية استناداً إلى ضباط جمارك الأدب.

لم أرغب بكتابة كتاب موضوعي ولا أستطيع ذلك. ولا يوجد شيء حيادي حيال هذا السرد التاريخي، ولأنني لم أستطع أن أبعد نفسي اتخذت موقعاً متعاطفاً: أعترف بذلك ولست آسفاً.

على أية حال. إن كل قطعة من هذا الموزاييك الضخم مبنية على أساس توثيقي صلب. ما قيل هنا حدث سابقاً رغم أنني أقوله بأسلوبي وبطريقتي.

إدواردو كاليانو

الأصوات الأولى

10

« إن الخشب الجاف سيحرق الخشب الرطب »

مثل أفريقي أحضره العبيد إلى الأمريكيتين

ـ الخلق ـ

حلمت المرأة والرجل بأن الإله يحلم بهما.

كان الإله يغني ويهزّ خشاخيشه حين حلم حلمه في سحابة من دخان التبغ شاعراً بالسعادة إلا أن الشك يبلبله واللغز يحيّره.

يعرف هنود «الماكيريتير» أن الإله إذا حلم بتناول الطعام يمنح الخصب والطعام، وإذا حلم بالحياة يولد ويمنح الولادة.

حين حلمت المرأة والرجل بأن الإله يحلم بهما كانا داخل بيضة كبيرة متلألئة يغنيان ويرقصان ويخبطان بقدميهما محدثين جلبة وصخباً لأنهما كانا يتلهفان بجنون ليولدا. كانت السعادة في حلم الإله أقوى من الشك واللغز وهكذا خلقهما الإله وهو يغني حالماً:

«أكسر البيضة فتولد المرأة ويولد الرجل. معاً سوف يعيشان ويموتان إلا أنهما سيولدان ثانية، ثمّ سيولدان ويموتان من جديد ثم سيولدان. لن يتوقّفا عن الولادة أبداً لأن الموت كذبة».

ـ الزمن ـ

يعتقد هنود المايا أن الزمن ولد وسمّي قبل أن توجد السماء وتستيقظ الأرض:

انطلقت الأيام من جهة الشرق وبدأت تمشي.

خلق اليوم الأول السماء والأرض من أحشائه.

نصب اليوم الثاني سلّماً لينزل عليه المطر.

أمّا البحار والأراضي وتعدد الأشياء فكانت من عمل اليوم الثالث.

شاء اليوم الرابع أن يجمع بين السماء والأرض.
قرر اليوم الخامس أن الجميع يجب أن يعملوا.
انبثق النور من اليوم السادس.
ملأ اليوم السابع الأمكنة الخاوية بالتربة.
دفن اليوم الثامن يديه وقدميه في التربة.
خلق اليوم التاسع العوالم السفلية. ووضع العاشرُ علاماتِ على أولئك الذين يمتلكون أرواحاً مسمومة.
داخل الشمس صاغ اليوم الحادي عشر الشجر والحجر.
صنع اليوم الثاني عشر الريح. هبّت الريح وسميّت الروح لأنه لم يكن يوجد فيها موت.
بلّل اليوم الثالث عشر التراب وصاغ من الوحل جسداً مثلَ أجسادنا.
هذا ما يُذكَرْ في «يوكاتان».

ـ الشّمس والقمر[1] ـ

حملَ الطوفان الشمس المائية الأولى. تحوّل جميع من يعيش في العالم إلى أسماك.
افترست النمور الشمس الثانية.
دمّر مطرٌ ناريٌّ الشمس الثالثة وهيّج البشر.
بعثرتْ العاصفة الشمس الرابعة، شمسَ الريح. تحوّل البشر إلى قرود انتشرت في التلال.
بدأت الآلهة بالتفكير ثم اجتمعت في «تيوتيهواكان».
ـ من سيجعل الفجر يبزغ؟
خطا إله الأصداف المشهور بقوته إلى الأمام وقال:
ـ سأكون أنا الشمس.
ـ من أيضاً؟
خيّم الصمت.
نظر الجميع إلى الإله المزهور[2] الأكثر دمامة وسوءاً بين الآلهة وقالوا: «أنت».
انسحب إله الأصداف والإله المزهور إلى التلال التي هي الآن أهرامات الشمس والقمر. هناك صاما وتأملا.

---

(١) ـ في هذا الكتاب يذكّر المؤلف الشمس ويؤنّث القمر ويجوز في العربيـة تذكير أو تأنيث أي منهما رغم ان الدارج هو تذكير القمر وتأنيث الشمس.
(٢) ـ المزهور: المصاب بالسفلس أو بالزهري.

بعد ذلك جمعت الآلهة حطباً وبنَتْ ناراً ودَعَتْهما.

أسرع الإله الصغير ورمى نفسه في ألسنة اللهب وبزغ حالاً متوهجاً في السماء.

نظر إله الأصداف مقطّباً إلى النار وبدأ يتقدم ويتراجع متردداً ثم دار دورتين. كان عليهم أن يدفعوه لأنه لم يستطع أن يقرّر. صعد إلى السماء بعد تأخر طويل. غضبتْ الآلهة وضربته على وجهه بأرنبٍ عدة مرات إلى أن أطفأت توهجه. وهكذا أصبح إله الأصداف المغرور قمراً. أما البقع الظاهرة على القمر هي الندوب الناجمة عن ذلك الضرب.

إلا أن الشمس اللامعة لم تتحرك. طار الباشق السبجي نحو الإله المزهور الصغير وسأله: «لماذا لاتتحرك؟».

أجابه الإله الصديدي الأحدب المشلول المحتقر: «لأنني أحتاج إلى الدم والقوة».

منحت الشمسُ الخامسة، الشمسُ التي تتحرّك، الضوءَ «للتوليكس» ومنحته للآزتيكيين. لها مخالب وتتغذّى على قلوب البشر.

- الغيوم -

ألقت غيمة قطرة مطر على جسد امرأة فأنجبت توأما بعد تسعة أشهر.

حين كبرا رغبا أن يعرفا من هو والدهما.

قالت: «انظرا جهة الشرق في الصباح الباكر وسوف تشاهدانه في السماء مرتفعاً كبرج».

يمّما عبر الأرض والسماء بحثاً عن والدهما.

شكّت الغيمة بهما فطلبت: «برهانا أنكما ولدي».

أرسل الأول لمعة برق إلى الأرض والثاني قصف رعد. وحين استمر شكّ الغيمة عبرا طوفاناً وخرجا سالمين.

رتّبتْ الغيمة لهما مكاناً قربها بين أخوتها وأولاد أخوتها الكثيرين.

- الريح -

حين خلق الإله أوائل هنود «الواوينوك». بقيت بعض نتف الصلصال على الأرض. من هذه النطف خلق «غلوساكابي» نفسه.

من علٍ، سأله الإله مندهشاً: «كيف نشأت»؟

أجاب غلوسكابي: «أنا صانع معجزاتٍ. لم يخلقني أحد».

وقف الإله إلى جانبه ومدّ يده نحو الكون متحديًا: «انظر إلى خلقي. إذا كنتَ صانع معجزاتٍ أرني أشياء خلقتها».

«أستطيع أن أخلق ريحاً إذا أردت». ونفخ غلوسكابي بملء رئتيه.
ولدت الريح وماتت حالاً.
اعترف غلوسكابي خجلاً: «أستطيع أن أخلق الريح لكن ليس بوسعي أن أجعلها تعيش»
عندئذ نفخ الإله بقوة حتى أن غلوسكابي سقط وفقد كلّ شعره.

- المطر -

اكتشفت فتاة فجأة أنها حية في إقليم البحيرات الشمالية الكبرى. فتحت عجائب العالم عينيها فانطلقت خبط عشواء.

حين اقتفت أثر صيادي أمة «المينوميني» والحطابين وصلت إلى كوخ خشبي يعيش فيه عشرة أخوة وطيور الرعد[1]، فاستقبلوها وقدموا لها الطعام والمأوى.

في صباح سيء، حين كانت تُحضر الماء من النبع قبض عليها ثعبان مُشْعِرٌ وحملها إلى أعماق جبل صخري. كانت الثعابين على وشك أن تلتهمها حين غنّت.

من بعيد، سمعتْ طيور الرعد الغناء فهاجمت الجبل الصخري بالبروق وأنقذت الفتاة وقتلتْ الثعابين.

وضعت طيور الرعد الفتاة في قفل شجرة وقالت لها:
«سوف تعيشين هنا وسنعود في كل مرة تغنيّن فيها».
وفي كل مرة تغني فيها ضفدعةُ الشجرة الخضراء يقصف الرعد وتمطر على العالم.

- قوس قزح -

نصبَ أقزام الغابة كميناً لـ «يوبوينا هوابوشكا» وقبضوا عليه وقطعوا رأسه.
تخبّط الرأس عائداً إلى أرض «الكاشيناهواز».
ورغم أنه تعلّم أن يقفز برشاقة وأن يوازن نفسه لم يرغب أحد برأس بلاجسد.
قال متنهداً: «أمي، أخوتي، أبناء بلدي، لماذا ترفضونني؟ لماذا تشعرون بالعار مني؟».
في محاولة منها لتوقف الشكاوى وتتخلص من الرأس اقترحت الأم أن يُحوِّل نفسه إلى شيء ما، إلا أن الرأس رفض أن يتحوّل إلى شيءٍ وُجد سابقاً. فكر الرأس وحلم وخمّنَ. لم يكن القمر وقد وجد ولاقوس قزح.
طَلَبَ سبعَ كراتٍ من الخيوط الصغيرة من جميع الألوان.

---

(١) - طيور الرعد : طيور خرافية يعتقد الهنود الحمر أنها تحدث البرق والرعد.

صوّب ورمى الكرات نحو السماء واحدة بعد أخرى.

علقت الكرات وراء الغيوم وبدأت الخيوط تنحلُّ بنعومةٍ نحو الأرض.

قبل أن يصعد قال الرأس محذراً: «إن من لايتعَرف علـيّ سيُعاقَب. حـين تشاهدونني هنـاك قولوا: هذا هو «يوبوينا هوابوشكا» العالي والأنيق»

ضفر الخيوط السبعة المتدلية وتسلق على الحبل إلى السماء.

في تلك الليلة ظهر جُرُحٌ بليغٌ للمرة الأولى بين النجوم. رفعت فتاةٌ عينيها وسألت: «ماهذا؟»

انقضّ عليها حالاً ببّغاء أحمر. دار دورةً مفاجئة ونخسها بذيلـه الحـادّ المدبّـب بـين سـاقيها. نزفت الفتاة ومنذ تلك اللحظة تنزف النساء حين تأمر القمر بذلك.

في الصباح التالي توهج حبل الألوان السبعة في السماء.

أشار رجل إليه بإصبعه: «انظروا! انظروا كم هو فائق للعادة» قال ذلك وسقط.

وكانت تلك هي المرة الأولى التي مات فيها أحد ما.

- النهار -

كان الغراب الذي يهيمن الآن على طوطم أمة الهايدا حفيد الرئيس الكبير المقدس الـذي خلـق العالم.

حين بكى الغراب طالباً القمر التي كانت تتدلى عبر جذوع الأشجار أعطاه جـده القمـر. رماهـا الغرابُ نحو السماء من فتحة المدخنة ثم بكى ثانيةً طالباً النجوم. حين حصل عليها نثرهـا حـول القمر ثم بكى وقفز وصرخ إلى أن أعطاه جده الصندوق الخشبي الذي حُفِظَ فيه ضـوء النهـار. منعـه الرئيس الكبير المقدَّس أن يُخرج الصندوق من المنزل لأنه قرّر أن العالم يجب أن يعيش في الظلام.

لعب الغراب بالصندوق متظاهراً بالقبول وبـدأ يراقـب مـن زاويـة عينـه الحـراس الذيـن كـانوا يراقبونه

في إحدى المرات وحين أشاحوا بصرهم عنه حمل الصندوق بمخالبه وطار عبر المدخنـة فانشـق مخلبه واحترق ريشه وأصبح أسود اللون منذ ذلك الوقت.

وصل الغراب إلى بعض الجزر الواقعة ناحيـة الشـاطىء الشـمالي. سمـع أصواتـاً بشـرية فطلـب الطعام. لم يمنحه أحد شيئاً. عندئذ هدّد بأن يحطّم الصندوق الخشبي محذّراً:

«إن النهار موجود معي هنا إذا خرج لن تُطفىءَ السماء ضوءها أبداً ولن يقدر أحد على النوم أو على حفظ الأسرار وسيعرف الجميع من هم البشر وما هي الطيور والحيوانات والغابة».

سخروا منه. فتح الغراب الصندوق وانتشر النور في الكون.

- الليل -

لم تتوّقف الشمس أبداً عن الإضاءة ولم يذق هنود «الكاشيناهوا» طعم الراحة.
ولأنهم بحاجة إلى الهدوء ومرهقين من الضوء المتواصل استعاروا الليل من الفأر.
خيم الليل، إلا أن ليل الفأر لم يكن طويلاً بما يكفي للقمةِ طعامٍ وتدخين سيجارة قرب النار. حين جاء الصباح كان الناس لتوهم قد جلسوا في أراجيحهم.
بعد ذلك جربوا ليل التابير(١). بليل التابير استطاعوا أن يناموا بعمق وتمتعوا بالراحة الطويلة المستحقة. ولكن حين استيقظوا كان قد مرّ وقت طويل حتى أن نباتاً معرّشاً هجم من التلال غزا أراضيهم ودمّر منازلهم.
وبعد بحث طويل استقروا على ليل المدرّع(٢). استعاروه منه ولم يعيدوه أبدا.
مجرداً من الليل، ينام المدرّع أثناء النهار.

- النجوم -

بالعزف على المزمار يُعْلَن عن الحب أو عودة الصيادين. يستدعي هنود الواي واي ضيوفهم بإطالة أصوات المزمار. بالنسبة «للتوكانوز» المزمار يبكي. أما بالنسبة «للكاليناس» فهو يتحدث لأنه البوق الذي يصيح.
على ضفاف نهر «النيغرو» يؤكد المزمار قوة الرجال. إن المزامير مقدسة ومخبأة وأي امرأة تقترب منها عقابها الموت.
في الأزمنة الغابرة، حين كانت النساء تمتلك المزامير كان الرجال يجمعون الحطب ويحضرون خبز «المنيهوت». وكما يروي الرجال، شعر الشمس بالإهانة لأن النساء يدرن العالم فنزل إلى الغابة وأخصب عذراء بوضع عصير أوراق بين ساقيها. هكذا ولد «جوروباري».
سرق جوروباري المزامير المقدّسةً ومنحها للرجال. علّم الرجال أن يخبئوها ويدافعوا عنها ويقيموا احتفالات طقسية بدون نساء. كشف لهم أيضاً الأسرار التي يجب أن ينقلوها إلى أبنائهم الذكور.
حين اكتشفت والدة جوروباري مخبأ المزامير المقدّسة حكمت عليه بالموت ومن النتف التي بقيت منه صنعت النجوم السماوية.

---

(١) - التابير: حيوان أميركي استوائي شبيه بالخنزير.

(٢) - المدرع: حيوان ثديي يعيش في أمريكا الجنوبية من الدرداوات لرأسه وجسمه درع من الصفائح العظمية الصغيرة يستطيع أن ينكمش فيه إذا هوجم على صورة كرة.

- درب التبانة -

أكل قلب الطيور وليس أكبر من دودة. كان والده أفضل صياد في شعب «الموسيتين».

تحول حالاً إلى ثعبان يبلغ طوله ذراعاً وبدأ يطلب قلوباً أكثر. كان الصياد يقضي اليوم كله في الغابة يقتل من أجل ولده.

حين أصبح الكوخ لايتسع للثعبان فرغت الغابة من الطيور. أحضر له والده، رامي السهام الخبير قلوب اليغاور.

وكان الثعبان يتلهمها ويكبر. فرغت الغابة من اليغاور.

فقال الثعبان: «أريد قلوباً بشرية».

أفرغ الصياد قريته وجوارها من الناس إلى أن جاء يوم قُتِلَ فيه في قريةٍ بعيدة.

مدفوعاً بالجوع والحنين خرج الثعبان ليبحث عنه.

لفّ جسده حول القرية المذنبة كي لاينجو أحد. وبينما كان الرجال يرشقون الحلقة العملاقة التي فرضت عليهم الحصار بسهامهم، أنقذ الثعبان جسد والده ونما باتجاه الأعلى. هناك مايزال مرئياً متموجاً مشعاً بسهام مضيئة في سماء الليل.

- نجم المساء -

سألت القمر، الأم المنحنية ولدها: لاأعرف أين والدك. اعثر عليه وأوصل له كلمتي.

انطلق الولد ليبحث عن الضوء الأكثر تألقاً بين الأضواء.

لم يعثر عليه في ضوء الظهيرة حين يحتسي شمس شعب «التاراسكان» خمرته ويرقص مع نسائه على قرع الطبول. لم يعثر عليه في آفاق وأقاليم الموتى. لم يكن الشمس في أي من منازله الأربعة.

مايزال نجمة المساء يبحث عن والده في السماء ودائماً يصل مبكراً جداً أو متأخراً جداً.

- اللغة -

نهض الأب الأول «للكوارانيين» في الظلمة التي أضاءتها تأملات قلبه وخلق اللهب والضباب الرقيق. خلق الحب ولم يكن يوجد أحد ليقدمه إليه. وخلق اللغة ولم يكن هناك أحد ليستمع إليه.

ثم طلب من الآلهة أن تبني العالم وحمّلها مسؤولية النار والضباب والمطر والريح ثم منحها الموسيقى وكلمات الأغنية المقدسة لتمنح الحياة للرجال والنساء.

وهكذا أصبح الحب مشتركاً ودخلت اللغة إلى الحياة وتخلّص الأب الأول من عزلته ليرافق الرجال والنساء الذين يغنون حين يمشون:

نحن نمشي على هذه الأرض
نحن نمشي على هذه الأرض المشعة.

- النار -

كانت الليالي جليديةً لأن الآلهة أخذت النار بعيداً. كان البرد يقطع لحم وكلمات البشر. كانوا يتوسلون مرتجفين بأصواتٍ منكسرة وكانت الآلهة تدير آذاناً صمّاء.

مرة، أعادت الآلهة النار فرقص البشر من الفرح وعبروا عن امتنانهم بالأغاني. إلا أن الآلهة أرسلت حالاً المطر والبرد وأطفأت النيران.

تحدثت الآلهة وطلبت: «لكي يحظوا بالنار، على البشر أن يشقوا صدورهم بخناجر سبجيّة ويقدموا قلوبهم».

قدّم هنود الكويتشي دم سجنائهم وأنقذوا أنفسهم من البرد.

لم يقبل «الكاكيكويتشليون» الصفقة. «الكاكيكويتشليون»، أبناء عمومة الكويتشيين والذين ينحدرون مثلهم من «المايا»، انسلوا بأقدام مريّشةٍ عبر الدخان وسرقوا النار وخبأوها في كهوف جبلهم.

- الغابة -

لمح والد هنود «الويتوتو» في حلمه ضباباً مشعاً. كان الضباب حياً بالطحالب والأشنات وصداحاً بالرياح والعصافير والثعابين. استطاع الأب أن يمسك بالضباب وحمله بخيط من نَفَسه وسحبه خارجَ الحلم ومزجه بالتراب.

بصق عدة مراتٍ على الأرض الضبابية وفي الخليط الزبدي نهضتْ الغابة ونشرتْ الأشجار تيجانها الضخمة وأينعت الثمار وتفتّحت الأزهار. وعلى الأرض المندّاة أخذ الخنزير البري والمدرّع والأيل والفهد وآكل النمل شكلاً وصوتاً. وحلّق في الجو النسر الذهبي والمقو والصقر والطنان ومالك الحزين الأبيض والبطة والخفاش.

وصل الدبور بسرعة كبيرة. وضع ضفادع الطين وبشراً لا أذيال لهم ثم استراح بعد ذلك.

- شجرة الأرز -

استحضر الأب الأول العالم إلى الولادة بطرف صولجانه وغطّاه بالزغب.

من الزغب خرجت شجرة الأرز، الشجرة المقدسة التي تتدفق منها الكلمة. ثم أخبر الأب الأول الكوارانيين أن يجوّفوا الجذع ويصغوا لما يوجد داخله. قال إن كل من يستطيع أن يصغي إلى شجرة الأرز، علبة الكلمات، سيعرف أين يبني موقده ومن لايستطيع سيعود إلى الغبار المحتقر.

- شجرة الغويقم[1] -

خرجت امرأة شابة من شعب «النيفاكل» لتبحث عن الماء. شاهدت شجرة الغويقم ناسوك وشعرت بندائها. عانقت جذعها الضخم ضاغطة عليه بجسمها وحفرت بأظافرها على لحائها. نزفت الشجرة.

تركتها قائلة: «كم أرغب ياناسوك لو كنت رجلاً».

تحولت شجرة الغويقم إلى رجل وركضت وراءها. حين وجدها أظهر لها كتفه المخدوش واستلقى إلى جانبها.

- الألوان -

كان الأبيض مرة ريشاً للطيور وجلداً للحيوانات.

أما الأزرق فهو الذين استحموا في بحيرة لايصبُّ فيها ولايخرج منها نهر. الأحمر هو الذين غُمِسوا في بحيرة الدم الذي سفحه طفل من قبيلة «كاديو». أما لون التراب: فهو الذين تدحرجوا في الوحل. والرمادي هو الذين بحثوا عن الدفء في نيران المخيم المطفأة. الأخضر: هو الذين حكّوا أجسادهم بالأوراق. والأبيض: هو الذين بقوا صامتين.

- الحب -

في الغابة الأمازونية نظر الرجل الأول والمرأة الأولى إلى بعضهما بفضول. لم يعرفا ماكان يوجد بين ساقيهما.

سأل الرجل: «هل قطعوه؟»

---

(١) - العويقم: شجر أميركي استوائي.

أجابت: «لا، كنت دائماً هكذا».

تفحصها عن كثب. حكّ رأسه، كان يوجد جرح مفتوح هناك. قال: «من الأفضل ألا تأكلي المنيهوت أو الموز أو أية فاكهة تنشق حين تنضج. سوف أشفيك، ادخلي إلى الأرجوحة الشبكية واستريحي».

أطاعته. وبصبر ابتلعت الشاي المعطّر وتركته يدلكها بالمراهم العطرية. صرّتْ علي أسنانها لتمتنع عن الضحك حين قال لها: «لاتقلقي».

أمتعتها اللعبة رغم أنها بدأت تتعب من الصيام في الأرجوحة، سال لعابها من تذكر الفاكهة.

وفي أحد المساءات جاء الرجل راكضاً عبر الغابة. قفز من الاهتياج وصاح: «وجدتها».

كان قد شاهد لتوه قرداً يعالج أنثاه على ذراع الشجرة.

قال الرجل وهو يقترب من المرأة: «هكذا يفعل».

حين انتهى العناق الطويل، امتلأ الجو بشذى كثيف من الأزهار والفاكهة. ومن الجسدين المستلقيين صعدت أبخرة وسطعت توهجات لم يسمع بها من قبل. كان كلّ شيء جميلاً حتى أن الشموس والآلهة ماتت من الإرتباك.

ـ الأنهار والبحر ـ

لم يكن يوجد ماء في غابة الشوكوز. عرف الإله أن النملة كانت تمتلكه وطلب منها بعضاً منه. لم ترغب بالإصغاء. شدّ الإله خصرها وجعلها نحيلة بشكل دائم فأخرجت النملة الماء الذي كانت تحتفظ به في جوفها.

ـ والآن أخبريني من أين حصلت عليه.

قادتْ النملة الإله إلى شجرة لم يكن فيها أي صفة غير عادية.

أربعة أيام وأربع ليال ضربها البشر والضفادع بالفؤوس ولم تسقط. كان يوجد نبتة متسلقة تمنعها من لمس الأرض.

أمر الإلهُ طائرّ الطوقان: «اقطعها».

لم يستطع الطوقان ولهذا حُكم عليه أن يأكل ثمرة كاملة.

قطع «المقو» النبتة بمنقاره الحاد الصلب.

حين سقطت شجرة الماء ولد البحر من جذعها والأنهار من أغصانها.

كانت المياه كلها عذبة. كان الشيطان هو الذي يواصل إلقاء قبضات من الملح فيها.

- المدّ والجزر -

في الأزمنة الغابرة كانت الرياح تهبّ بلا انقطاع على جزيرة «فانكوفر». لم يخيم طقس جيد أبداً ولم يكن يوجد مدّ منخفض.

قرّر الرجال أن يقتلوا الرياح. أرسلوا الجواسيس، فشل شحرور الشتاء وأيضاً فشل السردين، ورغم ضعف بصره وذراعيه المكسورتين كان النورس هو الذي استطاع أن يراوغ حارس الأعاصير الكامن حول بيت الرياح.

ثم أرسل جيشاً من الأسماك تحت قيادة النورس. اندفعت الأسماك جسداً واحداً وضربت الباب. الرياح المندفعة إلى الخارج دعست عليها وانزلقتْ وسقطت واحدة بعد أخرى على سمك الراي اللسّاع الذي وخزها بذيله والتهمها.

أُسِرتْ الريح الغربية. بعد أن أصبحت سجينة لدى البشر. وَعَدَتْ أنها لن تهب بشكل متواصل وبأنه سيكون هناك هواء عليل ونسائم خفيفة وأن المياه ستتراجع مرتين في اليوم بحيث يمكن أن تجمع قواقع الأسماك في مد منخفض. تمّ العفو عنها.

وحافظت الريح الغربية على وعدها.

- الثلج -

قال سيد المنزل: «أريدك أن تطير». أقلع المنزل وطار. سافر في الجوّ والظلام وهو يُصفّر إلى أن أمره السيد: «أريدك أن تقف هنا». وقف المنزل وتدلى في الليل والثلج المتساقط.

لم يكن يوجد دهن حوت لإشعال المصابيح وهكذا جمع السيد حفنة من الثلج الطري فمنحه الثلج الضوء.

هبط المنزل في قرية «اكوليك». جاء شخص ليحيّيه وحين رأى المصباح مضاءً بالثلج تعجّب قائلاً: «الثلج يشتعل..؟!»، فانطفأ المصباح.

- الطوفان -

في سفح جبال الآنديز عقد رؤساء الجماعات لقاءً. دخنوا وتناقشوا.

رفعت شجرة الوفرة تاجها الغني عالياً فوق سقف العالم. من الأسفل، بدتْ الأغصان العالية مثقلة بالثمار ومليئة بالأنناس وجوز الهند والببايا والفوانابانز والحنطة والمنيهوت واللوبياء...

كانت الفئران والطيور تستمتع بالوليمة أما البشر فلا. كان الثعلب يتسلق، يقيم لنفسه الولائم ولايشارك أحداً. البشر الذين حاولوا الصعود سقطوا وتحطموا.

ـ ماالذي يجب أن نفعله؟

استحضر أحد الزعماء فأساً أثناء نومه. استيقظ وفي يده ضفدعة ضرب بها الجذع الضخم لشجرة الوفرة إلا أن المخلوقة الصغيرة تقيأت كبدها.

ـ كان الحلم كاذباً.

توسّل زعيم آخر في حلمه إلى أب الجميع ليمنحه فأساً. حذّره الأب أن الشجرة ستسترجع أشياءها إلا أنه أرسل ببغاء أحمر. ضرب الرئيس جذع الشجرة وهو ممسك بالببغاء. سقط مطر من الطعام على الأرض وصُمَّتْ الأرض من الصخب. عندئذ هبّتْ عاصفة غريبة من أعماق الأنهار. ارتفعت المياه وغطت العالم.

نجا شخص واحد فقط وبدأ يسبح أياماً ولياليَ إلى أن استطاع التمسك برأس شجرة نخيل نَتَأَ خارج الماء.

ـ السلحفاة ـ

عندما انحسر الطوفان تحول وادي أواهاكا إلى مستنقع.

عاشت حفنة من الوحل وبدأت تمشي. مشى ذكر السلحفاة ببطء شديد. تحرك برأسٍ يمتد إلى الأمام وبعينين مفتوحتين مكتشفاً العالم الذي كانت تعيده الشمس إلىً الحياة.

في المكان الذي أَنْتَنَ شاهد ذكرُ السلحفاة نسراً يلتهم الجثث.

قال له: «خذني إلى السماء. أريد أن أقابل الإله».

أجبره النسر على الإستمرار في الطلب لأن الجثث كانت طيبة المذاق. أخرج ذكر السلحفاة رأسه متوسلاً ثم أعاده إلى تحت درعه غير قادر على تحمّل الرائحة الكريهة.

توسل إليه: «أنت، يا من يمتلك جناحين خُذْني».

متأففاً من إلحاحه بسط النسر جناحيه الكبيرين وحمل ذكر السلحفاة على ظهره وطار. طار به عبر السحاب. اشتكى ذكر السلحفاة الذي كان يشيح برأسه: «رائحتك مقرفة جداً».

تظاهر النسر بأنه لايسمع.

كرّر ذكر السلحفاة: «يالنتانة التعفّن».

أبقاه الطائر الكريه إلى أن فقد صبره ثم رماه بفظاظة إلى الأرض.

جاء الإله، جمع بقاياه ورمّمها.

وتبدو على الدرع آثار الترميم.

ـ الببغاء ـ

كانت الغابة خضراء بعد الطوفان إلا أنها خالية. أطلق الذي بقي على قيد الحياة سهامه عبر الأشجار. لم تصِب السهام شيئاً سوى الظلال والورق.

في أحد المساءات وبعد أن بحث طويلاً عاد الذي بقي على قيد الحياة إلى معتزله فوجد لحماً مشويا وكعك منيهوت. حدث الشيء نفسه في اليوم التالي. وبسبب الجوع اليائس والعزلة بدأ يتساءل من سيشكر على هذا الحظ الجيد. في الصباح اختبأ وانتظر.

ظهر ببغاوان من السماء. وحالما حطّا على الأرض تحولا إلى امرأتين. أشعلتا النار وبدأتا تطبخان.

اختار الرجل الوحيد المرأة ذات الشعر الأطول والريش الأروع الأكثر بهاء. طارت المرأة الأخرى المرفوضة.

يلعن هنود «المينا» المنحدرون من هذا الزواج جدّهم حين يزداد كسل نسائهم أو تذمرهن. يقولون لقد أخطأ لأنه اختار المرأة التي لافائدة منها. أصبحت الأخرى أماً وأباً لجميع الببغاوات التي تعيش في الغابة.

ـ الطائر الطنان ـ

يُحيّي الشمس حين يبزغ الفجر. يخيّم الليل وهو مايزال يعمل. يتنقل وهو يطنّ من غصن إلى آخر ومن زهرة إلى أخرى سريعاً وضرورياً كالنور. ينتابه الشك أحياناً فيقف متدلياً في الهواء ويطير أحياناً أخرى إلى الخلف كما لايستطيع طائر أن يفعل. أحياناً يسكره العسل الذي يمتصه. حين يحلّق يطلق ومضاتٍ من اللون.

يُحْضِرُ الرسائل من الآلهة. يتحوّل إلى سهم من البرق ليُنَفِّذ انتقامها. ينفخ النبوءات في آذان العرّافين وحين يموت طفل كواراني وترقد روحه في تويج زهرة ينقذها ويحملها بمنقاره الإبري إلى الأرض التي تخلو من الشرّ. عرف الطريقَ إلى هناك منذ بداية الزمن. وُجِدَ قبل أن يولد العالم. أنعش فم الأب الأول بقطرات الندى وسكّن جوعه بنكتار الآلهة.

قاد الرحلة الطويلة «للتولتيكز» إلى مدينة «تولا» المقدسة قبل أن يُحْضِرَ دفءَ الشمس إلى «الآزتيك».

كقائد «للشونتالز» يُحلّق فوق مخيمات الأعداء، يحصي عددهم. ينقضُّ عليهم ويقتل زعيمهم أثناء نومه. كشمس «للكيتشي» يطير إلى القمر، يفاجئها في مخدعها ويمارس معها الحب.

بحجم اللوزة جسده، من بيضة ليست أكبر من حبة فاصولياء ولد في عش تتسع له جوزة. حين ينام يتغطى بورقة صغيرة.

ـ طائر الليل (أوروتاو) ـ

«أنا ابنة النحس»، هذا ماقالته نيمبيو ابنة الزعيم حين منعها والدها عن حب رجل من الأعداء.

قالت ذلك وطارت

عثروا عليها بعد فترة في جبال الأوكوازو. عثروا على تمثال. كانت نيمبو تنظر دون أن تشاهد. كان فمها صامتاً وقلبها نائماً.

طلب الرئيس إحضار الشخص الذي يقرأ الأسرار ويشفي المرض. جاءت القبيلة كلها لتشهد الإنبعاث.

طلب الشامان النصيحة من المتة وخمرة المنيهوت. اتجه إلى نيمبيو وأسرّ في أذنيها:

ـ لقد مات الرجل الذي تحبيّنه لتوه.

حوّلت صرخة نيمبيو البشر إلى صفصاف باك. طارت وتحولت إلى عصفور.

يمكن أن تُسمع صرخة الأوروتاو التي تهزّ الجبال في الليل على بعد أكثر من فرسخ. من الصعب رؤية الأوروتاو، من المستحيل اصطياده. لاأحد يستطيع أن يصطاد الطائر الشبح.

ـ الطائر الفرّان[1] ـ

حين وصل إلى سن الاختبارات الثلاثة للبطولة ركض الفتى وسبح بشكل أفضل من أي شخص آخر وأمضى تسعة أيام دون طعام وتمدّد على السير الجلدي دون أن يتحرك أو يشكو. سمع أثناء الاختبارات صوت امرأة تغني له من بعيد فساعده هذا على التحمل.

قرّر زعيم القبيلة أن يزوج ابنته للفتى إلا أنه طار وضاع في غابات نهر البارغواي باحثاً عن المغنية.

هناك، مايزال بوسعك أن تقابل الطائر الفرّان يخفق جناحيه بقوة ويطلق أصواتاً بهيجة حين يفكر أن الصوت الذي يبحث عنه يطير في طريقه نفسها. بنى منزلاً من الوحل بباب مفتوح باتجاه نسيم الشمال في مكان آمنٍ من الضوء منتظراً مالا يجيء.

يحترمه الجميع. كل من يقتل الطائر الفران أو يخرب منزله ستنقضّ عليه العاصفة.

(١) ـ طائر أميركي يبني عشه على الأرض بشكل قبة أو فرن.

ـ الغراب ـ

جافةً كانت البحيرات وفارغةً مجاري الأنهار، فأرسل هنود «التاكيلما» الذين كانوا يحتضرون من العطش ذكر الغراب وأنثاه ليبحثا عن الماء.

تعب ذكر الغراب حالاً. بال في وعاء وقال بأن هذا هو الماء الذي أحضره من مكان بعيد.

تابعت الأنثى الطيران ثم عادت فيما بعد بحمل من الماء العذب وأنقذت شعب التاكيلما من الظمأ.

عوقب الغراب وحكم عليه بأن يعاني من العطش في الصيف. ولأنه غير قادر على ترطيب حنجرته يتحدث بصوت أجش حين يكون الطقس حاراً.

ـ الكندور(١) ـ

كانت كويلاكا تنسج القماش في ظلّ شجرةٍ وفوقها كان يحلق كونيرايا الذي تحوّل إلى طائر. لم تكترث الفتاة مطلقاً بشدوه ورفرفته.

كان كونيرايا يعرف أن الآلهة الأخرى الأكبر سناً وأهميةً تشتعل بالشهوة من أجل كويلاكا. على أية حال أرسل إليها من الأعلى بذرته على شكل ثمرة ناضجة. حين رأت الثمرة المتوردة عند قدميها التقطتها وأكلت منها. شعرت بلذةٍ غريبة وحملت.

بعد ذلك تحوّل إلى رجل حزين يرتدي ثياباً رثة فضفاضة وطاردها في جميع أنحاء البيرو. طارت كويلاكا نحو المحيط حاملةً طفلها الصغير على ظهرها وخلفها كان كونيرايا الغاضب يحاول اصطيادها.

سأل الظّربان(٢). أجاب الظربان الذي شاهد قدميه النازفتين واستياءه العام: «أيها الأبله ألا ترى أنه لا فائدة من ملاحقتها؟».

صبّ عليه كوينرايا لعناته: «سوف تتجوّل في الليل وتترك خلفك رائحة كريهة أينما ذهبت وحين تموت لن يلتقطك أحد عن الأرض».

أمّا الكندور فقد شجّع معنويات الصياد قائلاً له: «أسرع وسوف تمسكُ بها».

وهكذا باركه كونيرايا: «سوف تطير في أي مكان تريد. لن يوجد مكان في السماء أو على الأرض لا تستطيع الذهاب إليه. لن يصل أحدٌ إلى حيث بُني عشك ولن تفتقد الطعام أبداً ومن يقتلك ستكون عقوبته الموت».

بعد أن تسلق عدداً من الجبال، وصل كونيرايا إلى الساحل متأخراً جداً إذ تحولت المرأة وولدها إلى جزيرةٍ في وسطِ المحيط.

---

(١) ـ الكندور: نسر أميركي ضخم.

(٢) ـ الظربان: حيوان ثديي صغير نتن الرائحة.

- اليَغْوَرْ -

كان اليَغْوَرْ يصطاد بالقوس والنُشّاب حين قابل ظلاً. حاول أن يصطاده غير أنه لم يُفْلح. رفعَ رأسه. كان صاحب الشبح الشاب بوتوك من قبيلة كايابو وكان على وشك أن يموت من الجوع ممدداً على قمة صخرة.

لم يمتلك بوتوك القوة ليتحرك كان بوسعه فقط أن يتمتم بعض الكلمات. أنزل اليَغْوَر قوسه ودعاه إلى عشاء من اللحم المشوي في منزله. ورغم أن الشاب لم يعرف معنى كلمة مشوي وافق ورمى نفسه علىً ظهر الصياد.

قالت زوجة اليَغْوَر: «أنت تحمل ولد أحد الغرباء»

قال اليغور: «إنه لي الآن».

شاهد بوتوك النار للمرة الأولى. تعّرف على الفرن الحجري وعلى رائحة التابير المشوي ولحوم الطرائد. تعلّم أن النار تضيء وتبعث الدفء. أعطاه اليغور قوساً ونشاباً وعلمه أن يدافع عن نفسه.

هرب بوتوك في أحد الأيام بعد أن قتل زوجة اليغور.

ركض يائساً مسافةً طويلةً ولم يتوقف إلى أن وصل إلى قريته. هناك روى قصته وكشف الأسرار. السلاح الجديد واللحم المشوي. قرّر «الكايابوس» أن يستولوا على النار والأسلحة فقادهم إلى المنزل البعيد. لم يبق شيء لليغور من النار سوى انعكاسها المشع في عينيه.

منذ ذلك الوقت كره اليغور البشر. كل ما يمتلكه من أجل الصيد أنيابه ومخالبه بها يأكل لحم ضحيته نيئاً.

- الدب -

اجتمعت حيوانات النهار وحيوانات الليل لتقرر ما الذي ستفعله حيال الشمس التي كانت تأتي وتذهب على هواها. قرّرت الحيوانات أن تترك المسألة للقدر. ستقرر المجموعة الرابحة في لعبة الأسرار كم ستطول فترة حصول العالم على ضوء الشمس في المستقبل.

كانوا ما يزالون يتحدثون حين اقتربت الشمس التي أسرتها المحادثة. اقتربت الشمس فكان على حيوانات الليل أن تتبعثر. كان الدب ضحية الإهتياج العام. وضع قدمه اليمنى في فردة حذائه اليسرى وقدمه اليسرى في فردة حذائه اليمنى. وانطلق راكضاً قدر استطاعته.

استناداً إلى الكومانتشيز، منذ ذلك الوقت يمشي الدبّ متمايلاً.

- التمساح -

كان شمس شعب الماكيوزي قلقاً. كان عدد الأسماك في البرك ينقص كل يوم.
عُيّن التمساح حارساً. ازداد نقص الأحواض من السمك. لفّق التمساح الحارس والسارق قصةً جيدة عن مهاجمين لامريئين إلا أن الشمس لم يصدقها فتناول منجلاً وترك جسم التمساح متصالباً بالجراح.

ليسترضيه قدم له التمساح ابنته الجميلة زوجة.

قال الشمس: «سأنتظر وصولها».

وبما أن التمساح لا يمتلك فتاةً نحت امرأة على جذع شجرة برقوق برية.

قال: «هذه هي»، ثم غاص في الماء وبدأ ينظر من طرف عينه وهذه هي الطريقة التي ينظر فيها دائماً.

كان نقّار الخشب هو من أنقذ حياته. قبل أن يصل الشمس نقر نقار الخشب الفتاة الخشبية تحت بطنها. وهكذا أصبحت المرأة التي لم تكن مكتملة مفتوحة لدخول إله الشمس.

- المدرّع -

أُعلِنَ عن احتفالٍ ضخمٍ قرب بحيرة تيتيكاكا، فرغب المدرّع الذي كان مخلوقاً متفوقاً جداً. أن يدهشَ الجميع.

كان قد بدأ قبل ذلك بوقت طويل بحياكةِ رداء فائق الروعة سيخرج جميع العيون من محاجرها.

رآه الثعلب وهو يعمل: «هل مزاجك عكر؟»

ـ لا تقاطعني أنا مشغول.

ـ من أجل ماذا أنت تفعل هذا؟

شرح له المدرّع.

قال الثعلب مستمتعاً بالكلمات: «آه الحفلة ستبدأ اليوم».

ـ ماذا تعني، الليلة؟

غاص قلبُ المدرّع. لم يكن متأكداً أبداً من حساباته للوقت: «كيف ولم ينته سوى نصف الرداء بعد؟»

بينما كان الثعلب يغادرُ بضحكةٍ مختنقة أنهى المدرّع الرداء. كان عليه أن يستخدم خيطاناً أكثر خشونه حين كان الوقت يمرّ. وهكذا أصبح الرداء كبيراً. لهذا السبب تبدو قوقعة المدرّع مشدودة حول العنق ومفتوحة جداً من الخلف.

- الأرنب -

أراد الأرنب أن يكبر.

وعده الإله أن يزيد حجمه إذا أحضر له جلد نمر وقرد وسحلية وثعبان.

ذهب الأرنب ليزور النمر. قال له بثقةٍ: «لقد كشف الإله لي سراً».

رغبَ النمر أن يعرف السّر فأعلن الأرنب عن إعصار وشيكٍ: «سوف أنقذ نفسي لأنني صغير الحجم سأختبيء في ثقب. لكن ماذا ستفعل أنت؟ لن يعفو عنك الإعصار».

تدحرجت دمعة بين شاربي النمر.

قال الأرنب: «هناك طريقة واحدة لإنقاذك. سنبحث عن شجرة جذعها قوي جداً. سأربطك إلى الجذع من مخلبيك وعنقك وهكذا لن يقدر الإعصار على حملك».

سمح النمر بأن يقيّد وهو شاكرٌ، ثم قتله الأرنب بضربة واحدة وسلخه وتابع طريقه إلى غابات بلاد «الزيبوتك».

توقف تحت شجرة كان يوجد فيها قرد يأكل. أخذ الأرنب سكيناً وبدأ يضرب رقبته بالجزء الكليل منها. كان يقوقيء بخفوت مع كل ضربة سكين. بعد أن ضرب نفسه كثيراً وضحك كثيراً رمى السكين على الأرض وركض بعيداً.

اختبأ بين الأغصان مراقباً. نزل القرد حالاً. فحص الأداة التي سببت الضحك وحك رأسه. أمسك بالسكين ومن الضربة الأولى قطع حنجرته.

بعد أن حصل على جلدين. دعا الأرنب السحلية إلى لعب الكرة. كانت الكرة حجرية. ضرب السحلية على قاعدة الذيل وقتلها.

تظاهر الأرنب أنه نائم قرب الأفعى.. تماماً قبل أن تتوتر الأفعى وقبل أن تقدر على القفز ضرب عينيها بمخلبيه.

صعد إلى السماء حاملاً الجلود الأربعة.

طلب من الإله: «والآن زِدْ من حجمي».

فكر الإله: «هذا الأرنب صغير ورغم ذلك فعل جميع هذه الأشياء فإذا جعلته يكبر لن يعجز عن فعل أي شيء. إذا كبر الأرنب ربما لن أستمر إلهاً».

انتظر الأرنب. مسّد الإله ظهره بنعومة وفجأة أمسكه من أذنيه ودوّره وقذفه إلى الأرض.

منذ ذلك الوقت أصبح للأرنب أذنان كبيرتان وقدمان أماميتان قصيرتان لأنه استخدمهما ليوقف سقطته وأصبحت عيناه قرنفليتين من الهلع.

ـ الثعبان ـ

قال له الإله: «ستمّر ثلاثة قوارب في النهــر. سيسافر الموت في اثنين منهـا. إذا حـذرت أيـا منهما يخلو من الموت فسوف أجعلك خالداً».

ترك الثعبان القارب الذي كان محملاً بسلال اللحم الفاسد يمرُّ. لم يكترث بالثاني الـذي كـان مليئاً بالبشر. بدا الثالث فارغا وحين وصل رحّب به.

لهذا السبب أصبح الثعبان خالداً في إقليم شيبياس.

وفي كل مرة يدبّ فيه الهرم يمنحه الإله ثوباً جديداً.

ـ الضفدعة ـ

جاء هنود «التينو» الأوائل من كهفٍ في هايتي.

لم يشفق الشمس عليهم. فجأة وبدون سابق إنذار خطفهم وبدأ يمسخهم. حوّل الشخص الـذي كان يحرس الليل إلى حجر. صنع من الصياد أشجاراً وحوّل الشخص الذي ذهب ليجمع الأعشاب العطرية إلى طائر يغني في الصباح.

هرب أحدهم من الشمس آخذاً معه جميع النساء.

لا يوجد ضحك في أغنية الضفادع الصغيرة في الجزر الكاريبيّة. كان هؤلاء هم أطفال «التينو» في تلك الأيام حين كانوا ينادون أمهاتهم كانوا يقولون: «تو، تو».

ـ الخفّاش ـ

حين كان الزمن ما يزال في مهده، لم يكن يوجد في العالم مخلوق أقبح من الخفّاش.

صعد الخفاش إلى السماء ليبحث عن الإله لم يقل له أنا ضجر من كوني أبدو قبيحاً وأريدك أن تمنحني ريشاً ملوناً. قال له: «من فضلك امنحني ريشاً فأنا أموت من البرد».

ولأنه لم يبق لدى الإله ريشة واحدة قرّر الإله: «سيمنحك كل طائر ريشة».

وهكذا حصل الخفاش على الريشة البيضـاء مـن الحمامـة وعلـى الخضـراء مـن الببغـاء وعلـى القزحية من الطنان وعلى الوردية من البَشْروس وعلى الحمراء من قنزعة الكاردينال وعلـى الزرقـاء من ظهر الرفراف وعلى الصلصالية من جناح النسر وعلى الريشـة الشمسية الـتي تتوهـج في صـدر الطوقان.

وبدأ الخفاش الغني بالألوان والنعومة يطير بين الأرض والسماء وفي كل مكان يذهب إليه يصبح الهواء منعشاً وتخرس الطيور إعجاباً. يروي شعوب الزابوتيك أن قوس قزح ولد من صدى طيرانه.

نفخ الغرور صدره واكتسب نظرة ازدرائية ووجّه ملاحظاتٍ مهينة.

دعتْ الطيور إلى مؤتمر ثم طارت جميعاً إلى الإله. شرحت له: «إن الخفاش يسخر منا ونشعر بالبرد بسبب الريش الذي أخذه منا».

وفي اليوم التالي حين حلق الخفاش أصبح فجأة عارياً وسقط مطر من الريش على الأرض.

ما يزال يبحث عنه. هذا الأعمى الدميم، عدوّ الضوء يحيا مختبئاً في الكهوف. حين يخيم الليل يخرج للبحث عن الريش المفقود طائراً بسرعة كبيرة ولا يتوقّف أبداً لأنه يشعر بالعار إن رآه أحد ما.

- البعوض -

كان هناك كثير من الموتى في قرية النكتاز. كان يوجد في كل جسمٍ ميت ثقبٌ يُسرَقُ منه الدم.

كان المجرم طفلاً بدأ يقتل قبل أن يتعلّم المشي. تلقّى الحكم بالموت وهو يزأر من الضحك. اخترقوه بالرماح فأخرجها من جسمه وهو يضحك كأنها أشواك.

قال الطفل: «سأعلمكم كيف تقتلونني».

اقترح على جلاديه أنه يجب عليهم أن يشعلوا ناراً كبيرة ويرموه فيها.

تبعثر رماده في الجو وهكذا بدأت البعوضات الأولى المتلهفة للأذى بالطيران.

- العسل -

كان العسل هارباً من زوجتي أخيه بعد أن رميتاه مرات عديدة خارج الأرجوحة.

طاردتاه ليلاً ونهاراً. شاهدتاه وهذا جعل اللعاب يسيل من فميهما. نجحتا فقط في الحلم في لمسه ولعقه وأكله.

استمر حقدهما بالنمو. وفي أحد الصباحات وبينما كانت زوجتا أخيه تستحمان عثرتا على العسل على ضفة النهر. ركضتا نحوه فتبلّل بالماء. وحالما أصبح رطباً انحلّ العسل.

ليس من السهل العثور على العسل الضّائع في خليج «باريا»، عليك أن تتسلق الأشجار وفأسك في يدك وتفتح الجذوع وتقوم بكثير من التنقيبات. يُؤكل العسلُ النادرُ بمتعة وخوف لأنه يقتل أحياناً.

- البذور -

صنع «باتشاكاماك» الذي كان ولداً للشمس رجلاً وامرأةً في كثبان «لورين».
لم يكن يوجد شيء يؤكل فمات الرجل من الجوع.
حين كانت المرأة منحنية لتبحث عن الجذور دخل إليها الشمس وصَنَعَ طفلاً.
غار باتشاماك فقبض على الطفل الحديث الولادة وقطّعه إرباً لكنه تاب فجأةً أو خاف من غضب أبيه الشمس، فبعثر في العالم أشلاء أخيه المقتول.
نبتت الذرة من أسنان الطفل الميت ونما المنيهوت من عظامه. أخصب دمُه الأرضَ، وبزغت الأشجار المثمرة والتي تمنح ظلاً من اللحم المتناثر.
هكذا ولد الرجال والنساء على هذه الشواطىء وحيث لا تمطر السماء أبداً يعثرون على الطعام.

- الذرة -

صنعت الآلهة (كويتشز- المايا) الأوائل من الطين عاش بعض منهم. كانوا ناعمين يفتقدون للقوة، تساقطوا قبل أن يقدروا على المشي.
بعد ذلك جرّبت الآلهة الخشب. تحدثت الدمى الخشبية ومشت إلا أنها كانت يابسة ولم تمتلك دماً أو جوهراً، ذاكرةً أو هدفاً. لم تعرف كيف تتحدث مع الآلهة، أو لم تستطع أن تفكر بأي شيء تقوله لها.
بعد ذلك صنعت الآلهة الأمهات والآباء من الذرة. صاغت لحمها من الذرة البيضاء والصفراء
النساء والرجال الذين ولدوا من الذرة رأوا مثل الآلهة وشملت نظرتهم جميع أنحاء العالم.
أرسلت الآلهة عليهم نفساً وتركت أعينهم مظلّلةً إلى الأبد لأن الآلهة لم ترغب أن يرى الناس ما وراء الأفق.

- التبغ -

توسّل هنود «الكاريري» إلى الجدّ أن يسمح لهم بتجريب لحم الخنازير البرية التي لم تكن قد وجدت بعد، إلا أن الجدّ، والذي يدعى مهندس الكون اختطف أطفال الكاريري الصغار وحوّلهم إلى خنازير برية ثم خلق شجرة مرتفعة جداً ليمكنهم من الهرب إلى السماء.
طارد الناس الخنازير في الشجرة من غصن إلى آخر. واستطاعوا أن يقتلوا بعضها. أمر الجد النمل أن يُقوِّض الشجرة. حين سقطت تعرّض الصيادون لكسور في عظامهم. ومنذ أن حدث السقوط الكبير أصبحنا جميعاً نمتلك عظاماً مقسمة وأصبحنا قادرين على تحريك أصابعنا وأرجلنا وأجسادنا.

أُقيمت مأدبة كبيرة من لحم الخنازير الميتة في القرية.

وجه الناس دعوة إلى الجد ليهبط من السماء حيث كان يعتني بالأطفال الذين نجوا من الصيد إلا أنه فضّل أن يبقى فيها.

أرسل الجدّ التبغ ليأخذ مكانه بين البشر. حين يدخنون يتحدثون مع الإله.

ـ المتة ـ

كانت القمر متلهفةً لتخطو على الأرض. رغبت أن تتذوق الفاكهة وتستحم في أحد الأنهار.

شكراً للسحاب الذي مكّنها من النزول. غطت السحب السماء من المغيب إلى الفجر فلم يلمح أحدٌ غياب القمر.

كان الليل مدهشاً على الأرض. مشتْ القمر في غابة «البارانا» وحصلت على عطور سرية وأطاييبَ وسبحت طويلاً في النهر. أنقذها فلاحٌ عجوز مرتين. حين كان اليغور على وشك أن يغرز أنيابه في عنقها قطع العجوز حنجرة الوحش بمديته. وحين جاعت القمر أخذها إلى منزله. قدمت لها زوجة الفلاح كعكات الذرة المدوّرة ثم اعتذرت شاكيةً من الفقر.

في الليلة التالية نظرت القمر من السماء إلى الأسفل حيث كان منزل صديقها الذي بناه في فسحةٍ غابيةٍ بعيدة جداً عن القرى وعاش فيه منفياً مع زوجته وابنته.

ورأتْ القمر أنه لم يعد يوجد طعام في الكوخ بعد أن قُدِّمتْ لها آخر كعكات الذرة. فالتفتت إلى أنوارها الأكثر إشعاعاً وطلبت من الغيوم أن تمطر مطراً خاصاً جداً حول الكوخ.

في الصباح نمتْ أشجار مجهولة وظهرت بين أوراقها السوداء أزهار بيضاء.

لم تمت ابنةالفلاح العجوز أبداً. أصبحت ملكة المتة وبدأت تتجول في أنحاء العالم لتقدمها إلى الآخرين. إن المتة توقظ النائمين وتُنَشّط الخاملين وتؤاخي بين البشر الذين لا يعرفون بعضهم.

ـ المنيهوت ـ

لم يمسّها رجل، إلا أن ولداً ذكراً نما في حوض ابنة الزعيم.

سمّوه ماني. بعد بضعة أيام من ولادته بدأ يجري ويتحدث. جاء البشر من زوايا الغابة البعيدة ليقابلوا ماني الإستثنائي.

لم يُصب ماني بأي مرض لكنه حين بلغ العام قال: «سأموت»، ومات.

بعد وقت قصير نمت نبتة لم ترى من قبل على قبر ماني وكانت الأم تسقيها كل يوم. نمت النبتة . أزهرت وأثمرت كانت الطيور التي تنقرها تطير بشكل غريب تغني وتدور بجنون.

في أحد الأيام انشقت الأرض في المكان الذي يستلقي فيه ماني. أدخل الرئيس يده وسحب جذراً لحمياً كبيراً. طحنه بالحجر ووصنع عجينة ثم عصرها وبدفء النار صنع الخبز للجميع.
سمّوا الجذر «ماني أوكا»، «منزل ماني»، ويسمّى «مانيوك» في الحوض الأمازوني وأماكن أخرى.

ـ البطاطس ـ

رغب زعيم من جزيرة «تشيلو» المزدحمة بنوارس البحر أن يمارس الحب مع الآلهة.
حين تعانقت الآلهة المتزوجة اهتزّت الأرض وارتفعت أمواج كبيرة. كان هذا معروفاً كثيراً جداً إلا أنه لم يشاهد أحد ذلك.
سبح الزعيم إلى الجزيرة الممنوعة متلهفاً لمفاجئة الآلهة. كل ما استطاع رؤيته عظاءة عملاقة، فمها مفتوح مليء بالزبد. لسانها كبير بشكل غير مألوف ويخرج من رأسها النار.
دفنت الآلهة الزعيم الذي لا يمتلك حكمة في الأرض وحكمت عليه بأن يأكله الآخرون. وكعقابٍ على فضوله غطّت جسده بأعين عمياء.

ـ المطبخ ـ

عثرت امرأة من شعب «التيلاموك» على كوخ في وسط الغابة كان يصدر دخاناً. دفعها الفضول إلى الإقتراب والدخول.
كانت النار تشتعل بين أحجار في وسط الكوخ وتتدلى من السقف أسماك السلمون. سقطت واحدة على رأسها. التقطتها المرأة وعلّقتها في مكانها. سقطت السمكة مرة ثانية وضربتها على رأسها. علقتها ثانية إلا أنها كرّرت السقوط.
رمت المرأة الجذور التي جمعتها لتأكلها في النار. أحرقتها النار في ومضةٍ. غاضبةً، ضربت المرأة النار بالمسعر بعنفٍ حتى أن النار كانت على وشك الإنطفاء حين وصل صاحب المنزل وهدأ ذراعها.
بعث الرجل الغامض الحياة في ألسنة اللهب وجلس إلى جانب المرأة وشرح لها: «لم تفهمي».
كانت على وشك اطفاء النار لأنها ضربتها وبعثرت جمارها. وهذا عقاب لا تستحقه. أكلت النار الجذور لأنها اعتقدت أن المرأة قدمتها إليها. وقبل ذلك كانت النار هي التي سبّبت سقوط السمكة عدة مرات على رأس المرأة لا لتؤذيها بل لتخبرها أنه بوسعها أن تطبخها.
ـ أطبخها؟ ماذا يعني هذا؟
وهكذا علّم صاحب المنزل المرأة كيف تتحدّث مع النار وتشوي السمك على الجمر وتأكله بشهيّة.

ـ الموسيقا ـ

حين أصدر الروح (بوبي ـ جوكو) لحناً بزغت الذرة من الأرض دون توقف، نَيِّرَةً وقدَّمت آذاناً عملاقةً مليئةَ بالحبوب.

قطفت امرأة الذرة بطريقةٍ خاطئةٍ. شدَّت أذناً بقوة فآذتها. انتقمت الأذن وجرحت يدها. أهانت المرأة (بوبي جوكو) ولعنت صفيرَهُ.

حين أغلق بوبي جوكو شفتيه ذبلت الذرة ويبست ولم يُسْمَع بعد ذلك الصفير المرح الذي جعل حقول الذرة تتبرعم ومنحها القوة والجمال. كان شعب «البورورو» يحرث الذرة بألمٍ ومشقة ويحصد محاصيلَ بائسةً.

إن الأرواح تعبّر عن نفسها بالصفير وحين تبزغ النجوم في الليل تحييها بهذه الطريقة وتستجيب كلّ نجمة إلى نغم هو اسمها.

ـ الموت ـ

بنى «كوموكمز» هنديٌّ المودوك الأول قرية على ضفة نهر. ورغم أنها تحتوي مساحةً واسعةً لتتحرك فيها الدببة وتنام، شكت الأيائل أن الطقس باردٌ جداً ولايوجد عشبٌ كاف.

بنى «كوموكمز» قرية أخرى بعيدة وقرّر أن يقضي نصف سنة في كل من القريتين. وقسم السنة من أجل هذا إلى ستة أشهر صيفية، وستة أشهر شتوية وخصّص الشهر المتبقي للحركة.

مضت الحياة هانئة في القريتين. ازدادت الولادات بشكل مدهش إلا إن الموتى رفضوا أن يخرجوا من القرية فأصبح عدد السكان كبيراً ولم يعد يوجد طريقة لإطعامهم.

قرّر «كوموكمز» أن يتخلّص من الموتى. كان يعرف أن رئيس أرض الموتى رجل عظيم لا يسيء معاملة أحد.

حين توفيت ابنة «كوموكمز» الصغيرة غادرت بلاد المودوك كما أمر والدها.

يائساً، استشار «كوموكمز» الشيهم فقال له:

«أنت اتخذت القرار ويجب أن تتحمّل عواقبه كأي شخص آخر».

إلا أن «كوموكمز» سافر إلى أرض الموتى البعيدة وطالب باسترداد ابنته.

فقال له الهيكل العظمي الكبير الذي كان مسؤولاً هناك: «إن ابنتك هي ابنتي الآن. ليس فيها لحم ولا دمٌ فما الذي تستطيع أن تفعله في بلادك؟»

قال كوموكمز: «أريدها مهما حصل».

فكر رئيس الموتى وقتاً طويلاً.

قال له محذراً: «خذها. ستمشي خلفك. وعندما تقترب من أرض الأحياء سيعود اللحم ويغطي عظامها. ولكن لا تلتفت إلى الوراء إلى أن تصل، أتفهم؟ سأمنحك هذه الفرصة».

انطلق «كوموكمز» ومشت الفتاة خلفه.

لمس يدها عدة مرات. كان لحمها ينمو ودفنها يزداد في كل مرة. ولم ينظر أبداً إلى الخلف. ولكن حين ظهرت الغابات الخضراء في الأفق لم يستطع أن يتحمّل القيد فأدار رأسه ملتفتاً، عندئذٍ تفتّتَتْ حفنة من العظام أمام عينيه.

- الإنبعاث -

كان من عادة الميت أن يعود بعد خمسة أيام في البيرو. كان يشرب كأساً من «الشيكا» ويقول: «أنا الآن خالد».

كان يوجد كثير من البشر في العالم. كانت المحاصيل تزرع في قاع الجروف وعلى حواف المهاوي ومع ذلك لم يكن الطعام كافياً.

بعد ذلك مات رجل في «هواروتشيري».

اجتمعت القبيلة كلها في اليوم الخامس لتستقبله. انتظروه من الصباح إلى ما بعد حلول الليل. بردت الصحون الساخنة وبدأ النوم يُطبق الجفون. لم يعد الرجل الميت.

جاء في اليوم التالي. كان الجميع غاضبين. صرخت زوجته التي شعرت بالإهانة أكثر من الجميع: «أنت لا تصلح لتسيء، دائماً لا تصلح لشيء. يتقيد جميع الأموات بالمواعيد إلا أنت».

تلعثم المنبعث مطلقاً بعض الأعذار إلا أن المرأة ضربته بعرنوس ذرة على رأسه وتركته في الخارج ممدّداً علي الأرض. عندئذ غادرتْ الروح الجسد وطارت متحولةً إلى حشرة سريعة تصدر طنيناً ولم تعد أبداً.

منذ ذلك الوقت لم ينبعث أي ميت ليختلط بالأحياء وينافسهم على طعامهم.

- السحر -

عاقبت امرأة عجوز من «التوكونا» بعض الفتيات اللواتي لم يقدمن لها الطعام. نزعت في الليل عظامهنّ من سيقانهن والتهمت لُبَّها وهكذا لم تستطع الفتيات أن يمشين أبداً.

تلقت العجوز في طفولتها وبعد ولادتها حالاً قوى الإشفاء والإنتقام من الضفدعة. علمتها الضفدعة أن تشفي وتقتل، أن تسمع أصواتاً لا تسمع وأن ترى ألواناً لا تلمح. تعلمت أن تدافع عن نفسها قبل أن تكتسب النطق. وقبل أن تتمكن من السير عرفت كيف تكون حيث لم تكن لأن رماح الحب والكراهية تخترق حالاً الأدغال الأكثر كثافة والأنهار الأكثر عمقاً.

حين قطع «التوكوناز» رأسها جمعت العجوز دمها بيديها ونفخته باتجاه الشمس وصرخت:

- «روحي تدخل إليك أيضاً».

منذ ذلك الوقت يتلقى أي شخص يمارس القتل في جسده ودون أن يريد أو يعرف، روح ضحيته.

- الضحك -

رأى الخفاش الذي كان معلقاً إلى غصن من قدميه محارياً من «الكايابو» منحنياً على جدول.

أراد أن يصادقه.

نزل إلى المحارب وعانقه. وبما أنه لم يكن يعرف لغة «الكايابو» تحدث معه بيديه. سحبتْ مداعبات الخفاش من الرجل الضحكة الأولى. وكلما كان يضحك كان يدبّ فيه الضعف. ضحك كثيراً إلى أن فقد كل قوته وسقط مغشياً عليه.

حين علم القرويون بذلك غضبوا كثيراً. حرق المحاربون كومة من الأوراق الجافة في كهف الخفاش وأغلقوا مدخله.

بعد ذلك تناقشوا، قرّر المحاربون أن الضحك يجب أن يقوم به فقط الأطفال والنساء.

- الخوف -

نادتهم الأجسادَ التي لا تُصَدَّق إلا أن رجال «النيفاكل» لم يتجاسروا على الدخول. شاهدوا النساء تأكل وتبتلع لحم السمك بالفم الأعلى بعد أن تمضغه بالفم الأسفل. كان يوجد أسنان بين سيقانهن.

وهكذا أشعل الرجال نيراناً ونادوا النساء وغنوا ورقصوا معهن.

جلست النساء في حلقة بأرجل متقاطعة.

رقص الرجال طوال الليل. تموجوا. التفتوا. طاروا كالدخان والعصافير. وحين جاء الفجر سقطوا أرضاً مغشياً عليهم. رفعتهم النساء بلطف وقدّمت لهم الماء ليشربوا.

كانت الأرض منقطة بالأسنان حيث كن يجلسن.

- السلطة -

كانت النساء في الأزمنة الغابرة تجلس في مقدمة المركب والرجال في مؤخرته. كانت النساء تصطاد الحيوانات والأسماك تغادر القرية وتعود إليها أنّى شاءت. كان الرجال يبنون الأكواخ، يحضّرون الطعام، يغذون النار ليطردوا البرد ويدبغون الجلود من أجل الملابس.

هكذا كانت حياة هنود «الأونا» و «الياغان» في تييرا ديل فويغو، إلى أن جاء يوم قتّل فيه الرجالُ جميعَ النساء، وارتدوا الأقنعة التي صنعتها النساء لتخيفهم بها.

أُعفيت فقط الفتيات الحديثات الولادة من القتل. حين كن يتربيّن. كرّر القتلة لهن أن قدرهُنّ خدمة الرجال. صدّقن ذلك، أيضاً بناتهنّ صدّقن ذلك وبنات بناتهن.

- القوة -

في الأراضي التي وُلد فيها نهر «جوروا» كان «ميني» العجوز مالك الذرة يقّدم الحبوب مشّويةً وهكذا لم يستطع أحد أن يزرعها.

نجحت العظاءة في سرقة حبة طازجة منه. قبض عليها العجوز «ميني» ونزع حنكها وأصابعها إلا أنها نجحت في تخبئة الحبة وراء ضرسها الخلفي، ثم بصقتها في الأرض المشاع. كان فكها كبيراً وأصابعها طويلة جداً صعبة الانتزاع.

كان العجوز ميني مالك النار أيضاً. انسلت الببغاء إلى جوارها، بدأت تصرخ بصوت مرتفع. ضربها العجوز ميني بكل شيء كان في متناول يده إلا أن الببغاء صدت القذائف إلى أن شاهدت عصا مضاءةً في طريقها إليها، عندئذ أمسكتها بمنقارها الذي كان ضخماً كمنقار الطوقان وهربت. تبعها سيل من الشرر. أحرقت الجمار، التي كانت تهوّيها الريح، منقارَها، إلا أنها كانت قد وصلت إلى الأشجار حين قرعَ العجوز ميني طبله وحرّك عاصفة مطريةً.

وضعت الببغاء العصا المحترقة في جوف شجرةٍ تحت حماية الطيور الأخرى، وطارت راجعةً إلى المطر. أراحت المياه حروقها إلا أن منقارها قَصُرَ وتحدّب وما يزال يظهر فيه ندبة بيضاء سببتها النار.

حمت الطيور النار المسروقة بأجسادها.

- الحرب -

عند الفجر، أعلن البوق من الجبل أن الوقت قد حان للقوس والنشاب وبنادق النفخ.

حين خيم الليل لم يبق شيء في القرية سوى الدخان.

استلقى رجل بين الموتى دون أن يتحرك. لطّخ جسده بالدم وانتظر. كان الشخص الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من شعب «البالاوينغ».

حين ذهب العدو نهض الرجل وتأمّل عالمه المدمّر. سار بين البشر الذين تقاسموا معه الجوع والشبع. وبحث بلا جدوى عن شخص أو أثر لم يُمْحَ. خدّره الصمت المرعب. أمرضته رائحة الدم والنار. شعر بقرف كونه حياً. فرمى نفسه بين أبناء قومه.

مع الضوء الأول جاءت النسور. لم يبق شيء داخل ذلك الرجل سوى ضبابٌ، وتوقٌ للنوم، وبقي أيضاً: أن يترك نفسه لأن يلتهم.

إلا أن ابنة الكندور فتحت باباً عبر الطيور آكلة الجثث المتحلقة. ضربت بقسوة بجناحيها وغاصت، فتمسك بقدميها وأخذته ابنة الكندور بعيداً.

- حفلات -

كان رجل من «الأنويت» يصطاد رنّةً حين ظهر خلفه فجأة نسر.

قال النسر: «لقد قتلتُ شقيقيك. إذا أردت أن تنقذ نفسك يجب أن تقيم حفلة في قريتك ليغني الجميع ويرقصوا».

ـ حفلة؟ غناء؟ ماهذا؟ ماهو الرقص؟

ـ تعال معي.

أراه النسر حفلةً. كان يوجد الكثير من الطعام الجيد والشراب، والطبل يقرع بقوة كقوة قلب أم النسر العجوز، وإيقاعه يرشد أبناءها عبر المساحات الواسعة للجليد والجبل. كانت الذئاب والثعالب وضيوف آخرون يرقصون ويغنون إلى شروق الشمس.

عاد الصياد إلى قريته.

فيما بعد، وبعد وقت طويل، عرف أن أم النسر العجوز وجميع عجائز العالم النسري كانوا أقوياء ورشيقين وسريعين. تعلّم البشر أخيراً أن يُغنّوا ويرقصوا وأرسلوا إليهم، من بعيد، مباهج أدفأت الدم.

- الضمير -

حين انخفضت مياه «الأورينوكو» أحضرت القوارب الكاريبيين بفؤوس قتالهم.

لم يمتلك أحد فرصةً ضدّ أبناء اليَغْوَر. مهدوا القرى وصنعوا العيدان من عظام ضحاياهم. لم يخشوا أحداً. كان الشيء الوحيد الذي زرع الهلع فيهم شبح ولد في قلوبهم.

كان الشبح ينتظرهم خلف الأشجار. حطم جسورهم ووضع في ممراتهم نباتات متعرشة ومتشابكة. كان يسافر في الليل وليحرفهم عن الطريق كان يمشي إلى الخلف. كمن في المنحدر الذي تحطّمت عليه الصخور، في الوحل الذي غاص تحت أقدامهم، في ورقة النبات السام، في لسة العنكبوت. بنَفَس صرعهم. أدخل الحمّى عبر آذانهم وسرق منهم الظل.

لم يكن ألَماً، إلّا أنه يؤذي. لم يكن موتاً، إلا أنه يقتل. كان اسمه «كاينما». ولد بين الغزاة لينتقم للمغزوِّين.

ـ المدينة المقدّسة ـ

أمر «ويراكوتشا» الذي هرب من الظلمة الشمس أن يرسل فتاةً وطفلاً إلى العالم ليضيئا الطريق للعميان.

وصل ولدا الشمس إلى ضفة بحيرة «تيتيكاكا» وانطلقا عبر الوهاد «الآندية». كانا يحملان ساريةً ذهبيةً، أينما غاصت من الضربة الأولى كانا يعثران على مملكةٍ جديدة. وعلى العرش كانا يتصرفان كوالدهما الذي يمنح الضوء والوضوح والدفء ويسقط المطر والندى ويقوي المحاصيل ويكاثر القطعان ولايترك يوماً يمر لا يزور فيه العالم.

حاولا أن ينصبا السارية في كل مكان إلا أن الأرض كانت تعيدها. اجتازا المرتفعات وعبرا الشلالات والهضاب. كانت أقدامهما تغير أي شيء فتتحول الأرض القاحلة إلى خصبة وتجف المستنقعات وتعود الأنهار إلى مجاريها. في الفجر كان يرافقهما إوز أبيض وفي المساء النسور.

غرس ولدا الشمس أخيراً السارية قرب جبل «وانا كوري» حين ابتلعتها الأرض صعد قوس قزح في السماء.

بعد ذلك قال الآنكي الأول لأخته وزوجته:

ـ لنجمع البشر سويةً.

كان الوادي الذي يمتد بين الجبال والمروج مغطًى بأشجار خفيضة. ولم يكن أحد يمتلك منزلاً كان الناس يعيشون في الثغور أو خلف الصخور يقتاتون على الجذور ولم يعرفوا كيف ينسجون القطن أو الصوف ليحموا أنفسهم من البرد.

تبع الجميع ولدي الشمس. آمن الجميع بهما وعرف الجميع من تألق كلماتهما وأعينهما أنّ ولَدَيْ الشمس لم يكونا كاذبين. رافقوهما إلى المكان الذي كانت تنتظرهم فيه مدينة كوزكو العظيمة التي لم تكن قد ولدت بعد.

ـ الرحّالة ـ

جاء مايا الكويتشز من الشرق.

حين وصلوا إلى الأراضي الجديدة حاملين آلهتهم على ظهورهم خافوا من أنه لن يوجد فجر.

تركوا السعادة خلفهم في «تولان» ووصلوا مقطوعي النفس بعد رحلةٍ طويلة مؤلمة. انتظروا عند حافة غابة «إزماتشي» صامتين محتشدين معاً دون أن يجلس أحد منهم أو يتمدّد ليستريح. إلا أنّ الوقت مرّ وخيّم الليل.

أخيراً ظهر نجم الصباح في السماء.

حضن هنود الكويتشز بعضهم ورقصوا، ثم، وكما يقول الكتاب المقدّس: أشرقت الشمس كرجل.

منذ ذلك الوقت يجتمع هنود الكويتشز في نهاية كل ليلة ليحيّوا نجم الصباح ويراقبوا ولادة الشمس حين يكون الشمس على وشك الظهور، يقولون:

ـ لقد جئنا من هناك.

ـ أرض الميعاد ـ

تنقّلوا أكثر من قرنين ليلاً ونهاراً، بلانوم، عراةً ومسحوقين. ذهبوا للبحث عن مكان تمتدّ فيه الأرض بين القصب والسعادى(١)

ضاعوا مراراً. تبعثروا وتجمعوا ثانيةً. ضربتهم الريح. اندفعوا إلى الأمام وانطلقوا. ارتطموا ببعضهم وتدافعوا. سقطوا من الجوع ونهضوا. سقطوا ثانية ثم نهضوا من جديد. وفي الإقليم البركاني حيث لاينمو عشب أكلوا لحم الثعابين.

حملوا رايةً وعباءة الإله الذي تحدث مع الكهنة في الحلم ووعدهم بمملكة من الذهب وريش الكتزل قال لهم: «سوف تُخضِعون جميع الشعوب والمدن من الماءِ إلى الماء، وليس بالسحر بل بشجاعة القلب وقوة الذراع».

حين اقترب من البحيرة المتلألئة تحت شمس الظهيرة بكى شعب الآزتيك للمرة الأولى. كان هناك جزيرة الصلصال الصغيرة: فوق الصبّار الشوكي والأسَلِ والأعشاب البرية كان النسر يفرد جناحيه.

حين رآهم قادمين أخفض رأسه. كان هؤلاء المنبوذون المحتشدون على حافة البحيرة، القذرون، المرتجفون، الشَّعْبَ المختار الذي ولد في الأزمنة الغابرة من أفواه الآلهة.

رحّب بهم هويتزيلو بوتشلي: «هذا هو مكان راحتنا وعظمتنا». تعالى رنين صوته: «آمر أن تدعى هذه المدينة التي ستكون ملكة على جميع المدن الأخرى «تينوشتيتلان»: هذه هي المكسيك»

ـ أخطار ـ

حذّر الذي خلق الشمس والقمر «التينوز» وطلب منهم أن يراقبوا الموتى.

يختبىء الموتى في النهار ويأكلون ثمر الغوافة، ولكن في الليل يتجولون ويتحدّون الأحياء. كان الرجال الموتى يطلبون المبارزة والنساء الميتات ممارسة الحب. كانوا يختفون فوراً في المبارزات، وفي

---

(١) ـ السعادى: نوع من النبات.

ذروة الحبّ كان يجد العاشق نفسه وحيداً ولاشيء بين ذراعيه. على المرء أن يتحسّس البطن بيده قبل أن يقبل مبارزة رجل أو النوم مع امرأة لأن الموتى لا يمتلكون سُرَراً.

حذّر إله السماء «التينوز» أيضاً أن يراقبوا حتى البشر الذين يرتدون ثياباً كثيرة.

صام الرئيس كايسيمو لمدة أسبوع وكان جديراً بكلماته: أعلن الواحد اللامرئي، الذي له أم ولابداية له أن متعة الحياة ستكون قصيرة. سيأتي رجال يرتدون الملابس وسوف يهيمنون ويقتلون.

- بيت العنكبوت -

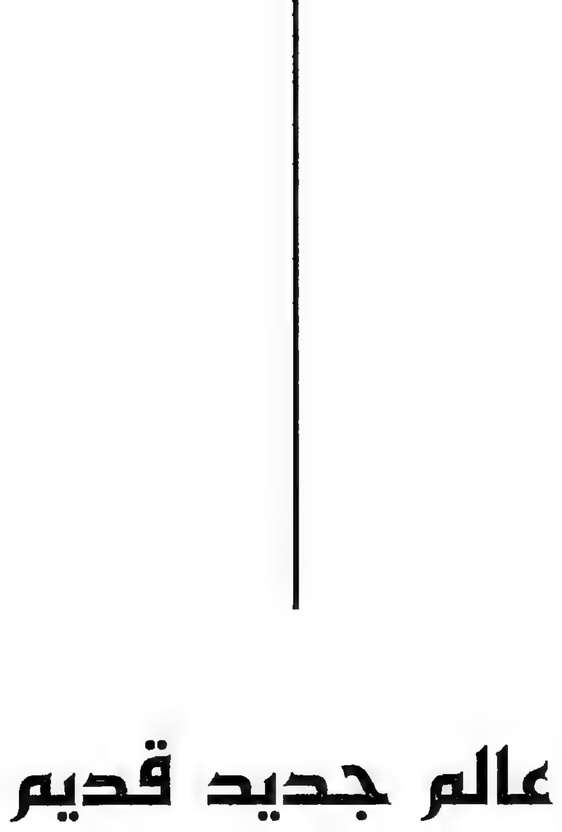
حلم كاهن «السيو» شارب الماء أن مخلوقات أجنبية كانت تنسج بيت عنكبوت ضخم جداً حول شعبه. استيقظ عارفاً أن هذا سيحدث وقال لشعبه: «حين يحدث هذا ستعيشون في منازل رمادية مربعة على أرض عارية وقرب تلك المنازل الرمادية المربّعة ستموتون من الجوع».

- النبي -

أصغى الكاهن ـ اليغور «لليوكاتان» إلى رسالة الآلهة وهو ممدّد على الحصير. تحدثوا معه عبر السقف بلغة لم يكن يعرفها أحد.

تذكّر شيلام بيلام، الذي كان الناطق باسم الآلهة مالم يحدث بعد:

«سيتبعثر في أنحاء العالم النساء اللواتي يغنين والرجال الذين يغنون.. لاأحد سينجو.. لاأحد سيُنْقَذْ سيسود البؤس في سنوات حكم الجشع... سيُحوَّل الرجال إلى عبيد. حزيناً سيكون وجه الشمس... سيخلو العالم من السكان سيصبح صغيراً وذليلاً».



عالم جديد قديم

١٤٩٢ م: البحر المحيط

- مسار الشمس إلى الآنديز -

النسائم عذبة وعليلة كالتي يجود بها ربيع «سيفيل» والبحر يشبه نهر «كواد الكويفيري». لكن حالما ترتفع الموجة سرعان مايصيبهم دوار البحر فيتقيأون وهم مضغوطون في مقدمات السفن، الرجال الذين يشقون البحر المجهول، البحر الذي بلا إطار على متن ثلاث سفن صغيرة متجاورة. رجال، قطرات صغيرة في الريح. ولنفترض أن البحر لايحبهم؟ الليل يخيّم على السفن الشراعية. هل ستؤرجحها الريح؟ يقفز الأدورادو وهو يطارد سمكة طائرة على سطح السفينة ويزداد الهلع. لايُقدِّر الطاقم العطرَ الزعتريَّ للبحر الذي يتموّج لامبالياً ولايصغون إلى ضجيج النوارس وطيور الطيش التي تجيء من الغرب. ذلك الأفق: هل تبدأ الهاوية من هناك؟ هل ينتهي البحر؟

عيون تشعّ منها الحمّى لبحارةٍ ضربهم الطقس في ألف رحلة، أعينٌ لامعة لمجرمين مزمنين يُجرّون من السجون الأندلسية إلى السفن بالقوة: هذه الأعين لاترى الإنعكاسات النبوية للذهب والفضة في زبد الأمواج ولافي طيور الجبال والأنهار التي تُحلّق فوق السفن ولا في الأسَل الأخضر والأغصان الكثيفة التي تعلق بها القواقع ولا في الطحلب البحري. أهذا قاعُ الهاوية حيث يبدأ الجحيم بالاشتعال؟ في أي نوعٍ من الأنياب ستقذف الرياح التجارية[1] هؤلاء الرجال الصغار؟ يحدّقون بالنجوم باحثين عن الله، إلا أن السماء غامضة كهذا البحر الذي لم يُسبر من قبل. يسمعون زئيره، البحر الأم، ذو الصوت الأجش، يجيب الريح بعبارات الإدانة الأبدية. طبول غامضة تقرع في الأعماق، يصلّبون أو يصلّون ويتمتمون: الليلة سننسحب من العالم، الليلة سننسحب من العالم.

---

(١) - رياح تهب باطراد نحو خط الإستواء.

١٤٩٢م: غواناهاني

- كولومبس -

يركع على ركبتيه باكياً. يقبّل الأرض. يخطو إلى الأمام. يترنح لأنه لم ينم منذ شـهر، ويقطع رؤوس بعض الأغصان بسيفه.

بعد ذلك يرفع الراية. متكئاً على ركبة واحدة بعينين مرفوعتين إلى السماء يلفظ ثلاث مـرات: اسمي إيزابيلا وفرديناند. وإلى جانبه كان الناسخ رودريغـو إيسـكوبيدو، البطـيء بالكتابـة، يخـطّ السند.

بدءاً من اليوم يصبح كلّ شيء لهذين الملكين البعيدين: البحر المرجاني، الشـواطىء، الصخـور المخضّرة بالطحالب، الغابات، الببغاوات، والبشر العراة الذين لايعرفون شيئاً إلى الآن عن الثيـاب والخطيئة أو النقود، والذين كانوا ينظرون إلى المشهد بحذر.

يترجم لوي توغي أسئلة كريستوف كولومبس إلى العبرية: «هل تعرفون مملكة الخـان العظيـم؟ من أين هذا الذهب الذي تعلقونه على آذانكم وأنوفكم؟».

يحدق به الرجال الذين تشبه جلودهم ورق الغار بـأفواه فـاغرة، يحـاول المـترجم أن يسـتخدم ذخيرته من اللغة الكلدانية: «الذهب؟ المعابد؟ القصور؟ ملك الملوك؟ الذهب؟».

يحاول بعد ذلك باللغة العربية، بالقليل الذي يعرفه منها: «اليابان، الصين؟ الذهب؟».

يعتذر المترجم لكولومبس باللغة القشتالية يشتم كولومبس باللغة الجنَوية ويرمي أوراق اعتمـاده على الأرض وهي مكتوبة باللاتينيـة وموجهـة إلى الخـان العظيـم. يراقـب الرجـال العـراة غضبَ المتطفّل ذي الشعر الأحمر والبشرة الخشنة الذي يرتدي قبّعة مخملية وثياباً برّاقة جداً.

حالاً سينتشر الخبر في جميع الجزر.

«تعالوا وشاهدوا الرجال الذين جاؤوا من السماء. أحضروا لهم الطعام والشراب».

١٤٩٣م: برشلونة

- يوم المجد -

يعلن عـن حضـوره المنـادون بـأبواقهم. تجلجـل الأجـراس، وتُقْرع الطبـول مصـدرةً إيقاعـات احتفالية. يصعد الأميرال الذي جاء مؤخراً من الآنديز الدرجات الحجرية، ويتقدّم علـى السجادة القرمزية وسط الانبهار المترف لتصفيق حاشية البلاط الملكـي. يصـل الرجـل الـذي جعـل نبـوءات القدّيسين صادقةً إلى المنصة، يركع، ويقبل يدي الملكة والملك.

خلفه تتقدّم الغنائم. تتوهّج على الأطباق نتف الذهب التي استبدلها كولومبس بمرايا صغيرة وقلنسوات حمراء في الحدائق البعيدة التي بَزَغَتْ خديثاً من البحر. على الأغصان والأوراق الذابلة عُرضت جلود العظاءات والثعابين، وتدخل خلفها مرتجفةً وباكيةً الكائنات التي لم تشاهد أبداً من قبل إنهم القلة التي نجت من الزكام وداء الحصبة والقرف من الطعام المسيحي والرائحة السيئة. ليسوا عراةً كما كانوا حين اقتربوا من السفن الشراعية الثلاثة وأُسروا. كانوا مكسوّين بالسراويل والقمصان وبعض الببغاوات التي وُضِعَتْ على أيديهم ورؤوسهم وأكتافهم. تبدو الببغاوات بريشها الذي سَرَقَتْهُ الريح القذرة للرحلة هاجعةً كالرجال. لم يبق على قيد الحياة أحدٌ من الأطفال والنساء الذين أُسروا.

سُمِعَتْ تمتماتٌ معاديةٌ في الصالون، الذهب قليل ولا أثر للفلفل الأسود، لجوزة الطيب والثوم أو الزنجبيل ولم يُحضر كولومبس أية حوريات ملتحياتٍ أو بشراً لهم أذيال أو أشخاصاً لهم عين واحدة أو رجل واحدة ـ وتلك القدم الكبيرة بما يكفي لتحمي من الشمس الحامية حين تُرفع إلى الأعلى.

١٤٩٣م: روما

ـ عهد آدم ـ

في الضوء الخافت لمبنى الفاتيكان الذي يفوح بعطور شرقية يملي البابا أمراً رسمياً.

مرّ وقت قصير منذ أن مُنِحَ رودريغو بورغيا من كسافيتا التابعة لفالنسيا اسم الإسكندر الرابع، ولم تمض سنة بعد على اليوم الذي اشترى فيه نقدياً الأصوات السبعة التي كانت تنقصه في المجمع المُقدّس.

يكرس الإسكندر معظم وقته للإنغماس في الملذات ولا يفكر بسر الثالوث المقدس. الجميع يعرفون أنه يفضّل القداسات القصيرة جداً ماعدا تلك القداسات التي يحتفل بها مهرجه «غابرييلينو» وهو مقنّع في غرفته الخاصة، ويعرف الجميع أن البابا قادر على إعادة تسيير موكب عيد القربان ليمر تحت شرفة امرأة جميلة.

إنه قادر أيضاً على تقطيع العالم وكأنه فرّوج: يرفع يداً ويرسم حداً من رأس الكوكب إلى ذيله، عبر البحر المجهول ويسلّم ممثل الله إلى الأبد كلّ ما اكتشف أو هو قيد الاكتشاف، في غرب هذا الحد، إلى إيزابيلا القشتالية وفرديناند الأراغوني وإلى ورثتهم على العرش الأسباني، ويعهد إليهما إرسال خبراء وحكماء ومثقفين، يخشون الله وطيبين إلى الجزر والأراضي المكتشفة أو التي ستُكْتَشَفُ ليرشدوا السكان الأصليين إلى العقيدة الكاثوليكية وإلى العادات الحسنة. وتعود ملكية أي شيء يكتشف شرق الحدّ إلى التاج البرتغالي.

ألمُ وابتهاجُ أشرعةٍ تُنْشَر: كان كولومبس في الأندلس يجهز لرحلة ثانية إلى الأقاليم التي ينمو فيها الذهب عناقيدَ على الكرمة وتنتظر الأحجار الكريمة في جماجم العظاءات.

٤٩٣ ام: ويهوسينكو

- أين الحقيقة؟ أين الجذور؟ -

ويهوسينكو، مدينة الموسيقا لا الحرب، التي تقع في وادي «تلاهكالا» هاجمها الآزتيكيون في ومضةٍ ودمّروها وقدموا الأسرى أضاحي لآلهتهم.

في ذلك المساء، جمع ليكايهواتزن، ملك ويهوسينكو الشعراء من مناطق أخرى. تحدث الشعراء في حدائق القصر عن الزهور والأغاني التي جاءت إلى الأرض، إقليمِ اللحظةِ الهاربة، والتي جاءت من داخل السماء والتي لاتستمر إلا هناك في منزل واهب الحياة. يتحدث الشعراء ويشكون:

هل يمكن أن يكون الرجال حقيقيّين؟

هل ستكون أغنيتنا حقيقية غداً؟

تتبع الأصوات بعضها الآخر. حين يخيم الليل، يشكرهم ملكُ ويهوسينكو ويودعهم:

نعرفُ شيئاً حقيقياً

وهو قلوب أصدقائنا

٤٩٣ ام: باستو

- الجميع يدفعون الجزية -

وصل جابي ضرائب إمبراطورية الآنكا حتى إلى تلك المرتفعات البعيدة في الشمال.

لم يكن لدى شعب «الكويلاسينكا» شيءٌ يدفعه، ولكن في هذه المملكة الواسعة تدفع جميع القبائل الجزية سلعاً أو عملاً. لأحد، مهما كان بعيداً أو فقيراً يستطيع أن ينسى من هو المسؤول.

عند سفح البركان يخطو زعيم «الكيلاسينغاز» إلى الأمام ويضع أسطوانة خيزرانية في يد مبعوث كوزكو. كانت الأسطوانة مليئة بالقمل.

٤٩٣ ام: جزيرة سانتا كروز

- تجربة ميغيل كينو من سافونا -

ينتشر ظلّ الأشرعة على البحر. تعوم أعشاب الخليج وقناديل البحر التي تدفعها الأمواج على سطح الماء متجهةً إلى الشاطىء.

كان كولومبس يتأمل عن ظهر إحدى السفن الشواطىء البيضاء التي نصبَ عليها مرة ثانية الصليب والمشنقة هذه هي رحلته الثانية. لايعرف كم ستطول إلا أن قلبه يخبره أنها ستنجح. ولماذا لايصدق الأميرال هذا؟ أليس من عادته أن يقيس سرعة السفينة ويده على صدره تحصي خفقات قلبه؟

في سفينة أخرى وفي حجرة الكابتن كانت فتاة شابة تُظهر أسنانها. حين يمدُّ ميكيل سوفيو يده إلى ثدييها تخدشه وترفسه وتصرخ. حصل عليها ميكيل منذ فترة كهدية من كولومبس.

يجلدها بحبل يضرب بقسوةٍ على رأسها ومعدتها وساقيها يتحول صراخها إلى أنين وأنينها إلى عويل. وفي النهاية، كان كل مايمكن سماعه هو مجيء وذهاب النوارس وصرير الأخشاب المهتزّة وبين فينة وأخرى كانت الأمواج تُدخل رذاذاً عبر فتحة الرمي

يرمي ميكيل نفسه على الجسد النازف ويضغط. يشهق ويصارع. كان الهواء يفوح براشحة القار والملح الصخري والتعرّق بعد ذلك، وفجأة تثبّتت الفتاة التي بدا أنه أغمي عليها أو ماتت أظافرها على ظهر ميكيل ثم تلتفّ حول قدميه وتدحرجه في عناقٍ عنيف.

حين يقذف ميكيل، بعد وقت قليل، لايعرف أين هو، وما الذي حدث. شاحباً، خلّص نفسه منها ورماها بعيداً بقبضته.

يتعثّر على سطح السفينة، بفمٍ فاغرٍ يأخذ نفساً عميقاً من النسيم البحري، ثم يقول بصوتٍ مرتفعٍ وكأنه يعلن حقيقة أبدية: «إن جميع النساء الهنديات عاهرات».

١٤٩٥م: سالامنكا

ـ الكلمة الأولى من أميركا ـ

ينشر إيليو أنطونيو نبريخا، عالم اللغات، قاموسه الإسباني ـ اللاتيني هنا. يتضمن القاموس المفردات الأميركية الأولى للغة القشتالية:

«كانو»: قارب مصنوع من لوح خشبي واحد.

جاءت الكلمة الجديدة من جزر الآنتيل.

رحّبَتْ هذه القوارب غير الشراعية المصنوعة من جذوع الأشجار السيبة بكريستوف كولومبس. جاء الرجال من الجزر، يجذفون القوارب بشعر أسود طويل وأجساد موشومة برموز الزنجفر. اقتربوا من السفن الشراعية وقدموا مياهاً عذبةً واستبدلوا الذهب بنوعٍ من الأجراس التنكية التي تباع بقطعةٍ نقديةٍ نحاسية واحدة في قشتالة.

١٤٩٥م: لا إيزابيلا

- كاأونابو -

يجلس السجين منفصلاً منعزلاً عند مدخل منزل كريستوف كولبس. كان مقيداً بالأغلال من كاحليه ورسغيه.

كان هذا كاأونابو الذي أحرق حصن نافيداد الذي بناه أميرال البحر حين اكتشف جزيرة هايتي. أحرق الحصن وقتل ساكنيه ولم يتوقف الأمر عند ذلك. عاقب لمدة عامين بالنشّاب الأسبان الذين كان يعثر عليهم في منطقته الجبلية «سيبو» حيث جاؤوا ليصطادوا الذهب والبشر.

زاره ألونزوا أوخيدا الذي تمرّس في الحروبِ ضد المغاربة بحجّة السلام. دعاه إلى ركوب حصانه ثم قيّده بأغلال من الحديد المصقول قائلاً: «هذه كانت جواهر يرتدونها ملوك قشتالة أثناء حفلاتهم الراقصة».

ويمضي الزعيم «كاأونابو» الآن الأيامَ جالساً قرب الباب، عيناه مثبّتتان على لسان ضوئي يغزو الأرض عند الفجر ويتراجع ببطء في المساء. لايُرَفُّ له جفن حين يأتي كولومبس، أما حين يظهر «أوخيدا» يحاول الوقوف ويحيّيه بانحناءةٍ لأنه الرجل الوحيد الذي استطاع أن يهزمه.

١٤٩٦م: لاكونسسيون

- انتهاك المقدّسات -

يحضر بارثولوميو كولومبس، شقيق كريستوفر وقائمقامه حَرْقَ لحم بشريٍّ. ستة رجال يحترقون في محرقة هايتي.

يسعل الجميع من الدخان. يحترق الستة كعقوبة ودرس: لقد دفنوا صور المسيح والعذراء التي منحها لهم «رامون باني» لتحميهم وتنصحهم. علمهم فراي رامون أن يصلّوا على ركبهم ويرددوا السلام المريمي والصلاة الربانية وأن يتحصّنوا باسم يسوع ضد الإغراء والأذى والموت.

لم يسألهم أحد لماذا دفنوا الصور. كانوا يأملون أن هذه الآلهة الجديدة ستخصب حقول الذرة والمنيهوت واللوبياء.

تضيفُ النار الدفءَ إلى الحرارةِ الرطبة اللاصقة التي تنذر بمطر غزير.

١٤٩٨م: سانتو دومينغو

- الجنة الأرضية -

كان كريستوف كولومبس يكتب رسالةً في المساء قرب نهر «أوزما». كان جسده يصرُّ من الروماتيزم أما قلبه فكان يقفز من الفرح. كان المكتشف يشرح لصاحبي الجلالة الكاثوليكيين أنه يمتلك دليلاً على أن الجنة الأرضية تقع على حلمة ثدي امرأة.

أدرك هذا منذ شهرين حين دخلتْ سفنه الشراعية إلى خليج «باريّا». هناك بدأت السفن تصعد بهدوء نحو السماء .. مبحراً ضد التيار إلى حيث يفقد الهواء وزنه وصل كولومبس إلى الحدّ الأبعد للشرق. هنا في أكثر أراضي العالم جمالاً يظهر الرجال الذكاءَ والبراعة والشجاعة ولاترتدي النساء الرائعات سوى شعرهن الطويل وعقود اللؤلؤ الملتفة حول أجسادهن هنا يوقظ الماء العذب النقيّ الظمأ. الشتاء لايعاقب والصيف لايحرق وتداعب النسائم ماتلامسه. الأشجار تَهَبُ الظلال المنعشة وتتدلى على مسافة ذراع ثمار فائقة البهجة تثير الجوع

لكن لاتستطيع أية سفينة أن تبحر خلف هذا الاخضرار والجمال. هذا هو حدّ الشرق. هنا تنتهي المياه والأراضي والجزر. هنا ترفع شجرة الحياة عالياً وبعيداً تاجَها الكبير ويُزْبدُ منبع الأنهار المقدّسة الأربعة. يُدعى أحَدُ هذه الأنهار «أورينوكو» وأشك إذا كان نهر عظيم وعميق كهذا معروف في العالم.

ليس العالم كروياً. العالم حلمة امرأة تبدأ الحلمة في خليج «باريا» وتصعد إلى نُقطةٍ قريبةٍ جداً من الفردوس السماوي. أما القمة التي تتدفّق عليها أنساغ الفردوس لن يصل إليها أبداً أيّ إنسان.

- لغة الجنة -

يسمّي «الكواروس» الذين يعيشون في ضواحي الجنة الأرضية قوسَ قُزحٍ ثعبانَ العقود، والسماءَ البحرَ الأعلى. يسمّون البرقَ توهجَ المطر، والصديقَ قلبيَ الآخر، والروحَ شمسَ الصدرِ، والبومةَ سيدةَ الليلةِ المظلمة، والعكازَ الحفيدَ المستمر، وبدلاً من: نغفر لكم. يقولون: ننسى.

١٤٩٩م: غرناطة

من هم الأسبان؟

تبقى المساجد مفتوحة في غرناطة، بعد سبع سنواتٍ من استسلام معقل العرب الأخير في إسبانيا. كان تَقَدُّم الصليب بطيئاً خلف نصر السيف. يقرّر رئيس الأساقفة سيزينيروس أن المسيح لايستطيع الانتظار.

«المغاربة»، هو الإسم الذي أطلقه المسيحيون الأسبان على أسبانيي الثقافة الإسلامية الذين عاشوا هنا ثمانية قرون. حُكِمَ على آلاف مؤلفة من الأسبان ذوي الثقافة اليهودية بالنفي. كذلك خُيِّر المغاربة بين العمادة والمنفى، أما بالنسبة للمرتدين المزيفين فقد أوقدتْ نيران محاكم التفتيش. إن وحدة أسبانيا، أسبانيا التي اكتشفت أميركا لن تنتج من حاصل جميع أجزائها.

يُساق فقهاء غرناطة المسلمين إلى السجون بأمر من رئيس الأساقفة سيزينيروس. تلتهم ألسنة لهبٍ عاليةٍ الكتبَ الدينية والشعرية والفلسفية، النسخ الوحيدة التي تحرس كلمات ثقافة رَوَتْ هذه الأراضي وعاشت فيها.

كانت قصور الحمراء المزدانة بالنقوش تشهد صامتةً على العبودية بينما كانت ينابيعها ماتزال تُقَدِّم الماء إلى الحدائق.

١٥٠٠م: فلورنسا

- ليوناردو -

يعود من السوق حاملاً أقفاصاً متنوعة على ظهره. يضعها على الشرفة. يفتح أبوابها الصغيرة وتنطلقُ الطيور. يراقب الطيور وهي تضيع في السماء مرفرفةً بفرح ثم يجلس ليعمل.

يدفِّىء يدَهُ شعاعُ الظهيرة، وعلى لوحٍ عريضٍ يرسم ليوناردو دي فينشي العالم، وفي العالم الذي يرسمه ليوناردو تظهر الأراضي التي اكتشفها كولومبس وقت الغروب. يبتكرها الفنان كما ابتكر الطائرة والدبابة والمظلة والغواصة ويعطيها شكلاً كما جَسَّدَ لغز العذارى وأهواء القدّيسين: يتخَيّلُ جسد أميركا، التي ماتزال لاتملك أسماً ويحددها كأرض جديدة وليس كجزء من آسيا.

كولومبس، الذي كان يبحث عن المشرق اكتشف الغرب. يخمِّن ليوناردو أن العالَم كَبُرَ.

١٥٠٦م: فالادوليد

- الرحلة الخامسة -

أملى وصيته ليلة أمس وسأل في الصباح إذا وصل مبعوث الملك ثم نام. أطلق أنيناً وصدرت عنه كلمات فارغة. مايزال يتنفس ولكن بصعوبة كأنه يصارع الهواء.

لم يصغِ أحد في البلاط إلى توسلاته. عاد من الرحلة مقيّداً بالأغلال ولم ينتبه أحد في الرحلة الرابعة إلى ألقابه الرفيعة ومناصبه.

يخرج كريستوف كولومبس عارفاً أنه لايوجد حبّ أو مجد لايقود إلى ألم. ولكنه، من جهة أخرى لايعرف أن الراية التي نصبها لأول مرة سوف ترفرف بعد خمسة أعوام فوق مملكة الآزتيك في أراض مجهولة وفوق مملكة الآنكا، تحت السماوات المجهولة للصليب الجنوبي. لايعرف أنه

رغم كل كذبه ووعوده وتهويماته مايزال مقصّراً. الأميرال الأعلى للبحر المحيط مـايزال يؤمـن أنـه وصل إلى آسيا من الخلف.

لن يسمّى المحيط بحر كولومبس ولن يحمل اسمه العالم الجديد بل اسم صديقه الفلورنسي أمير يكوفيسبوتشي، البحار والربّان الماهر. إلا أن كولومبس هو الذي اكتشف لوناً مذهلاً لم يوجد في قوس قُزَحِ الأوروبي. يفقد بصره ويموت دون أن يشاهده.

١٥٠٦م: تينوشتيتلان

- الإله الكوني -

غزا موكيتزوما تيوكتيبيك

النار تلتهم المعابد، الطبول تقرع يصعد السجناء واحداً بعد آخر الدرجات إلى حجر الأضاحي الدائري. يطعن الكاهن كلّ صدر بالخنجر المقدس ينتزع القلب. يرفعه إلى الأعلى ويريه للشمس الذي يشرق فوق البراكين الزرقاء.

إلى أي إله كان يمنح الدم؟ الشمس يطلبه ليولد كل يوم ويسافر من أفق إلى آخر. إلا أن طقوس الموت المذهلة تخدم أيضاً إلهاً آخرَ لايظهر في المخطوطات ولا في الترانيم.

لو لم يحكم ذلك الإله العالم لما كان هناك عبيد وأسياد، إقطاعيات ومستعمرات، لما استطاع تجار الآزتيك أن يغتصبوا ماسة مقابل حبة لوبياء من الشعوب المهزومة ولاالكاكاو مقابل الأحجار، لما عبر الحمّالون شساعة الإمبراطورية حاملين أطناناً من الضرائب على ظهورهم ولقَدَر العامة على ارتداء الأردية القطنية ولشربوا الشوكولاتة وتزّينوا بجرأةٍ بريش الكتزل الممنوع وخلاخيل الذهب ونبات المغنولية والسحلبيّة الخاصة بالنبلاء، لسقطت عندها الأقنعة التي تخبىء وجوه الزعماء المحاربين: منقار النسر، أنياب النمر، الريش الذي يتموج ويتلألأ في الجوّ.

تتلطخ درجات المعبد العظيم بالدم وتتكوّم الجماجم وسط الساحة العامة. ليس هكذا فقط يجب أن يتحرك الشمس، لا، أيضاً هكذا سيقرّر الإله السريّ بدلاً من الإنسان تبجيلاً لذلك الإله وعَبْرَ البحر يشوي وكلاء محاكم التفتيش الهراطقة في النيران أو يزجّون بهم في غرف التعذيب. إنه إله الخوف. إله الخوف الذي له أسنان جرذ وجناحا عقاب.

١٥١١م: نهر كوارافو

- أكويناباً -

وصل الكابتن بونس ليون إلى جزيرة بويرتوريكو منذ ثلاثة أعوام على ظهر سفينةٍ شراعية. فتح له الزعيم أكويناباً باب منزله وقدّم له طعاماً وشراباً وطلب منه أن يختار إحدى بناته. منحه اسمه أيضاً وبدأ بونس دي ليون يدعو نفسه أكويناباً واستبدل أكويناباً اسمه باسم الغازي.

منذ ثلاثة أيام جاء الجندي سالسيدو وحده إلى ضفة نهر كوارفو. قدّم الهنود ظهورهم له ليعبر عليها. حين وصلوا إلى منتصف النهر رموه عن ظهورهم ثم حملوه باتجاه قاع النهر إلى أن توقف عن الرفس بقدميه، ثم مدّدوه على العشب

تحوّل سالسيدو إلى كرة أرجوانية من اللحم الملوي عُصرت إلى أن تحولت إلى درع تهاجمه الحشرات ويتعفّن بسرعة تحت الشمس. ينظر إليه الهنود وأيديهم على أنوفهم. توسّلوا ليلاً ونهاراً إلى الغريب طالبين الصفح. إن مادفعهم إلى ذلك هو الشك. لافائدة الآن. تذيع الطبول الأخبار الجيدة: *«الغزاة غير خالدين»*.

غداً ستبدأ الانتفاضة بقيادة أكوينابا. سيعود زعيم المتمردين إلى اسمه القديم. سيستعيد اسمه الذي استُخدم ليذل شعبه.

كو ـ كوي، كو ـ كوي: تصيح الضفادع الصغيرة. أوقفت الطبول التي تدعو إلى الحرب أنغامها الكريستالية الرتيبة المضادة.

١٥١١م: آيماكو

ـ بيسيريلّو ـ

أُخْمِدَ العصيان المسلّح للزعيمين أكوينابا ومابوداماكا وقُتل جميع الأسرى.

يعثر الكابتن دييغو سالزار على المرأة العجوز المختبئة بين الأشجار المتشابكة ولايطعنها بسيفه. يقول لها: «خذي هذه الرسالة إلى الحاكم في كابارا».

تفتح العجوز عينيها قليلاً ثم تسحب أصابعها مرتجفةً.

تمشي مترنحة كولد صغير حاملة الظرف كأنه راية.

بينما كانت العجوز ماتزال في المدى المجدي لقوس النشّاب يطلق الكابتن سراح بيسيريللو. أمر الحاكم بونس دي ليون أن بيسيريللو يجب أن يحصل مرتين على مايُدفع لرامي القوس، كخبير أدغال وصياد هنود. ليس لهنود بويرتوريكو عدو أسوأ منه.

يُسقط السهم الأول المرأة. بيسيريلّو ذو الأذنين المرتفعتين والعينين الناتئتين سيفترسها بعضّة واحدة.

توسّلت إليه: «أيها السيد الكلب: أنا أحمل رسالة إلى الحاكم».

لايفهم بيسيريللو اللغة المحلية فتريه المرأة الظرف الفارغ.

ـ «لاتؤذيني أيها السيد الكلب».

يشمّ بيسيريللو الظرف. يدور عدّة مرات حول حقيبة العظام التي تئن، يرفع حافره ويبول عليها.

١٥١١م: يارا

- هاتوي -

في هذه الجزر، في مواضع الصلب هذه، الذين يختارون الموت بشنق أنفسهم، أو يشربون السمّ مع أولادهم عددهم كبير. لايستطيع الغزاة أن يتجنبوا هذا الانتقام ولكنهم يعرفون كيف يشرحونه: الهنود متوحشون، يظنون أنّ كل شيء مشاع كما سيقول أفيديو. إنهم بشر كسالى بالفطرة وماكرون ويقومون بعمل قليل. وتمضية للوقت انتحر كثير منهم بالسم كي لايعملوا وشنق آخرون أنفسهم بأيديهم.

لم يقتل هاتوي الزعيم الهندي لإقليم الكواهابا نفسه. هرب مع قومه من هايتي في قارب واختبأوا في كهوف الجبال إلى الشرق من كوبا.

هناك أشار إلى الذهب وقال: «هذا هو إله المسيحيين. إنهم يطاردوننا من أجله ومات آباؤنا وأخوتنا من أجله. دعونا نرقص له، إذا أفرحه رقصنا سيأمرهم هذا الإله ألاّ يسيئوا معاملتنا».

قبضوا عليه بعد ثلاثة أشهر.

قيدوه وساقوه إلى المحرقة.

قبل أن تشعل النار التي ستحوله إلى فحمٍ ورمادٍ يعده الكاهن بالمجد والراحة الأبدية إذا وافق على العمادة. يسأل هاتوي:

- «هل يوجد مسيحيون في ذلك الفردوس»؟

- «نعم».

يختار هاتوي الجحيم ويبدأ الخشب بالصرير.

١٥١١: سانتو دومينغو

- الاحتجاج الأول -

في الكنيسة المبنية من جذوع الأشجار والمسقوفة بأغصان النخيل يصخب الراهب الدومينيكاني أنطونيو مونتينسينوس كالرعد مستنكراً الإبادة الجماعية:

من منحكم حق استعباد الهنود بهذا النير المتوحش والمريع؟ تقومون بقتلهم لتحصلوا على الذهب كل يوم. أحبّوهم كما تحبون أنفسكم؟ ألا تفهمون هذا؟ ألاتشعرون؟

تتعالى همسات الغضب. لم يساوم على هذا فلاّحو استريمادوريا ورعاة الأندلس الذين أنكروا أسماءهم وتواريخهم وتحرّكوا عشوائياً حاملين بنادق صدئة على أكتافهم بحثاً عن جبال الذهب والأميرات العاريات في هذه الجهة من المحيط. كان مايحتاج إليه هؤلاء المغامرون الذين تمّ شراؤهم بالوعود على عتبات كاتدرائية سيفيل، هؤلاء البحارة الذين لسعتهم البراغيث والذين لم يجربوا

أية معركة. هؤلاء السجناء المحكومون الذين كان عليهم أن يختاروا بين أميركا أو السجن والمشنقة، هو قدّاس صفح وعزاء.

- «سوف تبلّغ الملك فرديناند عنك. سيتمّ ترحيلك».

رجل حائر يبقى صامتاً جاء إلى هذه الأراضي منذ تسعة أعوام استملك هنوداً ومناجم ومزارع وأسّس ثروة صغيرة. هذا الرجل الذي يدعى بارتولومي لاس كاساس؟ سوف يصبح حالاً الكاهن الأول الذي تمّت تسميته في العالم الجديد.

١٥١٣: كواريكا

- ليونسيسو -

تظهر عضلاتها بشكل بارز. لاتتوقف أعينها الصفراء عن اللمعان. تلهث تشهر أنيابها وتعضّ محدثةً ثقوباً في الهواء. لاتستطيع أية سلاسل أن تغلّها حين تتلقى الأمر بالهجوم.

الليلة، وبأمر من الكابتن بالبو ستغرز الكلاب أنيابها في اللحم العاري لخمسين هندياً من بنما ستنتزع أحشاءهم وتلتهمهم. ارتكبوا ذنباً فاحشاً وهو اللواط. سيحصل المشهد في قمة الجبل بين الأشجار التي اقتلعتها العاصفة منذ بضعة أيام. كان الجنود يتقاتلون بالمشاعل ليحصلوا على المقاعد الأفضل.

يرأس فاسكو نونيز بالبو الإحتفال، أما كلبه ليونسيسو فيرأس الذي ينتقمون من أجل إرضاء الإله. جسد ليونسيسو، بن بيسيريللو مليء بالندوب. كان سيداً سابقاً للأسر والتقطيع. يحصل على راتب ملازم ثانٍ وعلى حصة من كل غنيمة ذهباً وعبيداً.

بعد يومين سيكتشف بالبو المحيط الهادي.

١٥١٣: خليج سان ميكيل

- بالبو -

مخوضاً في الماء إلى خصره، يرفع سيفه ويصرخ بالرياح الأربع.

يحفر رجاله صليباً كبيراً في الرمل. يسّجل الناسخ فالديرابانو أسماء الذين اكتشفوا لتوهم المحيط الجديد ويرتل الأب أندريه تسبيحة الشكر.

يخلع بالبو درعه الذي يزن خمسين كيلوغراماً، يرمي سيفه بعيداً ويقفز.

يطرطش ويترك الأمواج تجرّه، طائشاً من فرح لايعيه. يفتح له البحر أبوابه يعانقه ويهدهده. يودُّ بالبو أن يشربه إلى أن يجفّ.

١٥١٤: نهر سينو

ـ المثول أمام القضاء ـ

عبروا كثيراً من المستنقعات والزمن وغذّتهم الحرارة والغابات والبعوض. إنهم ينفذون، على أية حال، أوامر الملك بأن لا يهاجموا السكان الأصليين إلا بعد أن يطلبوا منهم الاستسلام. يعلن القديس أوغسطين الحرب ضد الذين يسيئون استعمال حريتهم لأنها ستجعلهم يشكلون خطراً إذا لم يروّضوا، ولكن، وكما يقول القديس أسيدور: «لاتكون الحرب عادلة إذا لم يعلن عنها مسبقاً».

قبل أن يبدأوا البحث عن الذهب وعن معادن نفيسة بحجم البيض يقرأ المحامي مارتين فرديناندیز دي أنكيسو بشكل كامل دون أن يغفل علامات الترقيم الإنذار الذي سيترجمه المترجم بألم وعلى نحو متقطع.

تحدث أنكيسو باسم الملك فرديناندیز والملكة جوانا، ابنته، مروّضي الشعوب البربرية. يوضح لهنود «السينو» أن الله جاء إلى العالم وترك القديس بطرس ممثلاً له وأن وريث القديس بطرس هو البابا المقدّس وأن البابا المقدس إله الكون منح ملك قشتالة، جميع أراضي الآنديز بالإضافة إلى شبه الجزيرة هذه

يتحمّص الجنود في دروعهم، يطلب أنكسيسو من الهنود ببطء ووسوسة أن يغادروا هذه الأراضي بما أنهم لاينتمون إليها، أما إذا أرادوا البقاء فعليهم أن يدفعوا الجزية لأسيادهم كدليل على الطاعة. يبذل المترجم جهده.

يصغي الزعيمان وهما جالسان لايرفّ لهما جفن للشخصية الغريبة التي تعلن لهما أنه في حالة الرفض أو التأخير ستُشَنّ الحرب عليهما وسيحولان إلى عبيد مع نسائهما وأطفالهما وسيتمّ التخلص منهما بالبيع وأن الأسبان لن يتحمّلوا مسؤولية الحرب.

يجيب الزعيمان دون أن ينظرا إلى أنكيسو: إن الإله المقدس كريم جداً في التصرف بمُلكيات الآخرين ولابد أنه سكران ليقرّر مصير مالا يملكه، وأن ملك قشتالة وقح لأنه جاء ليهدّد بشراً لايعرفهم.

يتدفق الدم.

ثم تُقرأ الخطبة الطويلة في الليل، بدون مترجم وعلى بعد نصف فَرْسخٍ من القرى التي سيفاجئنها الهجوم. السكان المحليون نائمون، لن يسمعوا الكلمات التي ستعلن أنهم مذنبون بجريمة ارتُكبت ضدّهم.

١٥١٤: سانتا ماريا ديل داريين

- من أجل حب الفاكهة -

يجرّب غوانزالو فرديناندِيز أوفييدو. الوافد الجديد، فاكهة العالم الجديد.

تبدو له الغوافة متفوقة على التفاح. وتبدو «الغوانا» حسنة المنظر وتمنح لبّاً أبيض مائياً يمتلك طعماً لذيذاً، ومهما أكلت منها لن يصيبك الأذى أو سوء الهضم.

تمتلك المامي مذاقاً يجبرك أن تلحس أصابعك وتصدر رائحةً ذكية، يقرّر غوانزالو أن لاشيء أفضل منها.

إلا أنه يتذوق ثمار المَشْمَلَة فيغزو رأسه عطرٌ لايمكن مقارنته بالمسك. يصحح خطأه ويقرر أن المشملة هي أفضل ثمرة ولايمكن العثور على شيء يُقارَن بها.

بعد ذلك يقشر ثمرة أنناس فتفوح ثمرة الأنناس الذهبية بعطر كالذي يصدره الخوخ وتمنح الشهية للبشر الذين نسوا مُتَع الطعام لايعرف أوفييدو كلمات تستحق أن تصف فضائلها. تُمْتِعُ عينيه وأنفه وأصابعه ولسانه. إنها تتفوق على جميع الثمار كما يتفوق ريش الطاووس على ريش جميع الطيور.

١٥١٥: أنتويرب

- اليوتوبيا -

يصخب مغامرو العالم الجديد في حانات الميناء الفلمنكي. يقابل توماس مور أو يخترع في الواجهة المائية، رافايل هيثلودي وهو بحار في أسطول أميريكو فيسبوتشي الذي يقول إنه اكتشف جزيرة اليوتوبيا قبالة أحد الشواطىء الأميركية.

يروي البحار أنه لايوجد في اليوتوبيا مال أو ملكية خاصة. هناك يُشَجَّعُ احتقار الذهب والإستهلاك ولا يفتخر أحد بارتداء الملابس. يقدم الجميع ثمار عملهم إلى المخازن العامة ويأخذون بحرية مايحتاجون إليه. يسير الإقتصاد وفق خطة ولايُخزَّنْ النقد، الذي هو ابن الخوف والجوع لايُعرَفْ. يختار الناس أميرهم ويمتلكون القدرة على الإطاحة به وينتخبون الكهنة. يكره سكان اليوتوبيا الحرب وأمجادها رغم أنهم يدافعون بوحشية عن حدودهم. يؤمنون بدين لايسيء إلى العقل ويرفضون إماتة الجسد والإكراه في الدين. يسمح القانون بالطلاق إلا أنه يعاقب بقسوة الخيانات الزوجية ويجبر كل شخص أن يعمل ستَّ ساعات في اليوم، يتم تقاسم الراحة والعمل والمائدة. تعتني المجموعة بالأطفال حين يذهب الآباء إلى العمل ويحظى المرضى بعناية مميزة ويخلص القتل الرحيم من الآلام المبرّحة. تشغل الحدائق والبساتين معظم المكان وتسمع الموسيقا أينما يذهب المرء.

١٥١٩: فرانكفورت

- تشارلز الخامس -

يمرّ نصف قرن على موت غوتنبيرغ. تتكاثر المطابع في جميع أنحاء أوروبا: يطبعون الكتاب المقدس بأحرف قوطية ويكتبون الأرقام بحروف فضية وذهبية. يفترس الملك الرجال. يتبرّز البشر قطعاً ذهبيةً في لوحة هيرونيموش بوش: حديقة المتع. وبينما كان مايكل آنجلو يرسم وينحت أنبياءه وقدّيسيه كتبَ: *«يباع دم المسيح بالملعقة»*. لكل شيء ثمنه: عرش البابا وتاج الملك، قبعة الكاردينال وتاج الأسقف. اشترِيَتْ صكوك الغفران والحرم الكنسي وألقاب النبالة. تعتبر الكنيسة الدين بالفائدة خطيئة إلا أن البابا يرهن أراضي الفاتيكان لأصحاب البنوك، وعلى ضفة الراين قدّم تاج الإمبراطورية المقدسة إلى الذي دفع سعراً أعلى.

يتنازع ثلاثة مرشحين على إرث شارلمان. يقسم الناخبون بطهارة أصواتهم وأيديهم ويدلون بشهادتهم ظهراً، ساعة صلاة التبشير: يبيعون تاج أوروبا إلى ملك أسبانيا، تشارلز الأول، ابن الغاوية والمجنونة وحفيدة ملك الكاثوليكيين مقابل (٨٥٠,٠٠٠) فلورينا وضعها صاحبا البنوك الألمانيان «فوغر» و«فيلر» على الطاولة.

يحول تشارلز الأول نفسه إلى تشارلز الخامس امبراطور أسبانيا وألمانيا والنمسا ونابلس وصقلية والأراضي المنخفضة والعالم الجديد الكبير، المدافع عن العقيدة الكاثوليكية وحبر الله المحارب على الأرض.

في هذه الأثناء يهدد المسلمون الحدود ويقرع مارتن لوثر باب كنيسة ويتمبرغ بهرطقاته المتحدّية. يكتب ميكافيللي: يجب أن تكون الحرب للأمير فكرةً وهدفاً وحيداً. يصبح الملك الجديد في سن التاسعة عشرة أقوى رجل في العالم. يقبّل السيف راكعاً على ركبتيه.

١٥١٩: آكلا

- بدراریاس -

صخبُ بَحرٍ وطبول. يخيّم الليل إلا أن هناك ضوءاً يجيء من القمر. تتدلى حول الساحة الأسماك وقرون الذرة الجافة من السقوف القشية.

يدخل بالبو مقيداً بالأغلال، يداه موثقتان خلف ظهره. يحلون وثاقه. يدخن بالبو سيجاره الأخير. يضع رأسه على الوضم دون أن يتفوّه بكلمة. يرفع الجلاّد الفأس.

يختلس بدراریاس أفيلا النظر من منزله عبر الحائط القصبي. إنه يجلس على التابوت الذي أحضره من أسبانيا. يستخدم التابوت ككرسي أو طاولة ويغطيه عاماً بعد آخر بالشموع أثناء قدّاس

راحة نفس الميت الذي يحتفل بانبعاثه. يسمونه بدرارياس المدفون منذ أن خرج من تابوته مغلفا بكفن بينما كانت الراهبات ترتّل شعيرة الموتى والأقرباء يبكون بشكل هستيري سموّه سابقا بدرارياس الباسل لانه لايقهر في المسايفات والمعارك، ورغم أنه يبلغ الثمانين من العمر الآن يستحق لقب غضب الله. حين استيقظ بدراريّاس هازًا عرفه الأبيض بعد أن فقد مائة هندي الليلة الماضية في القمار كان من الأفضل تجنب نظرته.

منذ أن هبط بدراريّاس على هذه الشواطىء لم يثق ببالبو. ولأن بالبو زوج ابنته لايقتله بدون محاكمة. لايوجد الكثير من المحامين هنا وهكذا يعمل القاضي كمستشار ونائب عام وتأخذ المحاكمة وقتاً طويلاً.

يتدحرج رأس بالبو على الرمال.

كان بالبو هو الذي أسّس مدينة «آكلا» هذه بين أشجار حَنتْها الريح. في اليوم الذي ولدت فيه «آكلا» انقضّ طير أسود مفترس من وراء الغيوم وخطف الخوذة المعدنية عن رأس بالبو ثم أقلع ناعباً.

هنا كان بالبو يبني قطعة بعد أخرى السفن الشراعية التي سترسل لاستقصاء البحر الجديد الذي اكتشفه.

سيكمل الجلاد المشروع. سوف يغزو وسيكون بدراريّاس شريكه. سيصبح هذا الجلاد الذي جاء مع كولومبس في رحلته الأخيرة مركيزاً يمتلك عشرين ألف خادم في الممالك الغامضة للجنوب. اسمه فرانسيسكو بيزارو.

١٥١٩: تينوشتيتلان

- بشائر النار والماء والتراب والهواء -

مرةً، في قديم الزمان طار العرّافون إلى كهف أم إله الحرب. لم تبتسم ولم تحييهم الساحرة التي لم تغتسل لمدة ثمانية قرون. قبلت تقدماتهم من الثياب والجلود والريش دون أن تشكرهم وأصغت متجهمة إلى أخبارهم. أخبرها العرّافون أن المكسيك، السيدة والملكة، وجميع المدن هي تحت أمرها. تفوهت العجوز بتعليقها الوحيد قائلةً: «هزم الآزتيكيون الجميع وسيأتي آخرون ويهزمونهم».

مرّ الوقت.

كانت البشائر تتجّمع في الأعوام العشرة الماضية.

سَرَّبتْ نارٌ ألسنة اللهب من وسط السماء لمدة ليلة كاملة.

انبثقت فجأة نار بثلاثة ألسنة من الأفق وطارت لتقابل الشمس.

انتحر منزل إله الحرب حارقاً نفسه بالنار. القيت عليه سطول الماء وكان الماء يغذي اللهب.

أحرق معبد آخر في ومضة برق في إحدى الليالي حينما لم يكن يوجد عاصفة.

تحوّلت البحيرة التي بُنيت المدينة على ضفتها إلى مرجل يغلي. صعدت المياه البيضاء الساخنة في أبراج من الغضب مقتلعةً المنازل، مستأصلةً أسسها.

اصطادت شباك الصيادين طائراً بلون الرماد مع الأسماك. كانت توجد مرآة مستديرة على رأس الطائر. رأى الإمبراطور «موكيتزوما» في المرآة جيشاً يتقدّم وجنوداً يركضون بأرجل الأيائل وسمع صرخاتهم القتالية، ثم عاقب العرافين الذين لم يستطيعوا قراءة المرآة ولم يمتلكوا أعيناً ليشاهدوا الوحوش ذات الرأسين التي كان «موكيتزوما» يشاهدها في نومه ويقظته. سجنهم الإمبراطور في أقفاص وحكم عليهم بالموت جوعاً.

كانت صرخات امرأة غير مرئية تُرْعِبُ كلّ ليلة جميع الذين ينامون في تينوشتيتلان وتلاتيلولكو كانت تصرخ: «*يا أبنائي الصغار علينا أن نذهب الآن بعيداً من هنا*». لم يوجد جدار لم تخترقه صرخة المرأة: «*إلى أين سنذهب ياأبنائي الصغار؟*».

١٥١٩: سيمبولا

- كورتيز -

يُحَلِّقُ برق ألسنة لهب على شاطىء فيراكروز. تحترق إحدى عشرة سفينة، يحترق أيضاً الجنود المتمردون الذين يتدلون من طرف عارضة شراع بارجة الأميرال. وبينما يفتح البحر فكيه ليلتهم النيران، يضغط هيرنان كورتيز الذي يقف على الشاطىء رمانة مقبض سيفه كاشفاً رأسه.

ليس فقط السفن والمشنوقون واجهوا نهايتهم. لاعودة الآن، ولن توجد حياة أكثر ممّا سيولد غداً: إما الذهب والمجد أو الطيور آكلة الجثث المنهزمة. على شاطىء فيراكروز غاصت أحلام أولئك الذين أحبوا أن يعودوا إلى كوبا ليناموا في الاستراحة الإستعمارية ممدّدين في الأراجيح الشبكية مغلفين بشعر النساء ودخان السيجار: البحر يقود إلى الماضي والأرض إلى الخطر. سيتقدّم الذين يستطيعون حل المشكلة على ظهور الأحصنة والآخرون على الأقدام: سبعمائة رجل يتجهون إلى المكسيك نحو الجبال والبراكين ولغز موكتيزوما.

يعدّل كورتيز ريش قبّعته ويدير ظهره للّهب، يذهب إلى قرية سيمبولا، بينما كان الليل يخيّم. لايقول شيئاً للرجال، سيعرفون حين يذهبون.

يحتسي الخمرة وحيداً في خيمته. ربما يفكر بالرجال الذين قتلهم دون اعتراف أو بالنساء اللواتي نام معهن بدون زواج منذ أن كان طالباً في سالامنكا التي تبدو بعيدة جداً، أو يفكر بسنواته الضائعة كبيروقراطي في جزر الآنتيل أثناء وقت الانتظار. ربما يفكر بالحاكم دييغو فيلاسكويز

الذي سيرتعش حالاً من الغضب في سانتياغودي كوبا. بالتأكيد هو يبتسم بينما يفكر بذلك المغفّل الذي يسبّب النعاس والذي لن يطيع أوامره أبداً بعد الآن، أو ربما يفكر بالمفاجأة التي تنتظر الجنود الذين يسمعهم يضحكون ويلعنون وهم يلعبون النرد والورق.

شيء من هذا القبيل يدور في رأسه، أو ربما سحر رعب الأيام القادمة، بعد ذلك ينظر فيشاهدها على الباب ويعرّفه الضوء عليها. كان اسمها مالينالي أو مالينش حين قدّمها له زعيم تاباسكو. عرفت باسم مارينا لمدة أسبوع.

يتفوّه كورتيز ببعض الكلمات بينما تنتظر هادئة بعد ذلك وبحركة واحدة ترخي شعرها وتحلّ ثيابها. يسقط شلال ثياب ملونة عند قدميها العاريتين. يصمته توهج جسدها.

على بعد بضعة خطوات، وفي ضوء القمر، مستخدماً الطبل كطاولة يسجّل الجندي برنال دایاز دیل کاستیللو أحداث اليوم.

١٥١٩: تينوشتيتلان

- موكتيزوما -

وصلت جبال كبيرة متحركة فوق البحر إلى شواطىء «يوكاتان» لقد عاد الإله كويتزالكوت. يقبّل البشر مقدمات السفن.

لايثق الإمبراطور موكتيزوما بظله.

- «ماذا أفعل؟ أين أختبيء؟»

يتمنى موكتيزوما أن يتحوّل إلى حجر أو إلى عصا. لايستطيع مهّرجو البلاط أن يصرفوا انتباهه. جاء كويتزالكوتل، الإله الملتحي الذي منح الأرض والأغاني الجميلة ليطلب ماله.

غادر «كويتز» في الأزمنة الغابرة ميمّماً باتجاه الشرق بعد أن أحرق منزله الذهبي ومنزله المرجاني. حلّقت أجمل الطيور لتفتح له الطريق. خرج في البحر على طوف من الثعابين وغاب عن البصر مبحراً نحو الفجر. عاد الإله الملتحي، الثعبان المريّش جائعاً الآن.

الأرض تهتزّ. ترقص الطيور في القدور التي تغلي. لاأحد سيبقى، كما قال الشاعر: «لا/حد، *لا/حد سيبقى حياً على وجه الأرض*».

أرسل موكتيزوما هدايا ثمينة من الذهب إلى الإله «كويتزالكوتل». أرسل خوذاً ملأى بغبار الذهب والبط الذهبي والكلاب الذهبية والنمور الذهبية والعقود الذهبية والصولجانات والأقواس والسهام ولكن الإله كان يطلب المزيد وهو يأكل متقدماً نحو تينوشتيتلان ساخطاً، بين البراكين العظيمة وخلفه تتقدّم آلهة أخرى ملتحية. كانت أيدي الغزاة ترسل الرعد والصواعق والنار التي تقتل.

- «ماذا أفعل؟ أين أختبىء؟»

يعيش موكتيزوما ورأسه مدفون بين يديه.

منذ عامين حين كان يوجد نذير بالشر، كانت الآلهة تعود وتنتقم. أرسل موكتيزوما عَرافيه إلى كهف «هويماك» ملك الموتى. هبط العّرافون إلى أعماق تشابلتوبيك ترافقهم حاشية من الأقزام والمحدبين وقدموا إلى «هويماك» بأمر من الإمبراطور هدية من جلود السجناء الذين سلخت جلودهم مؤخراً. أرسل هويماك جوابه إلى موكيتزوما:

- «لاتكن مغفلاً. لايوجد هنا راحة ولا فرح».

وطلب منه أن يصوم وينام بدون امرأة.

أطاعه موكتيزوما، وبدأ يتوب. أقفل الخصيان على زوجاته ونسي الطبّاخون وجباته الشهية، إلا أن الأمور ساءت. توافدت قطعان غربان السوء السوداء. فقد موكتيزوما حماية تلازولتيوتل، إلهة الحب وأيضاً إلهة البراز التي تأكل قذاراتنا، ليصبح الحب ممكناً، وهكذا غرقت روح الإمبراطور في القذارة والسواد. زاد في عدد الرسل إلى هويماك في مناسبات عديدة وتوسّل إليه مقدماً الهدايا، إلى أن منحه إله الموتى موعداً.

ذهب موكتيزوما إلى مقابلته في الليلة المتفق عليها واتجه قاربه إلى «تشابولتيبك». وقف الإمبراطور في المقدمة وتكشف الضباب فوق البحيرة عن الريش الفلمنكي.

بعد أن وصل إلى قدم الجبل سمع موكتيزوما صوت المجاذيف. اقترب قارب يتحرّك بسرعة وشعّ شخص عار ووحيد في الضباب الأسود، يرتفع مجذافه كالرمح

- «هل هذا أنت ياهويماك؟»

استمر الشخص في الاقتراب إلى أن ضغط تقريباً على الإمبراطور ثم نظر في عينيه كما لايستطيع إنسان أن ينظر وقال له: «أنت جبان، ثم اختفى».

١٥١٩: تينوشتيتلان

- عاصمة الأزتيكيين -

مصعوقين بجمالها، يعبر الغزاة الممّر. تبدو تينوشتيتلان وكأنها منتزعة من أوراق آماديس، أشياء لم يُسمع بها أبداً، لم تُشاهد أبداً، لم يُحلم بها أبداً... تشرق الشمس من خلف البراكين، تدخل البحيرة وتحطم الضباب العائم إلى شظايا. تشع المدينة بشوارعها وأقنيتها ومعابدها وأبراجها العالية أمامهم. يخرج عدد كبير صامت وغير مستعجل ليرحب بهم، بينما تفتتح قوارب لايحصى عددها أتلاماً في المياه الكوبالتية.

يصل موكتيزوما على حمّالة، جالساً على جلد يغور ناعم، تحت ظلّة من الذهب واللآلىء والريش الأخضر. يتقدّم أسياد المملكة أمامه ويكنسون الأرض التي يمر فوقها.

يرحّب بالإله كويتزالكوتل قائلاً:

- «ها قد جئت لتحتل العرش ها قد جئت وسط الضباب. أنا لاأراك في الأحلام. أنا لاأحلم. إلى أرضك جئت...»

يتلقى الذين يرافقون كويتزالكوتل أكاليل من المغنولية[1] وتوضع عقود الأزهار حول أعناقهم وعلى أذرعهم وصدورهم: فيها زهرة الدرع وزهرة القلب وزهور العطر الرائع واللون الذهبي.

كوتيزالكوتل، أحد سكان أستريمادورا، هبط على الشواطيء الأميركية حاملا ملابسه على ظهره وبعض القطع الذهبية في محفظته كان يبلغ التاسعة والعشرين حين وضع قدميه على رصيف المرفأ في سانتو دومنيغو وسأل: «أين الذهب». إنه يبلغ الآن الثالثة والأربعين وأصبح قائدا عسكرياً جسوراً يرتدي درعاً من الحديد الأسود ويقود جيشاً من الخيالة والرمّاحين ورماة النشّاب والبنادق والكلاب المتوحّشة. لقد وعد جنوده: «سأجعلكم في وقت قصير أغنى الرجال الذين جاؤوا إلى الآنديز».

سينتهي الإمبراطور موكتيزوما الذي يفتح بوابات تينوشتيتلان حالاً. سيسمّى بعد وقت قصير إمرأة الأسبان وسيرجمه قومه بالحجارة حتى الموت. سيأخذ مكانه الشاب «كيواهتيموك» ويتابع القتال.

- أغنية الدرع الآزتيكية -

على الدرع، أنجبت العذراء
المحارب العظيم.
على الدرع، أنجبت العذراء
المحارب العظيم.

على جبل الثعبان
في وسط الجبال
يتجوّل الغازي
بصبغة الحرب ودرع النسر.

لاأحد، بالتأكيد، يستطيع مواجهته.
بدأت الأرض تدور
حين ارتدى أصباغه الحربية
ورفع درعه.

---

(١) - المغنولية: نبات من الفصيلة المغنولية جميل الورق والزهر.

١٥٢٠: تيوكالهوياكان

- ليلة الأسى -

يراجع هرنان كورتيز القلة الناجية من جيشه، بينما تخيط مالينش الأعلام الممزّقة.

كانت تينوشتيتلان خلفهم وكان خلفهم أيضاً عمود الدخان الذي أطلقه البركان بوباكاتيبتل الذي لا تقدر ريح على إخفائه والذي بدا وكأنه يودّعهم.

لقد استعاد الآزتيكيون مدينتهم. السقوف مليئة بالسهام والرماح والبحيرة مغطاة بالزوارق الحربية. هرب الغزاة مبعثرين تطاردهم عاصفة من السهام والحجارة بينما طبول الحرب والصرخات واللعنات تذهل الليل.

أنقذ هؤلاء الجرحى والمبتورون الذين تبقوا لكورتيز أنفسهم باستخدام الجثث كجسر، عبروا إلى الشاطىء الآخر ماشين على الخيول التي انزلقت وغرقت وعلى الجنود الذين قتلتهم السهام والحجارة أو أغرقهم ثقل الأكياس المليئة بالذهب والتي لم يستطيعوا إقناع أنفسهم بتركها خلفهم.

١٥٢٠: سيغيورا ديلا فورنتيرا

- توزيع الثروة -

يُسْمَعُ صخبُ المشاجرات والتذمر من المعسكر الإسباني. لا يوجد بديل أمام الجنود. يجب أن يسلّموا سبائك الذهب التي أنقذت من الكارثة. سيشنق كلّ من يخبىء شيئاً.

صنع هذه السبائك صائغو ونحّاتو المكسيك. كان الذهب قبل أن يحوّل إلى غنائم ويصّهر في قوالب ثعباناً على وشك أن يعضّ، نمراً على وشك أن يقفز، نسراً على وشك أن يحلّق أو خنجراً تثعبن وعام كنهر في الجوّ.

يشرح كوريتز أن هذا الذهب مجرد فقاعات إذا ما قورن بالذي ينتظرهم. يأخذ خِمساً له وخِمساً للملك بالإضافة إلى حصص أبيه والحصان الذي مات تحته ويعطى كل ما تبقى لقوّاده. لم يبق شيء يذكر للجنود الذين لعقوا هذا الذهب وعضّوه ورازوه في أيديهم وجعلوه مخدات لنومهم وحكوا له قصص انتقامهم.

أثناء ذلك، كان يَشِمُون بالحديد وجوه العبيد الهنود الذين أُسِرُوا في تبيكا وهواكويتشولا.

كان الهواء يفوح برائحة اللحم المحروق.

١٥٢٠: بروكسل

- دورير -

يجب أن تكون هذه الأشياء انبثاقات من التمس كالرجال والنساء الذين صنعوها في الأرض البعيدة التي سكنوها: خوذ وأحزمة، مراوح ريش، فساتين وعباءات، ملابس صيد، شمس ذهبية وقمر فضي، بندقية نفخ وأسلحة أخرى تمتلك جمالاً يجعلها تبدو وكأنها صنعت لتعيد إحياء الضحايا.

لن يتعب المصمّم الأعظم في جميع العصور من النظر إليها. إنها جزء من الغنائم التي سرقها كوريتز من موكتيزوما، القطع الوحيدة الني لم تصهر وتحوّل إلى قوالب. يعرض الملك تشارلز، الذي عيّن حديثاً على عرش الإمبراطورية المقدّسة، للعامة الغنائم التي جاءت من أجزاء عالمه الجديد.

لايعرف ألبريخت دورير القصيدة المكسيكية التي تشرح أن الفنان الحقيقي يجد المتعة في عمله ويتحدث مع قلبه، لأنه يمتلك قلباً غير ميت لم يأكله النمل. إلا أنه مشاهداً ما يشاهد، يسمع دورير تلك الكلمات ويجد أنه يجرّب السعادة الأعظم في حياته التي بلغت نصف قرن.

١٥٢٠: تلاهكالا

- إعادة فتح تينوشتيتلان -

يوشك هذا العام على الانتهاء. حالما ستشرق الشمس سيصدر كورتيز الأمر بالمسير. قام جنوده الذين سحقهم الآزتيكيون بالردّ تحت حماية الهنود في تلاهكالا و ويهوسينكو وتيهوكو يقود جيشاً يتألف من خمسين ألفاً. من الهنود بالإضافة إلى جنود جدد جاؤوا من أسبانيا وسانتو دومينغو وكوبا مزودين بالخيول والبنادق وأقواس النشّاب والمدافع. لكي يحارب على المياه حين يصلون، يحتاج كورتيز أشرعة ولوازم حديدية وصواري ليجهز ثلاث سفن شراعية. سينصب هنود ويهوسينكو العوارض الخشبيّة.

يُظهر الضوء الأول خط السماء البركاني. خلفه صاعدة من المياه المذهلة تنتظر تينوشتيتلان متحدية.

١٥٢١: تلاتيلولكو

- سيف النار -

تتدفّق الدماء كالماء. يحول الدم مياه الشرب إلى أسيد. لم يبق ما يؤكل سوى التراب. قاتلوا من منزلٍ إلى آخر فوق الحطام والموتى ليلاً ونهاراً. استمرت الحرب ثلاثة أشهر دون توّقف. لم يبق للتنفس سوى القذارة والغبار إلا أن الطبول ما تزال تقرع في الأبراج الأخيرة والأجراس ترنّ على

كواحل آخر المحـاربين. تسـتمرّ الصرخـات الحربيـة والأغـاني الـتي تمنـح القـوة. تـأخذ النسـاء المتبقيات فؤوس المحاربين الساقطين وتضرب الدروع حتى الموت.

يستدعي القائد كواوهيتموك أفضل محاربيه. يرتدي قبعة البومة ذات العـرف الطويـل ويسـتلّ سيف النار. قابضاً على السيف بزغ إله الحرب من حـوض أمـه قديمـاً في الأزمنـة الغـابرة. بهـذا الثعبان ذي الأشعة الشمسية قطع هويتزيلوبوشتلي رأس أخته القمر وقطّع إلى أشلاء أخوته النجوم الأربعمائة لأنهم لم يسمحوا له أن يولد.

بأمر كواوهيتموك: «دعوا أعداءنا ينظرون إليه وسيذهلهم الرعب».

يفتح سيف النار طريقاً. يتقدّم القائد المختار عبر الدخان والحطام.

يسقطونه بطلقة واحدة من بندقية.

١٥٢١: تينوشتيتلان

- العالم مُصْمَت تحت المطر -

فجأة تتوقف الصرخات والطبول جماعياً. هزمت الآلهة والرجال. مات الزمن مع مـوت الإلـه. ماتت المدينة مع موت الرجال. ماتت مدينة المحارب التي يزيّنها الصُفصاف والأسل وهي تقـاتل حين عاشت. لن يجيء بعد الآن الأمراء المهزومون من جميـع الأقـاليم في قواربهـم عـبر الضبـاب ليدفعوا الجزية.

يخيّم صمت مذهل. ويبدأ المطر بالسقوط. تمتلـئ السـماء بـالرعد والـبرق وينهمـر المطر طـوال الليل.

جُمّع الذهب في سلال كبيرة. ذهب دروع وشارات حرب ذهب أقنعة الآلهة، قـلادات الشـفاه والآذان، الزخارف والسلاسل. وُزن الذهب وسعّر الأسرى: أحد هؤلاء البائسين لا يساوي حفنتين من الذرة.. يتجمّع الجنود ليلعبوا النرد والورق.

تحرق النار كعبي قدمي الإمبراطور كواوهيتموك المدهون بالزيت بينما العالم مصمت والمطر ينهمر.

١٥٢١: فلوريدا

- بونس ليون -

كان متقدماً في السن أو هكذا شعر. لن يتبقى وقت كاف ولن يستطيع القلب المنهمك أن يصمد. أراد خوان بونس دي ليون أن يكتشف ويربح العالم غير المُفتَتـح الـذي أعلنـت عـن وجـوده جـزر فلوريدا. أراد أن يقزّم ذكرى كريستوف كولومبس بعظمة أعماله البطولية.

هنا هبط، متبعاً النهر السحري الذي يعبر حديقة المتع. وبدلاً من أن يعثر على نهر الشباب الأبدي التقى بذلك السهم الذي اخترق صدره. لن يستحم أبداً في المياه التي تعيد الطاقة إلى العضلات والضوء إلى الأعين دون أن تمحو تجربة الروح الناضجة.

يحمله الجنود بسواعدهم إلى السفينة. يطلق القائد المغزو تمتمات وشكاوى كالطفل، إلا أن أعوامه تبقى كثيرة وما يزال يتقدّم في السن. يؤكد الرجال الذين يحملونه بدون دهشة أنه هنا حلّت هزيمة جديدة في الصراع المستمر بين الموجودين دائماً والذين لم يوجدوا أبداً.

١٥٢٢: الطرق العامة لسانتو دومينغو

- أقدام -

سُحِقَ التمرد الأول الذي قام به الزنوج السود في أميركا. نشب في مطاحن السكّر التي يمتلكها دييغوكولومبس ابن المكتشف. شبّت النار في طواحين ومزارع الجزيرة كلها. انتقض السود مع بعض الهنود مسلّحين بالعصى والحجارة ورماح قصب السكر التي حطّمت الدروع في غضب عبثي.

يتدلى الآن على المشانق المبعثرة على الطرق الرجال والنساء، الشبّان والعجائز. على مستوى عين المسافر تتدلى أقدام يستطيع أن يخمّن منها هوية الضحايا قبل أن يجيئهم الموت. بين تلك الأعضاء الجلدية المجروحة بالتعب والخضوع تتدلى أقدام مرحة وأقدام رزينة وأقدام ماتزال ترقص معبرة عن حبها للأرض وداعية إلى الحرب.

١٥٢٢: سيفيل

- أطول رحلة سبق أن تمّت -

لم يعتقد أحد أنهم مايزالون أحياء، إلا أنهم وصلوا البارحة. ألقوا مراسيهم وأطلقوا نيران جميع مدافعهم. لم يهبطوا حالاً إلى اليابسة ولم يظهروا للعين. في الصباح ظهروا على رصيف المرفأ. دخلوا سيفيل مرتجفين في ثياب قذرة حاملين المشاعل. فتح الحشد لهم الطريق مندهشاً لهذا الموكب من الفزّاعات التي يقودها خوان سيباستيان دي ألكانو. وتعثروا وهم يسيرون اتكأوا على بعضهم من أجل العون، ذهبوا من كنيسة إلى أخرى يؤدون العهود يتبعهم الحشد أينما ذهبوا. وكانوا دائماً يغنون.

غادروا منذ ثلاثة أعوام عبر النهر في خمس سفن سريعة اتجهت غرباً. كانوا حفنة من المغامرين جاؤوا معاً بحثاً عن الممّر بين المحيطات وعن الثروة والعظمة. كانوا جميعاً لاجئين. اتجهوا إلى البحر هرباً من البؤس والحب والسجن أو المشنقة.

الآن يتحدث الناجون عن العواصف والجرائم والعجائب. شاهدوا بحاراً وأراضي لاخرائط لها ولااسم. عبروا ست مرات المنطقة الكروية حيث يغلي العالم دون أن يحترق أبداً. شاهدوا ثلجاً أزرق في الجنوب وأربع نجوم في السماء تشكل صليباً. شاهدوا الشمس والقمر يتحركان إلى الخلف وسمكاً يطير. سمعوا عن نساء تحبلهن الريح وقابلوا طيوراً سوداء كالغربان تندفع إلى أفواه الحيتان المفتوحة وتلتهم قلوبها. وقالوا إنهم شاهدوا على جزيرة بعيدة جداً بشراً صغاراً طولهم نصف متر لهم آذان يصل طولها إلى الأرض، وبسبب طول آذانهم، حين ينامون يُستخدم أحدهم كمخدة وآخرٌ كغطاء. وقالوا أيضاً إنه حين شاهد هنود «المولوكا» الزوارق الصغيرة التي أطلقت من السفن ظنوها فتيات السفن الصغيرات وأن السفن أنجبتها وأرضعتها.

قال الباقون على قيد الحياة أنه في جنوب الجنوب حين تنفتح الأراضي وتتعانق المحيطات يشعل الهنود نيراناً في الليل والنهار كي لايموتوا من البرد. قالوا إن هؤلاء الهنود عمالقة بالكاد تصل رؤوسنا إلى خصورهم. قبض ماجلان الذي ترأس الرحلة على إثنين منهم بعد أن وضع أغلالاً حديدية في كواحلهم ورسوغهم قائلاً إنها حليّ ولكن فيما بعد مات أحدهما من الإسقربوط(١) والآخر من الحرارة.

يقولون لابديل لهم عن شرب مياه المستنقعات وهم يحبسون أنوفهم وأنهم يأكلون نشارة الخشب وجلود الحيوانات والجرذان التي نافستهم على البسكويت المدوّد. كلّ من يموت جوعاً يضعونه على لوح خشبي وبما أنهم لايملكون أحجاراً لإغراقه تبقى الجثث عائمة على المياه: تدار وجوه الأوروبيين نحو السماء بينما الهنود إلى الأسفل. حين قابلوا هنود المولوكاس باع أحد البحارة الهنود ورق لعب مقابل ستة ديكة إلا أنه لم يستطيع أن يأكل لقمة منها لأن لثته كانت متورمة.

شاهدوا ماجلان يبكي والدموع تنحدر من عيني البحار البرتغالي الخشن حين دخلت السفن المحيط الذي لم يعبره أوروبي من قبل وعرفوا مزاجه المريع حين قطع رأسي ضابطين متمردين وقطّعهما وترك الآخرين في الصحراء. إن ماجلان هو جيفة الآن، غنيمة في يد السكان الأصليين للفيليبين الذين أصابوا رجله بسهم مسموم.

لم يعد من الجنود الذين يبلغ عددهم (٢٣٧) جندياً والذين غادروا سيفيل منذ ثلاثة أعوام سوى ثمانية عشر شخصاً. عادوا في سفينة تصدر صريراً ولها عارضة ينخرها الدود، ترشح من الجهات الأربع.

الباقون على قيد الحياة. هؤلاء الرجال المتضورون جوعاً، الذين أبحروا لتوهم حول العالم للمرة الأولى.

---

(١) ـ الإسقربوط: داء من أعراضه تورم اللثة ونزف الدم منها.

١٥٢٣: كوزكو

- هواينا كاباك -

أمام الشمس يرمي نفسه ويلمس الأرض. يمسك الأشعة الأولى بجبهته ويرفعها بيديه إلى فمه ويشرب الضوء، ثم ينهض، يقف وينظر مباشرة إلى الشمس دون أن يرّف له جفن.

كانت نساء هواينا كاباك خلفه ينتظرن برؤوس محنية. وكان الأمراء الكثيرون ينتظرون صامتين. ينظر الآنكي إلى الشمس نداً لند وهَمْسُ الفضيحة ينمو بين الكهنة.

مّرت أعوام كثيرة على اليوم الذي جاء فيه هوايناكاباك ابن الأب المتألق بلقب الشاب الجسور الزعيم الغنيّ بالفضائل وسّع الإمبراطورية إلى ما وراء حدود أسلافه. قاد هواينا كاباك المتلهف للسلطة، المستكشف والفاتح جيوشه من الدغل الأمازوني إلى أعالي، «كويتو» ومن «الشاكو» إلى سواحل تشيلي. بسهم طائر وفأس مهلك جعل نفسه سيد الجبال الجديدة والسهول والصحارى الرملية. لايوجد أحد ليحلم به أو يخشاه في المملكة التي هي الآن أكبر من أوروبا. تعتمد على هوايناكاباك المراعي والماء والبشر. حركت إرادته الجبال والبشر. وفي هذه الإمبراطورية التي تجهل العجلة شيد أبنية في «كيوتو» بأحجار من «كوزكو» لكي تُعْرف في المستقبل عظمته ويؤمن الرجال بكلمته.

ينظر الآنكي بثبات إلى الشمس، ليس بتحد كما يخشى الكهنة بل بدافع الشفقة. يشعر هوايناكاباك بالأسف على الشمس لأنه والده ووالد الآنكيين منذ غابر الأيام. ليس للشمس الحق في التعب والضجر. لايستريح التسمس أبداً ولايلعب ولاينسى. لايتأخر عن موعده ويجري اليوم في نفس المسار عبر السماء كما فعل البارحة وسيفعل غداً.

بينما يتأمل الشمس يُقَرِّر هواينا كاباك: «سوف أموت حالاً».

١٥٢٣: كواوكابولكا

- أسئلة الزعيم -

يقّدم الطعام والذهب ويقبل العمادة، إلا أنه يسأل جيل غونزاليس دي آفيلا أن يشرح له كيف يمكن للمسيح أن يكون إنساناً وإلهاً ولمريم أن تكون عذراء وأماً.

سأل: أين تذهب الأرواح حين تغادر الأجساد وفيما إذا كان البابا في روما لايموت. سأل من ينتخب ملك قشتالة. لقد انتخب الزعيم «نيكارغوا» الكبار في القبائل بعد أن اجتمعوا عند جذع شجرة سيبة. هل انتخب الملك من قبل الكبار في شعبه؟

يسأل الزعيم الغازي أن يقول له ماهو هدف بحث قلة من الرجال عن الذهب الكثير؟ هل أجسادهم كبيرة بما يكفي لكثير من الزينة؟

فيما بعد سأل فيما إذا كان صحيحاً أن الشمس والنجوم والقمر ستنطفىء وستسقط السماء كما قال أحد الأنبياء.

لا يسأل الزعيم نيكارغوا لماذا لن يولد أطفال في هذا الجزء من العالم. لم يخبره أي نبي أنه في بضعة أعوام سترفض النساء أن تنجب عبيداً.

١٥٢٣: بينالا

- مالينش -

أنجبت من كورتيز طفلاً وفتحت له بوابات إمبراطورية. كانت ظله وحارسته، مترجمته ومستشارته، وسيطته، وسيدته طوال غزو المكسيك ودائماً تمتطي حصانها قربه.

تمرّ في بينالا مرتدية زي إمرأة إسبانية: ملابس صوفية وحريرية وساتانية ولايتعرّف أحد في البداية على السيدة المميزة التي تأتي مع الأسياد الجدد. من على صهوة جوادها الكستنائي المطهم تتفحّص مالينش ضفة النهر، تأخذ نفساً عميقاً من الهواء العذب وتبحث بلاجدوى عن الزوايا الغابيّة حيث اكتشفت السحر والخوف منذ أكثر من عشرين عاماً. خبرت شموساً وأمطاراً كثيرة، عذابات وأحزاناً منذ أن باعتها أمها كجارية وجُرّت عن التربة المكسيكية لتخدم أسياد المايا في «يوكاتان».

حين تعلم أمها من جاء إلى زيارتها في بينالا ترمي نفسها عند قدميها وتغسلهما بالدموع طالبة منها الصفح. ترفعها مالينش من كتفيها وتعانقها وتعلق حول عنقها العقود التي كانت ترتديها. ثم تمتطي حصانها وتتابع طريقها مع الإسبان.

ليست بحاجة لأن تكره أمها. منذ أن قدّمها أسياد يوكاتان هدية لهرنان كوريتز كانت تمتلك الوقت الكافي لتثأر لنفسها لقد دُفع الدين: يرتجف المكسيكيون وينحنون حين تقترب. تكفي نظرة واحدة من عينيها السوداوتين لإرسال أمير إلى المشنقة. بعد موتها بوقت طويل سيحلّق ظلها فوق تينوشتيتلان العظيمة التي قامت بأعمال كثيرة لتهزمها وتذلها وسيستمر شبحها ذو الشعر الطويل المرخي ورداؤها المتموّج في زرع الخوف إلى الأبد في غابات وكهوف تشابولتيبك.

١٥٢٤: كويتزالتينانكو

- سيخبر الشاعر الأطفال قصة هذه المعركة -

سيتحدث الشاعر عن بيدور دي ألفارادو والذين جاؤوا معه ليعلّموا الخوف.

سيقول إنه حين سحقت القوات المحلية وتحولت غواتيمالا إلى مسلخ، صعد القائد تيكوم أومان في الجوّ وطار بجناحين ونبت ريش في جسده. طار ثم انقضّ على ألفارادو بضربة قوية

قطعت رأس حصانه. قسم ألفارادو وحصانه نصفين وبقي هكذا: خلّص الغازي نفسه من الحصان المقطوع الرأس ونهض. طار القائد تيكوم ثانية وصعد إلى الأعلى متوهجاً. حين غاص إلى الأسفل من السحاب طعنه ألفارادو برمحه واندفعت الكلاب لتمزّق تيكوم أشلاء إلا أن الفارادو أبعدها بسيفه. تأمل ألفارادو لوقت طويل عدوه المطعون ذا الجسد المجروح الذي ينمو ريش الكتزل على ذراعيه ورجليه، تأمل جناحيه المحطمين وتاجه الثلاثي اللؤلؤي الماسيّ والزمردي. استدعى ألفارادو جنوده: «انظروا». ثم طلب منهم أن ينزعوا خوذاتهم.

سيسأل الأطفال المتحلقين حول الشاعر: «هل رأيت كل هذا أم سمعت عنه؟».

- «نعم».

سيسأل الأطفال: «هل كنت هناك؟».

- «لا. لم يبق من شعبنا الذي كان هنا أحد على قيد الحياة».

وسيشير الشاعر إلى السحاب المتحرك إلى قمم الأشجار المتأرجحة.

- «أترون الرماح؟ سيقول أترون حوافر الخيل؟ مطر السهام؟ الدخان؟». سيقول لهم وهو يضع أذنيه على الأرض المليئة بالانفجارات: «أصغوا».

وسيعلمهم أن يشمّوا التاريخ في الريح أن يلمسوه في الأحجار التي صقلها النهر وأن يتعرّفوا على طعمه بمضغ بعض الأعشاب العطرية ببطء كما يمضغ المرء الحزن.

١٥٢٤: أوتاتلان

- انتقام المقهورين -

يستلقي الزعماء الهنود حفنة من العظام سوداء كالسخام في حطام المدينة. لا يوجد شيء اليوم في عاصمة «الكويتشز» لا يفوح بالحرق.

تحدّث نبيّ منذ قرن تقريباً، كان زعيم «الكاكتشيكويلزهو» الذي قال حين كان هنود الكويتشز على وشك أن يمزّقوا قلبه. *سوف يأتي رجال مسلحون يرتدون الثياب من الرأس إلى القدم ليسوا عراة مثلنا ويدمّرون هذه الأبنية ويرجعونكم إلى الحياة في كهوف البوم والقطط البرية وسوف تختفي كلّ هذه العظمة.*

تحدث حين قتلوه، هنا في مدينة الوهاد هذه التي حوّلها بدرو الفارادو وجنوده إلى ألسنة لهب لتوّهم. لعن الزعيم المقهور هنود الكويتشز ، ومنذ ذلك الحين، مرّ وقت طويل هيمن فيه هنود الكويتشز، على شعوب غواتيمالا الأخرى.

١٥٢: جزر العقرب

شعيرة العشاء الرباني

ابتلعهم البحر ثم تقيأهم ازدردهم ثانية ثم رماهم على الصخور. كانت الدلافين وخرفان البحر طير في الجو. والسماء مليئة بالزبد. حين تحطمت السفينة الصغيرة بذل الرجال جهوداً كبيرة يعانقوا الصخور. كانت الأمواج تعارك طوال الليل لتمزقهم بضرباتها المتتالية. انتُزِعَ كثيرون من مكنتهم وتحطموا على الصخور أو افترِسوا.

فجراً، هدأت العاصفة وانحسر المدّ. ترك الذين نجوا مصيرهم للقدر وانطلقوا على ظهر زورق تداع. بقوا طيلة خمسة أيام بين سلاسل الصخور دون ماء للشرب أو ثمار تبلل أفواههم.

في ذلك الصباح وصلوا إلى إحدى الجزر.

زحفوا على أربع إلى الأمام تحت الشمس التي تطهو الصخور، لا يمتلك أي منهم القوة لجرّ ن يبقى خلفهم عراة ومجروحين يلعنون الضابط، المحامي«ألونزو زوازو»، القانوني الجيد والبحار لسيء، يلعنون الأم التي أنجبته والملك والبابا والله.

هذا المنحدر الصغير هو أعلى جبل في العالم. يتابع الرجال التسلق ويعزون أنفسهم بعد ساعات المتبقية قبل الموت.

فجأة يفركون أعينهم، لا يصدقون ذلك: كانت خمس سلاحف عملاقة تنتظرهم على الشاطئ، شمس من تلك السلاحف التي تبدو في البحر كجزر صخرية والتي تمارس الجنس دون خوف حين تقترب السفن منها.

اندفع الرجال نحوها. كسروا دروعها غاضبين وجائعين وبدأوا يجرفونها إلى أن انقلبت لسلاحف وهي تضرب الهواء. طعنوها بسكاكينهم، فتحوا بطونها بقبضاتهم وطعناتهم ودفنوا ؤوسهم في الدم المندفع.

ثم ناموا غارقين إلى أعناقهم في دنان الخمرة الجيدة هذه. بينما كانت الشمس تستمر في التقدم لى كبد السماء.

لا يصغي أحد للمحامي «زوازو». يركع على الرمل وفمه ملطخ بالدم، يرفع يديه ويقدّم لسلاحف إلى الجراح الخمسة لمخلّصنا.

١٥٢٤: توه كاها

- كواوتيموك -

كان جسد الملك الأخير للآزتيكيين يتأرجح معلقاً من كاحليه على غصن شجرة سيبة كبيرة. قطع كورتيز رأسه.

وصل إلى العالم في مهد محاط بالدروع والرماح وهذه هي الأصوات الأخيرة التي سمعها: «وطنك الحقيقي في مكان آخر. أنت موعود بأرض أخرى. مكانك المناسب هو ساحة المعركة، مهمتك أن تمنح دم أعدائك للشمس كي يشربه وأجسادهم للأرض كي تأكله».

صبّ العرافون على رأسه الماء منذ تسعةٍ وعشرين عاماً وهم يطلقون كلمات طقسية: «أين تختبىء يا سوء الحظ؟ في أي عضو تخفي نفسك؟ ابتعد عن هذا الطفل».

سمّوه كواوتيمك، النسر الذي يسقط، وسّع والده الإمبراطورية من البحر إلى البحر. حين احتلّ الأمير العرش كان الغزاة قد توغلوا في البلاد. نهض كواوتيموك وقاوم، بعد أربعة أعوام من هزيمة تينوشتيتلان ما تزال تصدح الأغاني التي تدعو إلى عودة المحارب من أعماق الغابة.

من يهدهد الآن جسده المبتور؟ الريح أم شجرة السيبة؟ ألا تبدو هذه شجرة سيبة من تاجها الضخم؟ ألا تقبل هذا الغصن المكسور كذراع آخر من آلاف الأذرع التي تنمو من جذعها الجليل؟ هل ستنمو عليه ورود حمراء؟

الحياة تستمر. الحياة والموت يستمران.

١٥٢٦: طليطلة

- النمر الأميركي -

يعرض المرَوِّض في قصر طليطلة النمر الذي تلقّاه الملك من العالم الجديد. يقوده المرَوِّض لومباردي ذو الابتسامة العريضة والشارب المدّبب برسنٍ كأنه كلب صغير بينما ينزلق النمر على الحصباء بخطوات خافتة.

يتجمد دم غونزالو فرديناندیز دي أو فييديو.يصرخ بالمرَوِّض من بعيد ألا يثق به، ألا يكون أبله مع هذا الوحش المفترس، إن هذه الحيوانات ليست للبشر.

يضحك المرَوِّض يفلت النمر ويضربه على ظهره يسمع أوفييدو زئيره العميق. يعرف أن زمجرة الأنياب المصطكة هذه تعني تهديداً وصلاةً للشيطان. إنه متأكد أن المروض سيقع في الفخ في أحد الأيام. سيمّد يده ليلمس النمر وبعد ذلك سيُبْتَلَع بعد ضربة مخلب سريعة. هل يؤمن هذا المسكين أن الله منح النمر مخالب وأنياباً ليقدم له مروض وجباته في ساعات منتظمة. لم يجلس أحد من سلالته أبداً ليتناول العشاء بتوقيت الأجراس ولم تعرف هذه السلالة سوى الافتراس. ينظر أوفييدو إلى اللومباردي المبتسم ويرى كومة من اللحم المفروم بين أربع شموع .

ينصحه: «اقتلع مخالبه وجميع أنيابه من جذورها»، ثم يذهب.

١٥٢٨: مدريد

- حلُّ خيوط المحفظة -

يدخل البرد من الشقوق ويجمد الحبر في المحابر.

إن تشارلز مدان لكل قديس بشمعة. اشترى العرش الإمبراطوري بنفود دفعها أصحاب بنوك أوكسبورغ وموّل خطبته وجزءاً جيداً من الحروب التي مكنته من إذلال روما وقمع التمرد الفلمنكي وبعثرة نصف محاربي فرنسا النبلاء في حقول بافيا.

يتألم ضرس الإمبراطور وهو يوّقع أمراً بتأجير حقّ اكتشاف واستغلال وحكم فنزويلا

يعين حكام ألمان لفترة طويلة على فنزويلا، لم يترك الحاكم الأول أمبروزيو ألفنغر هندياً لم يوشم أو يباع في أسواق سانتا مارتا وجامايكا وسانتو دومينغو، والذي يموت بعد أن يخترق حنجرته سهم.

١٥٢٥: تمبيز

- يوم المفاجآت -

تصل رحلة البحر الجنوبي أخيراً إلى شاطىء يخلو من المستنقعات والبعوض، يأمر فرانسيسكو بيزارو الذي سمع بوجود قرية في الجوار، جندياً وعبداً أفريقياً أن ينطلقا.

يصل الأبيض والأسود إلى «تمبيز» عابرين الأراضي المزروعة والمروية جيداً بواسطة أقنية مائية، كان يوجد زراعات لم يشاهدوا مثلها في أميركا، يحيط أبناء تمبيز الذين لايخرجون عراة ولاينامون في العراء بالوافدين الجدد ويقدمون لهم الهدايا. لم تكن عينا ألونزو دي موليناز كبيرتين بما يكفي لتحصيا الذهب والفضة اللذين يكسوان جدران المعبد.

يندهش سكان تمبيز بأشياء كثيرة من عالم آخر. يشدّون لحية ألونزو دي موليناز ويلمسون ثيابه وفأسه الحديدية. يؤمنون سائلين عن هذا الوحش المأسور ذي العرف الأحمر الذي يصرخ في قفص: «ماذا يريد؟»، يشير ألونزو إليه ويقول: «ديك»، ويتعلمون كلمتهم الأولى بلغة قشتالة.

لايتصرف الأفريقي الذي يرافق الجندي جيداً. يدافع عن نفسه لاطماً الهنود الذين يريدون أن يحكّوا جلده بقرون الذرة اليابسة. الماء يغلي في إناء كبير، يريدون أن يضعوه فيه ليزيلوا لونه.

١٥٢٨: جزيرة الحظ السيء

- الناس كرماء بما يملكونه... -

قذفت عاصفة إحدى السفن التي أبحرت إلى فلوريدا منطلقة من سانليوكردي بارميد إلى قمم الأشجار الكوبية والتهم البحر السفن الأخرى في حوادث تحطم متعاقبة. ولم ينتظر السفن التي زودها رجال نارفايز وكابيزا فاكا بأشرعة من القمصان وحبال من أعراف الأحصنة، مصير أفضل.

يرتجف رجال السفينة المحطمة، الأشباح العارية، من البرد ويبكون بين صخور جزيرة «مال هادو» يحضر لهم الهنود الماء والأسماك والجذور ويبكون معهم. ذرف الهنود أنهاراً من الدموع وكلما طال الندب كلما شعر الأسبان بالأسف.

أخذهم الهنود إلى قريتهم وهكذا لم يمت البحارة من البرد، إذ واظب الهنود على إشعال النار طوال الطريق في مواضع الراحة. كان يحملونهم على المحفات بين النار والنار، دون أن يجعلوا أقدامهم تلمس الأرض.

ظنَّ الأسبان أن الهنود سيقطعونهم إرباً ويرمونهم في إناء الطهي، إلا أنهم تقاسموا معهم في القرية الطعام القليلَ الذي يمتلكونه. وكما سيقول آلفار كابيزا دي فاكا، يرتعب الهنود ويغضبون حين يعلمون أن خمسة مسيحيين أكلوا بعضهم على الشاطىء وبقي منهم واحداً فقط لم يوجد أحد ليأكله.

١٥٣١: نهر أورينوكو

ـ دييغو دي أورداز ـ

تبقى الريح عنيدة وتجرّ السفينة عكس التيار. الشمس تجلد المياه.

يشبه شعار النبالة الذي يرتديه القائد مخروط بركان بوبوكاتيبتل.كان أول إسباني يخطو على قمته الثلجية. في ذلك اليوم ومن هذا الارتفاع شاهد من خلال زوابع الرماد البركاني ظهور النسور ومدينة تينوشتيتلان تومض في البحيرة، كان عليه أن يبتعد بسرعة لأن البركان غضب وهدده بوابل من النار والحجارة والدخان الأسود.

يتساءل اليوم دييغو أورداز، المبلّل بالماء إلى عظامه إذا كان نهر أورينوكو سيقوده إلى حيث ينتظر الذهب. كان هنود القرى يشيرون إلى الأمام. بينما يطارد الضابط البعوض ويهدىء بدن السفينة المرقّع الذي يصّر متقدماً إلى الأمام. القردة تحتج. ببغاوات لامرئية تصرخ. طيور كثيرة بلا أسماء ترفرف محتجّة بين الشواطئ.

ـ أغنية شعب البيارو عن الرجل الأبيض ـ

سيئة مياه النهر
الأسماك تختبىء
في الوهدة الضيقة
محمرة من الوحل.

يعبر الرجل ذو اللحية
الرجل الأبيض
يعبر الرجل ذو اللحية
في القارب الكبير
بمجاديف تصرّ
تعضّها الثعابين.

١٥٣١: مدينة المكسيك

ـ عذراء كوداليوب ـ

هل يصعد ذلك الضّوء من الأرض أم يهبط من السماء؟ هل هو حشرة ضوئية أم نجم متوهج؟ لايريد أن يغادر منحدرات تيبياك ويستمّر في منتصف الليل مشعاً على الحجارة ومتعلّقاً بالأغصان. مهلوساً ومثاراً، يراه الهندي العاري خوان دييغو: ينفتح لـه ضـوء الأضـواء يتحطّم قطعاً ذهبية وياقوتية وتظهر في قلبه المتوهج أكثر النساء المكسيكيات تألقاً وتقول له باللغة الناهواتلية: «أنا أم الإله».

يسمع الأسقف أوماراكاويشـك. إنـه حـامي الهنـود الرسمـي الـذي عيّنـه الإمـبراطور وحـارس الحديد الذي يطبع على أوجه الهنود أسماء ماليكهم. رمى المخطوطات الآزتيكية في النار، الأوراق التي لوّنتها يد الشيطان ودمّر خمسمائة معبد وعشرين ألف تمثال يعرف الأسقف زاماراكا جيداً أن إلهة الأرض تونانتزن كان لها حرم على منحدرات تيبيـاك وأن الهنـود كـانوا يحجـون إلى هنـاك ليعبدو: «أمنا»، كما كانوا يسمّون تلك المرأة المكسوة بالثعابين والقلوب والأيدي.

يشك الأسقف ويقرّر أن خوان دييغو شاهد عذراء كواديليوب العـذراء التي ولـدت في أسـتريما نديورا والتي جعلت شموس إسبانيا لونها داكناً وجاءت إلى وادي الآزتيكيين لتكون أماً للمهزومين.

١٥٣١: سانتو دومينغو

ـ رسالة ـ

يضغط على صدغيه وهو يتتبّع الكلمات التي تتقدّم وتتراجع. يقول متوسلاً: «لاتفكـر بمـنزلتي الوضيعة وبفظاظة التعبير، فكّر بالإرادة الطيبة التي تدفعني إلى الكلام».

يكتب فراي بارتولومي ديلاس كاساس إلى مجلس الآنديز. سيكون مـن الأفضـل كمـا يؤكـد أن يذهب الهنود إلى الجحيم بهرطقاتهم ومماطلاتهم وعزلتهـم بـدلاً مـن أن ينقذهـم المسيحيون. إن

صرخات الدم الإنساني الكثير المسفوح تصل إلى السماء، صرخات الذين أحرقوا أحياء وتم شواؤهم ورميهم إلى الكلاب المتوحشة...

ينهض. يمشي. يخفق رداؤه الأبيض في سحب الغبار.

يجلس فيما بعد على حافة الكرسي المزخرفة. يخدش أنفه بالقلم تكتب اليد الناتئة العظام: «كي ينقذ الهنود في أميركا وتنفذ إرادة الله يقترح فراي بارتولومي أن يحكم الصليب السيف وأن تخضع حاميات الجنود للأساقفة ويجب أن يُرسَل المستعمرون إلى حراثة الأراضي تحت الحراسة». يتابع كلامه: «يستطيع المستعمرون أن يحضروا السود والمغاربة وعبيداً آخرين ليخدموهم، أو يمكنهم أن يعيشوا معتمدين على عملهم الخاص أو بطريقة ما، لاتؤذي الهنود...».

١٥٣١: جزيرة سيرانا

ـ المطروح[1] والآخر ـ

تجرح ريح من الملح والشمس «بدرو سيرانو» الذي يتجوّل عارياً في الجروف. النوارس ترفرف وهي تطارده. يصنع لنفسه ظلاً بيده المرفوعة وعيناه مثبّتتان على أرض العدو.

يتجه إلى الخليج الصغير ماشياً على الرمال وحين يصل إلى خطّ الحدود يتبوّل. لايعبر الخط، لأنه يعرف إذا كان الآخر يراقب من أحد المخابىء سيظهر بقفزة واحدة ويتعامل مع هذا الإستفزاز.

يبول وينتظر. تصرخ الطيور وتهرب. أين وضع الرجل نفسه؟ السماء بياض يبهر البصر، ضوء كلسي، والجزيرة حجر يشتعل. صخور بيضاء، ظلال بيضاء، زبد فوق الرمل الأبيض: عالم صغير من الرمل والكلس. أين يستطيع الوغد أن يختبىء؟

مرّ وقت طويل على تحطم سفينة «بدرو» في تلك الليلة العاصفة. ووصل طول لحيته وشعره إلى صدره حين ظهر الآخر على لوح رماه المدّ الغاضب على الشاطىء. أفرغ بدرو رئتيه من الماء وقدّم له الطعام والشراب وعلّمه كيف لا يموت على تلك الجزيرة الصحراوية التي لا تنمو فيها سوى الصخور. علّمه أن يقلب السلاحف وينهيها بشق واحد، أن يقطع لحمها إلى شرائح ويجففه في الشمس وأن يجمع ماء المطر في دروعها. علمه انٍ يصلي للمطر وأن يحفر للبطلينوس[2] تحت الرمل ودلّه على مخابىء السرطانات والقريدس وقدّم له بيض السلاحف والمحار الذي أحضره البحر وعلق بأغصان المنغروف[3]. عرف الآخر من بدرو أنه من الضروري جمع كل شيء يرسله البحر

---

(١) ـ المطروح: شخص يوفق إلى بلوغ الشاطىء إثر غرق سفينة.

(٢) ـ البطلينوس: حيوان من الرخويات أو السمك الصدفي.

(٣) ـ المنغروف: شجر استوائي.

إلى الحيد البحري لكي تشتعل النار ليلاً ونهاراً وتتغذّى بالطحالب وأعشاب البحر، بالأغصان التائهة وقناديل البحر وعظام الأسماك. ساعده بدرو في بناء سقف من دروع السلاحف منح ظلاً عوّض غياب الأشجار.

كانت الحرب الأولى هي حرب الماء. شك بدرو أن الآخر يسرق أثناء نومه واتهمه الآخر بأنه يشرب مثل وحش. حين نفذ الماء وسفحت القطرات الأخيرة التي تم التنازع عليها بالكلمات لم يكن لديهما بديل عن شرب بولهما والدم الذي استنزفاه من السلحفاة الأولى التي عثرا عليها. تمددا ليموتا في الظل وبقي لديهما لعاب قليل يكفي فقط للعنات الصامتة.

أنقذهما المطر أخيراً. ظن الآخر أن بدرو يستطيع أن يخفض سقفه إلى النصف لأن السلاحف أصبحت نادرة قال له: «إن منزلك قصر من دروع السلاحف أما أنا فأمضي النهار ملوياً في منزلي».

قال بدرو: «أتبرّز عليك وعلى الأم التي أنجبتك، إذا كنت لا تحب جزيرتي اذهب من هنا»، وأشار بأصبعه إلى البحر الواسع.

قرّرا أن يقسما المياه. يوجد من الآن فصاعداً حجرة للماء في كل طرف من الجزيرة.

جاءت حرب النار. دارا حول الجزيرة حاملين النار لعل سفينة عابرة تراهما. في إحدى الليالي، حين كان الآخر يقوم بالحراسة انطفأت النار. لعنه بدرو وهزّه ليوقظه.

قال الآخر مكشراً عن أسنانه: «إذا كانت هذه جزيرتك فافعل هذا أيها الخنزير».

تدحرجا على الرمال. حين تعبا من ضرب بعضهما قرّرا أن كلاً منهما سيشعل ناره. ضرب بدرو حجراً بسكينه إلى أن تولّدت بعض الشرارات ومنذ ذلك الوقت بُنيت نار على كل طرف من الجزيرة.

جاءت حرب السكاكين ثالثاً. لم يكن يمتلك الآخر شيئاً يقطع به وطلب منه بدرو أن يمنحه قريدساً طرياً كلما أعاره سكينه.

بعد ذلك نشبت حرب الطعام والعِقْدُ الصدفي.

حين انتهت حربُ قذفِ الأحجار وقّعا هدنة واتفاقية حدود. لم يكن يوجد سجلات أو أوراق في هذا المكان المهجور ولاأحد منهما يستطيع أن يوّقع اسمه، إلا أنهما رسما الحدود وأقسما بالله والملك أن يحترما ذلك. قذفا سمكة في الجو. رسم بدرو نصف الجزيرة التي تواجه «كارتاجينا» وحدّد الآخر النصف الذي يواجه سانتياغو دي كوبا.

يقضم بدرو أظافره وهو واقف على الحدود، ينظر إلى الأعلى وكأنه يطلب المطر ويفكر: «لابد أنه مختبىء في أحد الشقوق، أستطيع أن أشم رائحته، هذا الأجرب. إنه في وسط المحيط ولايستحم أبداً، سيتقلّى بدهنه إنه هناك نعم».

يصرخ: «مرحباً ياثقب المؤخرة».

يجيبه صخب الرعد وعربدة النوارس وأصوات الريح.

يصيح: «أيها العاقّ. ياابن العاهرة»، إلى أن تنفجر حنجرته ويركض من طرف الجزيرة إلى طرفها الآخر جيئة وذهاباً وحيداً وعارياً على الرمال.

١٥٣٢: كاجماركا

- بيزارو -

يكنس ألف رجل ممرّ الآنكي الذي يؤدي إلى الحـي الكبـير حيث ينتظر الإسبان مختبئين. ترتجف الجموع حين يمرّ الأب المحبوب، الواحد، الذي لاشريك له، إله العمل والراحة. يصمت المغنون ويجمد الراقصون، في الضوء الأخير للنهار تتوهج تيجـان وأرديـة «آتاهوالبـا» وبطانتـه مـن نبلاء المملكة بالذهب والفضة.

أين الآلهة التي أحضرتها الريح؟ يصل الآنكـي إلى وسـط الحـي ويصدر أمـراً بالانتظـار. منـذ بضعة أيام اخترق جاسوس معسكر الغزاة، شدّ لحاهم وعاد ليخـبر أنهـم ليسـوا سـوى حفنـة مـن اللصوص جاؤوا من البحر. كلّفه ذلك التجديف حياته. أين أبناء «يراشوشا» الذين يرتدون النجـوم في كعابهم ويرسلون الرعود التي تسبب السُبات والذعر والتشتت والموت؟

يظهر الكاهن فيسنت دي فالفيرد من الظلال ويذهب لمقابلـة آتاهواليـا. يرفـع الإنجيـل في يـد والصليب في اليد الأخرى كأنه يوقف عاصفة في أعالي البحار ويصرخ أن الله الحقيقي هو هنا وكل ماعداه باطل. يترجم المترجم ويقول له آتاهواليا وهو على رأس الحشد: «من قال لك هذا؟».

- «يقول ذلك الإنجيل، الكتاب المقدس».

- «دعه يقول لي».

على بعد بضعة خطوات يشهر بيزارو سيفه.

ينظر آتاهوالبا إلى الإنجيل. يقلبه بيده، يهزه ليجعله يتكلم يضغطه على أذنه ثم يقـول: «إنـه لايقول شيئاً إنه فارغ».

ثم يرميه إلى الأرض.

كان بيزارو ينتظر هذه اللحظة منذ ذلك اليوم الذي ركع فيه أمام الإمـبراطور تشـارلز الخـامس ووصف الإمبراطورية بأنها كبيرة كأوروبا وأنه اكتشفها واقترح غزوها ووعده بـأروع كـنز في تـاريخ الإنسانية. وحتى قبل هذه اللحظة منذ اليوم الذي رسم فيه سيفه خطـاً في الرمـال وانحنـى بعـض الجنود المرضى المتضوّرين جوعاً وأقسموا أن يتبعوه إلى النهاية. وأيضـاً قبـل ذلـك. بكثـير: انتظـر بيزارو هذه اللحظة منذ أن كان مرمياً على باب كنيسة في أستريماندورا منذ أربعـة وخمسين عامـاً وشرب حليب التّفاف[1] لأنه لم يكن يوجد أحد يرضعه.

يصرخ بيزارو وينقضّ. وعند الإشارة يظهر الفخّ. وسط دوي أبواق الإغارة وزئير البنادق يهـاجم الفرسان الحشد الأعزل المنذهل.

---

(١) - التّفاف: عشب ذو عصارة لبنية.

١٥٣٣: كاجماركا

- الفدية -

كوّم الذهب والفضة لشراء حياة آتاهوالبا كحشد من النمل تدفقت على طرق الإمبراطورية الأربع خطوط طويلة من اللامات وبشر تحني أكتافهم الحمولات. جاءت الغنيمة الأروع من «كوزكو»: حديقة كاملة من الأشجار والأزهار الذهبية والأحجار الكريمة والطيور والحيوانات الفضية النقية والفيروزية واللازوردية.

يبتلع الفرن الآلهة والحليّ ويتقيأ سبائك الذهب والفضة يتنازع الضباط والجنود على توزيعها إذ أنهم لم يحصلوا على رواتب منذ ستة أعوام.

يخصّص بيزارو من كل خمس سبائك حصة للملك ثم يصلّب على نفسه. يطلب مساعدة الله الذي يعرف كلّ شيء ليرى العدالة وقد تحققت ويطلب مساعدة هيرناندو دي سوتو الذي يعرف كيف يقرأ ليراقب الناسخ.

يخصّص جزءاً للكنيسة وآخر للكاهن المرافق. يكافئ بسخاء أخوته وضباطه الآخرين. يأخذ كلّ جندي مقاتل أكثر مما يجمعه الملك فيليب في عام ويصبح بيزارو أغنى رجل في العالم. يخصّص آسر آتاهوالبا لنفسه مايعادل مرتين مايصرفه بلاط الملك تشارلز بخدمه الستمائة في عام، هذا دون أن تحسب المحفّة الآنكية التي تحمل ثلاثة وثمانين كيلو غراماً من الذهب الخالص وهذه غنيمة له كقائد.

١٥٣٣: كاجماركا

- آتاهوالبا -

عَبَرَ قوس قزح أسود السماء. لم يرغب آتاهوالبا الآنكي أن يصدّق ذلك.

في يوم الاحتفال الشمسي سقط نَسْرٌ ميتاً في ساحة السعادة. لم يرغب آتاهوالبا أن يصدق ذلك.

قتل الرسل الذين جاؤوا بأخبار سيئة وقطع بضربة فأس واحدة رأس النبي الذي تنبأ بسوء الحظ. أحرق معبد الوحي وقطّع شهود النبوءة إلى أشلاء.

قيّد آتاهوالبا أبناء أخيه الثمانين على أعمدة نُصِبَتْ على الطرق وتغذّت العقبان على لحومهم.

صبغت زوجات هويسكار مياه نهر آدماركا بالدم. أكل هواسكار الذي سجنه آتاهوالبا خراء البشر وشرب بول الخرفان وزوِّج إلى صخرة كُسيت بالثياب كان هواسكار هو آخر من قال: «سيقتلونه كما سيقتلني». لم يرغب آتاهوالبا أن يصدق ذلك.

حين تحوّل قصره إلى سجن له، لم يرغب أن يصدق ذلك. قال آتاهوالبا الذي سجنه بيزارو: «أنا أعظم الأمراء على الأرض» ملأت الفدية غرفة بالذهب واثنتين بالفضة. صهر الغزاة حتى المهد الذهبي الذي سمع فيه آتاهوالبا أغنيته الأولى.

أخبره بيزارو وهو جالس على عرشه أنه قرّر أن يؤكد حكم الموت عليه. أجاب آتاهوالبا: «لاتمزح معي هكذا». ولم يرغب أن يصدق ذلك الآن وهو يصعد خطوة إثر خطوة الدرج جاراً أغلاله في الضوء اللبني للفجر.

ستنتشر الأنباء حالاً بين أطفال الأرض الذين لايحصى لهم عدد والمحكومين بدفع الجزية لابن الشمس. سيبكون في «كويتو» موت الظل الذي يحمي: منذهلاً، ضائعاً بلا ذاكرة ووحيداً. سيعمّ الفرح في «كوزكو» ويُسْفَح الشراب.

آتاهوالبا مقيّد من يديه ورجليه وعنقه. لكنه مايزال يفكر: «ماذا فعلت لأستحق الموت؟».

عند قدم المشنقة يرفض أن يصدق أن إنساناً هزمه. تستطيع فقط الآلهة أن تفعل هذا. لقد خانه والده الشمس.

يبكي ويقبّل الصليب ويقبل العمادة قبل أن تحطم عنقه الضاغطة الحديدية. حاملاً اسم فرانسيسكو الغازي يطرق بعنف على أبواب جنة الأوروبيين حيث لايوجد مكان له.

١٥٣٣ هاكوي كوانا

ـ السرّ ـ

يتقدّم بيزارو نحو كوزكو على رأس جيش كبير. أضاف الملك الآنكي الجديد آلاف الهنود إلى حفنة من الغزاة. يُنهك ضباط آتاهوالبا تقدّمه يأسر بيزارو في وادي هاكوي كوانا أحد رسل أعدائه.

تلعق النار باطن قدميه.

ـ «ماذا تقول هذه الرسالة؟»

إنه رجل متمّرس بالجري. عبر الرياح الجليدية للسهل وحرارة الصحراء الشرسة. عوّده عمله على الألم والإعياء. إنه يئنّ لكنه لن يتكلم.

بعد عذاب طويل ارتخى لسانه فقال: «لن تستطيع الجياد أن تتسلّق الجبال».

ـ «ماذا أيضاً؟».

ـ «لايوجد ما يخشى منه. إن هذه الخيول جبانة لكنها لاتؤذي».

ـ «وماذا أيضاً؟».

جعلوه يمشي على النار.

ـ «وماذا أيضاً؟».

فقد قدميه وقبل أن يفقد حياته قال: «أنتم ستموتون أيضاً».

١٥٣٣: كوزكو

- الغزاة يدخلون إلى المدينة المقدّسة -

في الظهيرة المتألقة يشق الجنود طريقهم عبر سحب الدخان. تختلط رائحة الجلد المتعّرق برائحة الإشتعال. بينما تُسمع قعقعة حوافر الأحصنة وعجلات المدافع.

يرتفع مذبح في الساحة. تواكب رايات حريرية مطرزة بالنسور الإله الجديد المفتوح الذراعين الملتحي كأبنائه. ألا يشاهد الإله الجديد أبناءه حاملين الفؤوس بأيديهم ويقفزون فوق ذهب المعابد والمدافن؟

وسط أنقاض كوزكو، ينتظر العجائز والمشلولون الذين فحّمتهم النار بصمتٍ، الأيام القادمة.

١٥٣٣: ريوبامبا

- آلفارادو -

رست السفن منذ نصف عام في بويرتو فييجو. أبحر بدرودي آلفارادو من غواتيمالا، حالماً بكنوز مملكة عذراء. ذهب معه خمسمائة إسباني وعشرون ألفاً من الهنود والزنوج العبيد. أبلغه الرسل: «إن القوة التي تنتظرك ستجعل ماتراءى لك كالقذارة، وفي شمال تمبيز ستتضاعف شهرتك وثروتك. لقد أصبح بيزارو وألماغرو سيدين في الجنوب إلا أن مملكة كيوتو الخيالية لايملكها أحد».

عثروا على الذهب والفضة والزمرد في القرى الساحلية. انطلقوا إلى الجبال حاملين ثروات سريعة. واجهوا الأدغال والمستنقعات، الحمّى التي تقتل في يوم أو تترك المرء مجنوناً والمطرَ المرعبَ للرمادِ البركاني. حطّمت العواصف الثلجية والرياح التي تقطع كالسكاكين عند سفوح الآنديز العبيد الذين لم يعرفوا البرد أبداً وبقي كثير من الإسبان هياكل عظمية في الجبال. الجنود الذين ترجّلوا ليشدّوا أحزمة سروج أحصنتهم بقوا متجمّدين بشكل مستمر. رميت الغنائم في قاع الوهاد: قدّم آلفارادو الذهب وازداد صخب الجنود من أجل الطعام والمأوى. بعينين محروقتين من الثلج الذي يعمي البصر استمر آلفارادو بقيادة القافلة. كان يقطع بضربة سيف واحدة رؤوس العبيد الذين سقطوا والجنود الذين لم يرغبوا بالذهاب.

موتى أكثر مما هم أحياء، عضلاتهم متصلبة ودمهم متجمد، وصل الرجال الأكثر بأساً إلى هضبة. وأخيراً وصلوا إلى الطريق الملكي للآنكيين الذي يؤدي إلى «كويتو»، إلى الجنة. حالما وصلوا عثروا على آثار الحوافر الطرية على الوحل. لقد سبقهم القائد بينال كازار إليها.

١٥٣٣: كويتو

- هذه المدينة تقتل نفسها -

يدخل رجال بينال كازار ولايمكن إيقافهم. آلاف من الحلفاء الهنود، أعداء الآنكا، يتجسّسون ويقاتلون من أجلهم. بعد ثلاث معارك سبق السيف العذل. يشعل القائد روميناهوي الذي كان يقرع طبول الانسحاب النار في كويتو. لن يستمتع بها الغزاة حية ولن يجدوا أية كنوز سوى تلك التي يمكن أن يحفروا المدافن ليعثروا عليها. ارتفعت مدينة كويتو، مَهد وعرش آتاهوالبا، ناراً عظيمة بين بركانين.

يبتعد روميناهوي الذي لم يُطعن في الظهر أبداً عن ألسنة اللهب المحلقة. عيناه دامعتان بسبب الدخان.

١٥٣٣: برشلونة

- الحروب المقدّسة -

يصل رسل الأنباء السارة من أميركا. يغلق الإمبراطور عينيه ويرى الأشرعة تقترب ثم يتذوّق رائحة القار والملح. يتنفس الإمبراطور كالمحيط، كالمدّ العالي، كالجزر وينفخ ليسرّع السفن المنتفخة بالكنوز.

كان القدر قد كافأه لتوه بمملكة جديدة حيث يتكوّم الذهب والفضة كالحديد في «فيزكايا». الغنائم المدهشة في طريقها. ستمكنه من تهدئة أصحاب البنوك الذين يخنقونه وسيدفع لجنوده من الرمّاحين السويسريين والمرتزقة الألمان والمشاة الإسبان الذين لم يشاهدوا أبداً قطعة نقد في أحلامهم. ستموّل فدية آتاهوالبا الحروب المقدّسة ضدّ الهلال الإسلامي الذي وصل إلى بوابات فيينا وضدّ الهراطقة الذين يتبعون لوثر في ألمانيا. سيرسل الإمبراطور أسطولاً عظيماً ليطرد السلطان سليمان والقراصنة ذوي اللحى الحمراء من البحر الأبيض المتوسط.

تعكس المرآة صورة إله الحرب يرتدي درعاً دمشقياً مطرزاً عند العنق وعلى صحن الصدر يرتدي خوذة مريشة وله وجه تضيئه شمس العظمة. تظهر حواجب كثيفة فوق عينين كئيبتين، ذقن منتصب إلى الأعلى تغطّيه لحية. يحلم الإمبراطور بالجزائر ويسمع نداء القسطنطينية، تنتظر تونس أيضاً التي سقطت في أيد ملحدة جنرال يسوع المسيح.

١٥٣٣: سيفيل

- كنوز الآنكيين -

رمت السفن الأولى الذهب والفضة على أرصفة مرفأ سيفيل. جرّت الثيران الحمولات إلى غرفة التجارة. تصاعدت تمتمات الدهشة من الحشد الذي أتى ليراقب عملية التفريغ. كان هناك حديث عن أسرار وعن ملك مهزوم وراء المحيط.

يخرج سكيران من المقهى الذي يواجه رصيف المرفأ وينضمان إلى الحشد. إنهما لايحتفلان بالكنوز الآنكية. كانا متوهجين بعد جلسة تناول خمور جيدة ولأنهما قطعا عهداً على نفسيهما. اتفقا على تبادل زوجتيهما: أنت تأخذ زوجتي التي هي كاللؤلؤة وأنا آخذ زوجتك رغم أنها لاتستحق الكثير. كانا يبحثان عن كاتب بالعدل ليجعل الأمر رسمياً.

لم يفكرا بذهب وفضة البيرو ولم يلتفت الحشد إلى المطروح الذي وصل مع الكنز. أنقذته سفينة جذبتها النار من جزيرة كاريبية. كان اسمه «بدرو سيرانو» ومنذ تسعة أعوام سبح ناجياً من حطام سفينة. يستخدم شعره ليجلس عليه ولحيته كرداء وله بشرة جلدية ولم يتوقف عن الحديث منذ أن أصعدوه إلى السفينة. والآن يتابع رواية حكايته وسط الزئير ولاأحد يصغي إليه.

١٥٣٤: ريوبامبا

- التضخّم -

حين وصلت أنباء ذهب آتاهوالبا إلى سانتو دومينغو ذهب الجميع للبحث عن السفن. كان أول من تحرك بسرعة ألونزو هيرنانديز المتاجر بالهنود. أبحر من بنما ولدى وصوله إلى تمبيز اشترى حصاناً. يكلف الحصان في تمبيز أكثر مما يكلف في بنما بسبع مرات وبثلاثين مرة مما يكلف في سانتو دومينغو.

أجبر تسلّق الجبال هيرنانديز على المشي. وليكمل رحلته إلى كيوتو يشتري حصاناً آخر. يدفع مايزيد على كلفته بتسعين مرّة في سانتو دومينغو ويشتري عبداً أسود بثلاثمائة وخمسين بيزو، يزيد سعر الحصان في ريوبامبا على سعر الإنسان تسع مرات.

كلّ شيء للبيع في المملكة حتى الرايات الملطخة بالوحل والدم وكل شيء مسعّر بسعر مرتفع كالسماء. تباع السبيكة بقطعتين ورقيّتين.

يهزم التجار الذين وصلوا متأخرين الفاتحين دون أن يشهروا سيفاً.

١٥٣٥: كوزكو

- العرش النحاسي -

لايستلقي على ركبتي الملك الصغير التابع للملك آخر صولجان ذهبي بل عصا تشعّ بقطع زجاجية ملونة. يرتدي مانكو آنكا شُرَّابة قرمزية على رأسه إلا أن العقد الذهبي الثلاثي غائب عن عنقه حيث لاتتوهج الشمس ولاتتدلى الأقراص اللامعة من أذنيه. يخلو ظهر شقيق آتاهوالبا وعدوه ووريثه من عباءة الذهب وخيوط الفضة ونسيج الفيكونة[1] اختفى الباز عن الرايات التي تضربها الريح وحلّ مكانه نسر امبراطور أوروبا.

لاأحد يركع عند قدمي الآنكي الذي توّجه بيزارو.

١٥٣٦: مدينة المكسيك

- موتولينيا -

يمشي فراي توريبيو مونتولينيا حافياً على الهضبة حاملاً كيساً ثقيلاً على ظهره.

موتولينيا كلمة محلية تعبر عن شخص فقير ومبتلى. مايزال يلبس رداءً رثاً مرقعاً منحه اسمه منذ أعوام حين كان يصل حافياً كما الآن من ميناء فيراكروز.

يقف على قمة المنحدر وتمتدّ تحت قدميه البحيرة الكبيرة التي تتوهج فيها مدينة المكسيك. يمسّد موتولينيا جبهته بيده يتنفّس بعمق وينصب في الأرض عشرة صلبان مصنوعة من أغصان ومربوطة بالحبال. حين ينصبها يخصّصها كالتالي:

« هذا الصليب ياإلهي هو من أجل الأمراض التي لم تكن معروفة هنا والتي تنتشر برعب بين السكان المحليين».

«وهذا من أجل الحرب، وهذا من أجل الجوع الذي قتل من الهنود مايبلغ عدد قطرات البحر وذرات الرمال».

«هذا من أجل جامعي الجزية، الدبابير التي تأكل عسل الهنود. وهذا من أجل الجزية التي تجبرهم على بيع أبنائهم وأراضيهم ليدفعوها».

«وهذا من أجل مناجم الذهب التي تفوح بنتن الموت والتي لايستطيع المرء أن يتقدّم فيها فرسخاً واحداً».

---

(١) ـ الفيكونة: حيوان جنوب أميركي شبيه بالجمل.

«وهذا من أجل مدينة المكسيك العظيمة التي ترعرعت على أنقاض تينوشتيتلان ومن أجل الذين أحضروا العوارض الخشبية والأحجار على ظهورهم ليبنوها وهم يغنون ويصرخون ليلاً ونهاراً إلى أن ماتوا من الإعياء أو من الانهيارات».

«وهذا من أجل الأرقّاء الذين جرّوا إلى هنا من جميع الجهات كقطعان من الوحوش وحُفِرَ الوشم على وجوههم. وهذا من أجل الذين تساقطوا على جانبي الطريق حاملين أثقالاً لتدعيم المناجم».

«وهذا ياإلهي من أجل صراعاتنا الأبدية ومناوشاتنا نحن الإسبانيين والتي تنتهي دائماً بتعذيب الهنود وقتلهم».

يصلي موتولينيا راكعاً أمام الصلبان: «سامحهم يارب. أتوسّل إليك أن تغفر لهم. أعرف جيداً أنهم يستمرّون في عبادة الأوثان الدموية، وإذا كانوا سابقاً يمتلكون مائة إله فهم الآن يمتلكون واحداً إضافياً. لايستطيعون أن يميّزوا خبز القربان المقدّس عن حبّة ذرة، ولكن إذا كانوا يستحقون عقوبة يدك الجبارة فهم أيضاً، يستحقون شفقة قلبك الكريم».

يصلّب موتولينيا، ينفض رداءه وينزل عن الهضبة. يصل إلى الأبرشية قبل بدء السلام المريمي. وحيداً في حجرته يتمدّد على فراشه القشّي ويمضغ ببطء وبصوت مسموع ترتّية[١].

١٥٣٦: ماشو بيتشو

ـ مانكو آنكا ـ

مريضاً من كونه ملكاً يُعَامَل ككلب ينتفض مانكو آنكا ضدّ الرجال ذوي الوجوه المُشْعِرَة. يعيّن بيزارو على العرش الفارغ «بولو» شقيق مانكو آنكا وآتاهوالبا وهواسكار.

على ظهر حصانه وعلى رأس جيش ضخم يحاصر مانكو آنكا «كوزكو». تتعالى النيران حول المدينة ويسقط مطر سهام الصوفان المشتعل إلا أن الجوع يؤثر على الذين يضربون الحصار أكثر مما يؤثر على المحاصَرين. ينسحب جنود مانكو آنكا بعد نصف عام وسط صيحات الحرب التي تشق الأرض.

يعبر الآنكا وادي نهر أوربامبا ويبزغ بين القمم العالية المكلّلة بالضباب. تقوده درجات حجرية إلى مخبأ قمة الجبل السري. محمية بالمتاريس والأبراج المحصنة تفرض قلعة ماشوبيتشو سيادتها خارج العالم.

---

(١) ـ الترتية: كعكة مسطحة مدورة من دقيق الذّرة.

١٥٣٦: وادي أولوا

- غونزالو كويريرو -

ينسحب خيالة ألونزو دي آفيلا المنتصرون. يستلقي في ساحة المعركة بين الخاسرين هندي ملتح. جسده العاري أرابيسك من الحبر والدم. تتدلى رموز ذهبية من أنفه وقد شقّت طلقة بندقية جبهته.

كان اسمه غونزالو كويريرو. كان في بداية حياته يعمل بحارا في ميناء بالوس. بدأت حياته الثانية منذ ربع قرن حين تحطمت سفينته على شاطىء يوكاتان. عاش بين الهنود منذ ذلك الوقت. كان زعيماً أيام السلم وقائداً في الحرب. أنجبت له امرأة من المايا ثلاثة أبناء.

في عام ١٥١٩ أرسل هرنان كورتيز في طلبه.

قال غونزالو للمترجم: «لا! انظرْ إلى جمال أبنائي، اترك لي فقط بعض هذه الكرات الحمراء التي تحملها سأعطيها لأبنائي واقول لهم: لقد أرسل لي أخوتي هذه الألعاب من بلدي».

بعد وقت طويل سقط غونزالو كويريرو وهو يدافع عن بلد آخر ويقاتل إلى جانب أخوة آخرين اختارهم بنفسه. إنه أول غاز غزاه الهنود.

١٥٣٦: كولياكان

- كابيزا دي فاكا -

مرّت ثمانية أعوام على تحطم سفينة كابيزا دي فاكا قرب جزيرة «مال هادو». يصل أربعة أشخاص فقط، أربعة إلى كوالياكان من بين ستمائة رجل أبحروا من الأندلس. ترك بعضهم على الطريق وابتلع البحر عدداً كبيراً منهم، مات البعض الآخر من الجوع والبرد أو قتلهم الهنود.

عبرّ ألفارو نونيركابيزا دي فاكا وآلونزو ديل كاستيللو وأندريه دورا نتيز واستينابيكو وعربي أسود أميركا كلها سيراً على الأقدام من فلوريدا إلى شواطىء المحيط الهادي. عراة ومسلوخي الجلد كالثعابين أكلوا العشب البري والجذور والديدان والسحالي أو أي شيء عثروا عليه حياً إلى أن قدّم لهم الهنود الأغطية والتين الشوكي وقرون الذرة مقابل معجزاتهم وعلاجاتهم. أعاد كابيزا دي فاكا أكثر من هندي واحد إلى الحياة بصلاته الربانية وسلامه المريمي وشفى كثيراً من المرضى بشارة الصليب والنفخ على مواضع آلامهم. انتشرت شهرة مجترحي المعجزات في الأرجاء، وجاء كثيرون ليسلموا عليهم على الطرقات واستقبلتهم القرى بالرقص والغناء.

حين شقوا طريقهم جنوباً ظهرت في «سينالو» العلامات الأولى التي تدل على وجود المسيحيين. عثر كابيزا دي فاكا ورفاقه على أبازيم ومسامير لكعوب الأحصنة وعلى أعمدة للربط، أيضاً وجدوا الخوف، وحقولاً مهجورة وهنوداً نزحوا إلى الجبال.

قال كابيزا دي فاكا: «نشعر بالدفء، بعد مسير طويل اقتربنا من قومنا».

قال الهنود: «ليسوا مثلكم. تجيئون من حيث تشرق الشمس ويجيئون من حيث تغرب. إنكم تشفون المرضى وهم يقتلون الأصحاء. تمشون عراةً وحفاةً ولستم جشعين مثلهم».

١٥٣٧: روما

ـ يقول البابا إنهم مثلنا ـ

يطبع البابا بولس الثالث اسمه والذي يشبه اسم القديس بطرس والقديس بولس، بالختم الرصاصي على مخطوطةٍ ورقية. يَصْدُرُ أمر بابوي رسمي عن الفاتيكان. يوضح أن الهنود بشر ويمتلكون روحاً وعقلاً.

١٥٣٨: سانتو دومينغو

ـ المرآة ـ

أحجار تصدر دخاناً ومعاول تلمع تحت شمس الظهيرة. يتعالى زئير في الميناء. أحضرت سفن شراعية كبيرة مدفعية ثقيلة من سيفيل من أجل حصن سانتو دومينغو.

يراقب فرنانديز دي أوفييدو، رئيس البلدية، عملية نقل المدافع. تحت ضرب السياط يُنزل الأرقّاء السود الحمولة بسرعة كبيرة تصِّر العربات تحت حمولتها من الحديد والبرونز يتحرك عبيد آخرون جيئةً وذهاباً وسط الصخب ويدلقون سطول الماء على اللهب المتصاعد من محاور العجلات الحامية.

تبحث فتاة هندية عن سيدها وسط الهياج والصخب. كان جسدها مغطى بالبثور وكانت كل خطوة تخطوها نصراً لأن ثيابها الهزيلة تعذب جلدها. عانت طوال الليل ونصف النهار وبصرخات متتالية من حروق بالأسيد أحرقت بيديها جذور شجرة «الغو» فركتها بين يديها وصنعت عجينة دهنت بها جسدها لأن مادّتها تحرق الجلد وتزيل لونه وتحوّل النساء الهنديات والأفريقيات إلى سيدات قشتاليات بيضاوات.

ـ «ألم تعرفني ياسيدي؟».

يدفعها أوفييدو بعيداً إلا أن الفتاة تلحّ بصوتها الواهن تابعة سيدها كظله وهو يجري ويصدر الأوامر إلى كبار العمال:

ـ «ألا تعرف من أنا؟».

تسقط الفتاة على الأرض وتتابع: «سيدي، سيدي، أراهن أنك لاتعرف من أنا؟»

١٥٣٨: وادي بوغوتا

- لحية سوداء، لحية حمراء، لحية بيضاء -

ذهب غونزالو خمينيث كويسادا ذو اللحية السوداء والعينين السوداوين منذ عام ليبحث عن منابع الذهب ومنبع نهر «الماجدلينا» وتبعه نصف سكان سانتا مارتا.

عبروا أراضي ومستنقعات كانت تتبخّر تحت أشعة الشمس. حين وصلوا إلى ضفة النهر لم يبق أحد من آلاف الهنود الذين سيقوا ليحملوا المدافع والخبز والملح على قيد الحياة. وبما أنه لم يعد يوجد عبيد يصطادون لهم طبخوا الكلاب وأكلوا لحم الأحصنة. كان الجوع أكثر سوءاً من التماسيح والأفاعي والبعوض. التهموا الجذور وقطع الجلد كانوا يتنازعون على لحم الموتى قبل أن يمنحه الكاهن تاشيرة الذهاب إلى الجنة.

أبحروا في النهر. لسعتهم الأمطار ولم تهب ريح لتدفع الأشرعة إلى أن قرّر كويسادا تغيير الاتجاه: «يجب أن تكون «ألدورادو» في الجانب الآخر من الجبال وليس عند منبع النهر». هذا ما قاله لهم. وهكذا ساروا عبر الجبال.

بعد أن تسلّقوا كثيراً يقترب كويسادا من الأودية الخضراء لأمة التشيبشا. على رأس سبعين فزّاعة تأكلها الحمّى. يرفع سيفه ويعلن أنه سيتوقف عن طاعة أوامر حاكمه.

غادر نيقولاس فيدرمان ذو اللحية الحمراء والعينين الزرقاوين كوزكو منذ ثلاثة أعوام ونصف ليبحث عن المركز الذهبي للأرض منطلقاً في رحلة عبر الجبال والسهول. كان أول من مات هنوده ورجاله السود.

حين يصل فيدرمان إلى القمم المكللة بالسحب يشاهد الأودية الخضراء لأمة التشيبشا. بقي معه مائة وسبعون جندياً من الأشباح التي تجرّ أنفسها مغلّفةً بجلود الأيائل. يُقبّلُ فيدرمان سيفه يتّخذ موقعاً ويعلن أنه لن يطيع بعد الآن أوامر حاكمه.

انطلق سيباستيان بينالكازار ذو العينين الرماديتين واللحية التي شيّبها العمر أو غبار الطريق منذ ثلاثة أعوام بحثاً عن الكنوز التي فرّغتها مدينة كوزكو وأحرقتها وحرمته منها. لم يبق من الهنود والأوروبيين الذين ذهبوا معه سوى مائة وستين شخصاً من الأوروبيين المرهقين. هادمْ المدن وبانيها، بينالكازار ترك خلفه قافلة من الرماد والدم وعوالم جديدة ولدت من حدّ سيفه حول المشانق وفي الساحة وحول الكنيسة والمنازل والمتاريس

تتوهج خوذة الغازي على قمة رؤوس الجبال. يتملّك بينالكازار الأودية الخضراء لأمة التشيشيا ويعلن أنه لن يطيع ثانية أوامر حاكمه.

جاء كويسادا من الشمال وجاء فيدرمان من الشرق ومن الجنوب جاء بينالكازار. صليبٌ وبندقيةٌ، سماءٌ وترابٌ: بعد تجوّل مجنون طويل يهبط القُوّاد الثلاثة المتمردون منحدرات الجبال ويلتقون في سهل بوغوتا.

يعرف بينالكازار أن زعماء هذه المنطقة يسافرون على محفّات ذهبية. يسمع فيدرمان الألحان العذبة التي تعزفها النسائم على أغطية الذهب المتدلية في المعابد والقصور. يركع كويسادا على شاطىء البحيرة حيث يعمّد الكهنة المحليون الذين يغطيهم غبار الذهب أنفسهم.

من الذي سيصل إلى ألدورادو؟ كويسيدا الغرناطي الذي يقول إنه وصل إلى هنا أولاً أم فيدرمان الألماني الذي يغزو باسم صاحب البنك فيلزر، أم بينالكازار القرطبي؟

تروز الجيوش الثلاثة المقرّحة الجلد والبارزة العظام قوة بعضها وتنتظر.

ينفجر الألماني ضاحكاً ويلتقط الأندلسي العدوى إلى أن ينهار القوّاد الثلاثة ويسقطون أرضاً من الضحك والجوع ومن السبب الذي جاء بهم إلى هنا، ذلك الذي هو غير موجود والذي جاء دون أن يصل، معرفة أن ألدورادو لن تكون مُلكاً لأحد.

١٥٣٨: بركان مسايا

- إله المال: فولكان -

خرجت من فوهة البركان «مسايا» في أزمنة أخرى عجوز عارية تتقن أسراراً كثيرةً وقدّمت نصائح جيدة عن الذرة والحرب. ومنذ أن وصل المسيحيون ترفض المرأة، كما يقول الهنود أن تغادر الجبل المشتعل.

يعتقد كثير من المسيحيين أن «المسايا» هو فم الجحيم وأن توهجاته ودخانه الناري الأبدي يعلن العقوبات الأبدية. يؤكد آخرون أن هذه السحابة الدخانية الساطعة التي تُرى على بعد خمسين فرسخاً صادرة عن الذهب والفضة اللذين يُصهران وينقّيان ويغليان في بطن الجبل وكلما ازداد تأجج النار ازداد نقاؤهما.

أُعدّ للرحلة منذ عام، يستيقظ الأب بلاس ديل كاستيللو باكراً جداً ويسمع اعترافات بدرو رويز وبينيتو دافيلا وخوان سانشيز. يتوسّل الأربعة طلباً للغفران والدموع تسيل من أعينهم ثم ينطلقون في الصباح.

كان القسيّس هو أولُ من اقترب مرتدياً خوذة وبطرشيلاً[1] على صدره حاملاً صليباً في يده إلى الساحة المستوية الكبيرة التي تحيط بفم اللهب.

يصيح مُسْوَدّاً من الرماد وهو يركز الصليب بين الأحجار: «هذا ليس جحيماً بل جنة». يتبعه رفاقه حالاً. يدلي الهنود من الأعلى بكرة سلاسل ومراجل وعوارض خشبية.

يغطسون المرجل ولايأتي الذهب والفضة من الأعماق لاشيء سوى خبث الكبريت وحين يغطسون المرجل عميقاً يأكله البركان.

---

(١) ـ البطرشيل: نسيجة طويلة يجعلها الكاهن في عنقه وعلى صدره في الخدمة.

١٥٤١: سانتياغودي تشيلي

- آنيز سواريس -

اكتشف بدرو دي فالديفيا هذه الهضبة وهذا الوادي منذ بضعة شهور. سمّى الآروكانيون هذه الهضبة التي اكتشفوها منذ آلاف السنين «هويلين» أي الألم. عمدها فالديفيا باسم لوسيا.

من أعلى الهضبة شاهد فالديفيا التراب الأخضر بين ذراعي النهر وقرّر أنه لايوجد في العالم مكان أجمل من هذا لبناء مدينة للحواريّ سانتياغو الذي يرافق الغزاة ويقاتل من أجلهم. قطع الجوّ بسيفه في الجهات الأصلية التي حددتها البوصلة وهكذا ولدت سانتياغو بحدودها الجديدة. إنها تستمتع الآن بصيفها الأول: بُنِيَتْ بعض المنازل من الوحل والأخشاب وسُقِفَتْ بالقش ومُهدَتْ ساحة في الوسط وأحيطت بسور من القضبان المغروزة.

بقي خمسون رجلاً في سانتياغو. يمكث فالديفيا معهم على ضفة نهر «الكاتشابول». حين يشرق الفجر ينفخ الحارس بوق الإنذار من البرج. تقترب فرق خيالة من السكان الأصليين من الجهات الأربع. يسمع الإسبانيون صرخات الحرب ويسقط عليهم حالاً وابل من السهام.

تتحول بعض المنازل ظهراً إلى رماد ويسقط السور يقاتلون جسداً لجسد في الساحة. تركض آنيز إلى كوخ السجن. هناك يقف الحارس الذي يحرس سبعة من الزعماء الآروكانيين الذين أسرهم الإسبان منذ بعض الوقت. تتوسّل إليه وتأمره أن يقطع رؤوسهم.

- «ماذا؟».

- «رؤوسهم».

- «ماذا..».

- «هكذا».

تقبض على سيفه فتطير أربعة رؤوس في الجو. تحوّل الرؤوس المحاصرين إلى مطاردين. لايستدعي الإسبان القديس سانتياغو فحسب بل سيدتنا التي تقدم المساعدة الجيدة أيضاً.

كانت آنيز سواريس المرأة الملَقية أول من وقّع حين بدأ فالديفيا حملات التطويع في منزله في كوزكو. جاءت إلى هذه الأراضي الجنوبية على رأس القوات الغازية راكبة على حصانها قرب فالديفيا حاملة سيفاً فولاذياً كبيراً مرتدية درعاً من الزرد الرائع ومنذ ذلك الوقت وهي تتقدّم وتقاتل وتنام مع فالديفيا. واليوم أخذت مكانه.

إنها المرأة الوحيدة بين الرجال يقولون إنها مسترجلة. ويقارنونها مع «رولدان» أو «إيل سيد» وتدلك أصابع القائد فرانسيسكو دي آغيري بالزيت. لقد التصقت هذه الأصابع على مقبض سيفه ولايمكن فصلها رغم أن الحرب انتهت.

١٥٤١: صخرة نوشيستلان

- أبداً -

قبضوا حتى على حماره. أولئك الذين يسرقون الآن آنيته الفضية ويدوسون على سجاداته رموه خارج المكسيك بأقدام مغلولة.

بعد عشرة أعوام يستدعي المسؤولون المحارب. يتخلى ألفارادو عن حكم غواتيمالا ويجيء ليطهر هذه الأرض التي فتحها كورتيز من الهنود غير المتنين. يريد أن يتجه شمالاً إلى مدن سيبولا الذهبية السبع، في حمى المعركة يسقط عليه حصان ويرميه عن الجرف.

عاد بدرو آلفارادو إلى المكسيك وفي المكسيك يرقد. تعلق خوذته بغصن ويسقط سيفه بين العلّيق. «*لاتشهرني بدون شرف*»، مايزال يمكن قراءة هذه الجملة على الحدّ الفولاذي.

١٥٤١: مدينة غواتيمالا القديمة

- بياتريس -

تزوّج بدرو آلفارادو من فرانسيسكا إلا أنها ماتت من شاي شربتها في الطريق فتزوج شقيقتها بياتريس.

كانت بياتريس تنتظره في غواتيمالا حين علمت أنها أرملة منذ شهرين. كلّلت بيتها بالسواد من الداخل والخارج وأغلقت الأبواب والنوافذ بالمسامير لتصنع عزلة خاصة تستطيع أن تعبّر فيها عن ألم قلبها.

تبكي وهي تنظر في المرآة إلى جسدها العاري الذي جفّ من الانتظار ولم يعد يمتلك الآن شيئاً ينتظره، هذا الجسد الذي توقف عن الغناء. تبكي من فمها الذي يستطيع أن يقول فقط: «أين أنت يا حبيبي».

تبكي من المنزل الذي تكرهه والأرض التي ليست لها والسنين التي سُفِحَتْ بين المنزل والكنيسة من القداس إلى العشاء من العمادة إلى الدفن محاطة بالجنود السكارى والخدم الهنود الذين يمرضونها. تبكي من الطعام الذي يزعجها ومن أجل الذي لم يأتِ أبداً لأن الحرب قائمة دائماً والغزو مستمر. تبكي من أجل جميع الدموع التي سفحتها وحيدة في فراشها حين تجفل من صياح ديك أو عواء كلب ـ وتعلمت وهي وحيدة أن تقرأ الظلمة وتصغي إلى الصمت وترسم في الهواء. تبكي وتبكي محطمة من الداخل.

حين تخرج من المعتزل تعلن: «أنا حاكمة غواتيمالا».

لاتستطيع أن تحكم طويلاً

يتقيأ البركان شلالاً من الماء والحجارة يغرق المدينة ويقتل كلّ ما يلمسه. يتابع الطوفان تقدمه نحو منزل بياتريس التي تركض إلى الكنيسة وتتجه إلى المذبح وتعانق العذراء. تعانق وصيفاتها قدميها بينما تصرخ بياتريس. «هل أنت هناك ياحبيبي؟».

يدمر الطوفان المدينة التي بناها ألفارادو وبينما هو يزأر بصوت أكثر علواً تستمر بياتريس بالصراخ: «هل أنت هناك؟».

١٥٤١: كابو فريو

- في الفجر، غنّى الجندب -

كان صامتاً منذ أن أصعدوه إلى السفينة في ميناء كاديز. أمضى شهرين ونصفا صامتا وحزيناً في قفصه الصغير واليوم رنّت صرخة فرح من مقدمة السفينة إلى مؤخرتها وأيقظت الجميع.

- «معجزة! معجزة!».

كان يوجد فقط وقت تستطيع فيه السفينة أن تغيّر اتجاهها. كان الجندب يحتفل باقتراب اليابسة. شكراً للجندب الذي أنقذ البحارة من تحطّم مؤكد على صخور الشاطىء البرازيلي.

يمتلك كابيزا فاكا الذي يقود هذه الرحلة خبرة جيدة بهذه المسائل. سمّوه آلفار مجترح المعجزات منذ أن عبر أميركا من شاطىء إلى آخر ليحيي الأموات في القرى الهندية.

١٥٤٢: كويتو

- الدورادو -

خاض رجال غونزالو بيزارو لوقت طويل في عمق الأدغال بحثاً عن الأمير ذي الجلد الذهبي وأيكات القرفة صادفوا ثعابين وخفافيش وجيوشاً من البعوض، مستنقعات وأمطاراً لاتتوقف أبداً. كان البرق يلمع ليلة بعد أخرى ليضيء طريق هذه القافلة من الرجال العراة الذين يرهقهم السُعار.

يصلون بعد الظهر إلى محيط كويتو هياكلَ عظميةً متقرّحةً ويتفوّه كل منهم باسمه ليتمّ التعرّف عليه. لم يعد من هذه الرحلة أربعة آلاف عبدٍ هندي ذهبوا معهم.

يركع القائد غونزالو ويقبّل الأرض. رأى البارحة في حلمه تنّيناً ينقضّ عليه ويمزقه إرباً ويأكل قلبه. وهذا يمنعه من النوم الآن بعد أن نقلوا إليه الأنباء:

«لقد اغتيل شقيقك فرانسيسكو في ليما».

١٥٤٢: كونلابيارا

- الأمازونيات -

لم يكن مسار المعركة سيئاً في هذا اليوم، يوم القديس جون، وسط طلقات البنادق وأقواس النشاب كان رجال فرانسيسكو أوريلانا يفرغون القوارب البيضاء القادمة من الشاطىء. إلا أن السحرة كانوا في الممرّ الحربي. ظهرت المرأة المحاربة فجأة جميلة بشكل فضائحي وشرسة ثم غطّت الزوارق بعد ذلك النهر. هربت السفن عكس التيار كالشّياهم مذعورة مغطاة بالسهام من المقدمة إلى المؤخرة بما فيه الصواري الرئيسية.

كانت هذه المرأة السليطة المشاكسة تضحك وهي تحارب واجهت هؤلاء النسوة العظيمات الجاذبية والجمال الرجال ولم يعد يوجد خوف في قرية كونلابيار. قاتلن وهن يضحكن ويرقصن وصدورهن ترتعش في النسيم إلى أن ضاع الإسبان خلف فم نهر تاباخوس مرهقين من الجهد الكبير ومن الدهشة.

لقد سمعوا حكايات عن هؤلاء النساء وهم يصدقونها الآن. إنهن يعشن في الجنوب في أرض تخلو من الرجال إذا ولد الأطفال ذكوراً يتم إغراقهم، وحين يجوع الجسد يشنون حرباً على القبائل الساحلية يأخذون الأسرى ويعيدونهم في اليوم التالي. بعد ليلة من ممارسة الحب ذلك الذي يذهب شاباً يعود عجوزاً.

سيتابع أوريلانا وجنوده الإبحار في أقوى أنهار العالم ويصل إلى البحر بدون قبطان أو بوصلة أو خريطة. يبحر في المركبين الذين دعماً في وسط الغابة ويندفع عبر نهر الأمازون عبر الأدغال ولايمتلك أحد القدرة على التجديف. يصلون طالبين من الله أن يجعل عدوهم التالي رجالاً مهما كان عددهم.

١٥٤٢: نهر إغوازو

- في وضح النهار -

محترقاً تحت لباسه الحديدي، متألماً من الجراح والعضّ يترجّل آلفار نونيزكابيزا دي فاكا عن حصانه ويرى الله للمرة الأولى.

ترفرف فراشات كبيرة حوله. يركع كابيزا فاكا أمام شلالات «إغوازو». زئير ومياه زبدية تهبط من السماء لتغسل دم جميع القتلى ولتشفي جميع الصحارى. جداول تتحول إلى أبخرة حرة وأقواس قزح تسحب الأدغال من أعماق الأرض الجافة، المياه التي تجأر، منيّ الله، تخصب الأرض، مياه يوم الخلق الأول الأبدي.

عبرَ كابيزا دي فاكا نصف العالم سيراً على الأقدام وأبحر ليعبر النصف الآخر كي يعثر على مطر الله هذا عانى حوادث التحطم والآلام من أجل أن يقابله، ولكي يراه ولد وله عيناه في وجهه. وما سيبقى له من الحياة سيكون هبة.

١٥٣٤: كوباغوا

- صائدو اللؤلؤ -

سقطت مدينة كاديز الجديدة بعد أن دمرها الزلزال البحري والقراصنة. وسابقاً سقطت الجزيرة كلها، جزيرة كوباغوا هذه التي باع فيها كولومبس منذ خمسةٍ وأربعين عاماً الهنود صحوناً مكسورة مقابل اللآلئ. بعد عمليات صيد كثيرة ينفد المحار ويستلقي صيادو اللؤلؤ في قاع البحر.

كان الهنود الأرقاء يجبرون على الغوص في المياه بعد أن تربط صخور على ظهورهم لكي يصلوا إلى الأمكنة التي تتواجد فيها أكبر اللآلئ ومن شروق الشمس إلى شروقها يسبحون دون أن يستريحوا ويجمعون المحار الملتصق بالصخور وفي القيعان.

لم يستمر أي عبد وقتاً طويلاً، لأن الرئة ستنفجر عاجلاً أم آجلاً ويصعد إلى الأعلى جدول من الدم بدل الغوّاص. قال الرجال الذين اصطادوا هؤلاء العبيد أو اشتروهم: «إن البحر أصبح أحمرَ لأن المحار يحيض مثل النساء».

١٥٤٤: ماشو بيتشو

- العرش الحجري -

من هنا هيمن مانكو آنكا على أراضي فيلكا بامبا. من هنا شنّ حرباً طويلةً قاسيةً، حربَ غاراتٍ وحرائق. لايعرف الفاتحون الغزاة المتاهات التي تؤدي إلى القلعة السرية ولايعرف مسالكها أيّ عدو آخر.

استطاع القائد دييغو منديز فقط أن يصل إلى المخبأ. جاء هارباً بعد أن اخترق سيفه حنجرة فرانسيسكو بيزارو بأمر من ابن ألماغرو. منحه مانكو آنكا اللجوء السياسي، إلا أن دييغو مانديز يطعن آنكا بخنجر في ظهره.

بين حجارة ماشو بيتشو حيث تمنح الأزهار المتلألئة العسل لكل من يرويها يرقد الآنكي في ثياب جميلة.

- النشيد الحربي الآنكي -

سنشرب من جمجمة الخائن
ونصنع عقداً من أسنانه
وأبواقاً من عظامه
وطبلاً من جلده
ثم سنرقص.

١٥٤٤: كامبيتش

- لاس كاساس -

ينتظر لبعض الوقت في الميناء مع الحرارة والبعوض. يتجول على رصيف المرفأ حافياً يصغي إلى مدّ البحر وجزره وإلى صوت عكازه على الأحجار. لاأحد لديه كلمة يقولها لهذا الأسقف الذي كُرِّس حديثاً في شياباس.

هذا هو الرجل المكروه جداً في أميركا والذي يعتبره الأسياد والمستعمرون ضدّ المسيح وبلاء هذه الأراضي. إنه مسؤول عن تطبيق قوانين الإمبراطور الجديدة التي تمنع أبناء المستعمرين من اقتناء العبيد الهنود. ماالذي سيحدث لهم دون الأيدي التي تغذيهم في المناجم والمزارع؟ إن القوانين الجديدة تأخذ الطعام من أفواههم.

إنه الرجل المحبوب جداً في أميركا وصوت من لاصوت لهم والمدافع العنيد عن أولئك الذين يتلقون معاملة سيئة أكثر من الروث المكوّم في الساحات، الذي يشجب الذين يحولون المسيح إلى أكثر الآلهة قسوة والملك إلى ذئب جائعٍ للحم البشر.

حالما وصل إلى كامبيشي أعلن بارتولومي دي لاس كاساس أن أي مالك للهنود لن يُغفر له في الاعتراف. أجابوه أن أوراق اعتماده كأسقف لاقيمة لها كالقوانين الجديدة لأنها جاءت مطبوعة وليست مكتوبة بخط ناسخ الملك. هدّدهم بالحَرْم الكنسي فضحكوا. تعالى زئير ضحكهم لأنه كان من المعروف أن فراي بارتولومي أصم.

في ذلك المساء وصل مبعوث من مدينة شياباس الملكية. أرسلت حكومة المدينة تقول إنه لايوجد شيء في خزائنها لتمويل رحلة الأسقف إلى أبرشيته، أرسلت له بعض القطع النقدية من النقود المخصصة لعمليات دفن الموتى.

١٥٤٤: ليما

ـ كارفاجال ـ

يمنح ضوء الفجر شكلاً ووجهاً للظلال التي تتدلى من مصابيح الساحة. يتعرّف أحد المستيقظين باكراً بخوف على فاتحين من العهد القديم من أولئك الذين أسروا آتاهوالبا في كاجمركا يتأرجحان بلسانين ناتئين وأعين جاحظة.

قرع طبول وأصواتُ حوافر: تثب المدينة مستقيظة. يصيح منادي القرية ملء رئتيه وإلى جانبه فرانسيسكو كارفاجال يملي ويصغي يعلن المنادي أن جميع أرستقراطيي ليما الرئيسيين سيشنقون مثل هذيْن الإثنين إذا لم يقبل المجلس تعيين غوانزليس بيزارو حاكماً. ولقد حدّد كارفاجال القائد الميداني للتمرد الظُهْر كآخر موعد لذلك.

«كارفاجال!».

قبل أن يتلاشى الصدى ارتدى قضاة المحكمة الملكية وبعض أعيان المدينة بعضاً من ثيابهم وانطلقوا بشكل فوضوي إلى القصر ووقّعوا دون أي نقاش الأمر الذي جعلَ غونزاليس بيزارو صاحب سلطة مطلقة.

إلا أن الأمر كان يحتاج إلى توقيع المحامي «زاراتي» الذي مسّد رقبته وتردّد بينما كان الآخرون ينتظرون منبهرين ومرتجفين يسمعون أو يظنون أنهم يسمعون لهاث الجياد ولعنات الجنود الذين احتلوا الميدان والمتلهفين للهجوم.

توسّلوا إليه: «تحرّك بسرعة».

يفكّر «زاراتي» بالمهر الذي تركه لابنته العازبة تيريزا وتقدماته الكريمة للكنيسة التي تملك أكثر مما دفع من أجل حياة أكثر هدوءاً من هذه.

ـ «ماذا ينتظر حضرتكم».

ـ «إن صبر كارفاجال قصير».

خاض كارفاجال أكثر من ثلاثين حرباً في أوروبا وعشر حروبٍ في أميركا. قاتل في رافينا وبافيا وكان موجوداً أثناء نهب روما. قاتل مع كورتيز في المكسيك ومع فرانسيسكو بيزارو في البيرو وعبر سلسلة الجبال ست مرات.

«شيطان الآنديز».

إنه عملاق يُعرف عنه أنه ينزع الخوذة والدرع في وسط المعركة ويعرض صدره. إنه يأكل وينام على حصانه.

ـ «هدوءاً ياسادة هدوءاً».

ـ «سيتدفّق الدم البريء».

- «لايوجد وقت نضيّعه».

تخيّم ظلال المشنقة على ألقاب النبالة التي حُصل عليها حديثاً.

- «وقّع ياسيدي. دعنا نتجنب مآسي أخرى للبيرو».

يغمس زارتي ريشة الأوزة، يرسم صليباً وتحته يخطّ قبل أن يوقّع: «أقسم بالله وبهذا الصليب وبكلمات القدّيسين المبشرين أنني أوقع لثلاثة أسباب: الخوف ثم الخوف ثم الخوف».

١٥٤٥: مدينة شياباس الملكية

- الأنباء السيئة تأتي من فالادوليد -

ألغى التاج مفعول القوانين الجديدة الهامة التي تعتق الهنود. من لاحظ أنها طُبّقت حين كانت سارية المفعول لمدة ثلاثة أعوام؟ واقعياً حتى الهنود الذين وضعت عليهم علامة الحرية استمروا عبيداً.

- «من أجل هذا قالوا لي إنني على حق؟».

يشعر فراي بارتولومي أن الله تخلى عنه وأصبح ورقة لاتستند على غصن ووحيداً.

«قالوا لي نعم بحيث لايتغيّر أي شيء والآن حتى ورقة لن تحمي الذين لايمتلكون درعاً سوى أحشائهم. هل تلقّى الملوك العالم الجديد من البابا من أجل هذا؟ هل الله مجرّد حجّة؟ أيأتي ظل الجلّاد من جسدي؟».

مغطّى بشرشف، يكتبُ رسالةً إلى الملك فيليب يعلن فيها أنه سيزور «فالادوليد» دون أن ينتظر أذناً من أحد.

ثم يركع على الأرض مواجهاً الليل ويصلي صلاة ابتكرها لنفسه بصوت مرتفع.

١٥٤٦: بوتوسي

- فضة بوتوسي -

قُتل خمسون هندياً لأنهم رفضوا أن ينقبوا عن الفضة. قبل أقلّ من عام على اكتشاف العرق الأول صُبغَتْ منحدرات الجبال بالدم البشري، وعلى بعد فرسخ من هنا تظهر على صخور الوهاد البقع الخضراء المسوّدة لدم الشيطان. أغلق الشيطان بإحكام الوادي الضيّق الذي يؤدي إلى «كوزكو» وحطّم الإسبان الذين مروا من ذلك الطريق. أخرج ملاك كبير الشيطان من كهفه وحطّمه على الصخور. والآن كثر العمل في مناجم فضة بوتوسي وفتح الطريق إليها.

قبل الغزو وفي أيام الآنكا «هواينا كاباك» حين كانت المعاول تحفر في شرايين الجبل الفضّية، هز العالم زئير مخيف ثم قال صوت الجبل للهنود: «*سيكون لهذه الثروة ملّاك آخرون*».

١٥٤٧: فالباريسو

- الفراق -

يطنّ الذباب فوق بقايا الوليمة. لاتساعد الخمرة كلها ولاحرارة الشمس السكارى على النوم. القلوب تخفق بسرعة هذا الصباح في ظل الشجرة التي تواجه البحر. يوّدع بدرو فالديفيا الذين هم على وشك أن يغادروا. بعد الحرب الطويلة والجوع في براري تشيلي سيعود خمسة عشر شخصاً من رجاله إلى إسبانيا. تنحدر دمعة على خد فالديفيا حين يتذكر الأعوام المشتركة، المدن التي احترقت بلا سبب، الهنود الذين أخضعتهم رماح الإسبان الحديدية.

يقول كلمات تبعث الدفء: «إن عزائي الوحيد هو معرفة أنكم ستستريحون وتستمتعون بما تستحقونه وهذا على الأقل يهدىء حزني قليلاً».

كانت الأمواج تهدهد السفينة التي ستأخذهم إلى البيرو في مكان قريب من الشاطىء. من هناك سيبحرون إلى إسبانيا عبر بنما، إلى البحر الآخر وبعد ذلك... ستكون رحلة طويلة إلا أن تمديد الأرجل. يجعل المرء يشعر وكأنه يمشي على أرصفة ميناء سيفيل. حُمّل الذهب والأغراض الأخرى والثياب على السفينة منذ البارحة. سيأخذ الناسخ خوان بينل معه ثلاثة آلاف بيزو ذهباً من تشيلي.. تبع فالديفيا كظله حاملاً أوراقه وقلمه ومحبرته شاهداً على كل خطوة خطاها ومنحَ قوة القانون لكل فعل قامَ به. هدّدهم الموت مرات عديدة. ستفعل هذه الثروة الصغيرة أكثر من تسوية الموقف لبناته المراهقات اللواتي ينتظرنه في إسبانيا البعيدة.

كان الجنود يحلمون بصخب حين قفز شخص ما وصرخ: «أين فالديفيا؟».

كان فالديفيا يتضاءل وهو يجذف مبتعداً في القارب الصغير متجهاً نحو السفينة المحمّلة بذهب الجميع.

كانت اللعنات والتهديدات تحجب صخب الأمواج على شاطىء فالباريسو.

كانت الأشرعة ترتفع وتتحرك في اتجاه البيرو. يريد فالديفيا أن يصبح حاكم تشيلي و يأمل بأن يُقْنِع القادة في ليما بالذهب الذي يحمله معه وبقوة ذراعه.

يُمْسِك الناسخ (خوان بينل) رأسه وهو جالس على صخرة غير قادر على التوقف عن الضحك. بناته سيمتن عذراوات في إسبانيا. يبكي بعض الرجال وقد أصبح لونهم قرمزياً من الغضب بينما يعزف البوّاق آلونزو دي توريس لحناً نشازاً قديماً ثم يحطم البوق الذي كان كلّ ما ترك له.

- أغنية الحنين -

من كتاب الأغاني الإسباني

أنا مشتاق إليكِ
أيتها البلاد التي أرضعتني.
وإذا كنت سأموت منحوساً
ادفنيني عالياً في الجبال
كي لا يفقد جسدي القبور
البلاد التي أشتاق إليها كثيراً.
ادفنيني عالياً قدر ما تتحملين
لأرى إذا كنت أقدر أن أشاهد من هناك.
البلاد التي ذرفت من أجلها دمعة.

١٥٤٨: هاكوي هاكوانا

- انتهت معركة هاكوي هوكوانا -

غونزالو بيزارو الذي يُعْتَبَرُ أفضل رمّاح في أميركا والذي يستطيع أن يشقّ بعوضةً وهي تطير بطلقة بندقية أو سهم يسلّم سيفَه إلى بدرو ديلاكاسكا.

ينزع بدرو درعه المصنوع من الفولاذ الميلانـي ببطء. يُرْسَل لاكاسكا في مهمة لقصّ جناحيه ويتوقّف زعيم المتمردين عن حلمه بأن يصبح ملكاً على البيرو. إنه يحلم فقط بأن يعفو عنه لاكاسكا.

يدخل بدرو دي فالديفيا إلى خيمة المنتصرين بعد أن حاربت المشاة تحت أوامره.

يقول كاسكا: «إن شرف الملك في يديك أيها الحاكم»

كانت هذه هي المرة الأولى التي يدعوه فيها ممثّل الملك حاكماً لتشيلي. يشكره فالديفيا بانحناءة كان هناك أشياء أخرى سيطلبها ولكن حين فتح فمه ليتكلم دخل الجنود محضرين القائد الثاني لغونزالو بيزارو. يدخل القائد كارفاجال حاملاً خوذته المريّشة بشكل يلفت النظر ولايجرؤ آسروه على لمسه.

كان كارفاجال هو الضابط الوحيد الذي لم يتخلّ عن بيزارو حين عرض لاكاسكا إعفاء الملك عن المتمردين الذين يعلنون توبتهم. انتقل ضباط وجنود كثيرون بسرعة مع أحصنتهم إلى المعسكر الآخر. بقي كارفاجال وقاوم إلى أن جرّدوه من حصانه.

قال دييغو سينتينون، قائد الجنود المنتصرين: «كارفاجال، لقد سقطت بشرف ياكارفاجال».

لاينظر إليه العجوز.

يقول سينتينون وهو يمد يده ليتلقى سيفه: «هل تتظاهر بأنك لاتعرفني؟».

يجيب كارفاجال الذي هزم سينتينون أكثر من مرة ودفعه إلى الهرب وطارده عبر نصف البيرو: «أعرفك من ظهرك فقط».

ثم يعطي سيفه لبدور دي فالديفيا.

١٥٤٨: هاكوبي هاكوانا

ـ الجلّاد ـ

يصل كارفاجال مقيداً بالحبال والأغلال داخل سلة كبيرة تجرّها البغال. وسط سحب الغبار وصرخات الكراهية يغني المحارب القديم. يخترق صوته الأجش صخب الشتائم، متجاهلاً الرفسات وضربات أولئك الذين صفقوا له البارحة ويبصقون اليوم في وجهه.

يالها من خرافة!

طفلٌ في مهد

عجوز في مهد

يالها من خرافة!

يغني في السلّة التي تجعله يتخبّط. حين تصل البغال إلى الساحة يرمي الجنود كارفاجال عند قدمي الجلاد. يزأر الحشد حين يشهر الجلاد سيفه ببطء.

يطلب كارفاجال: «أيها الأخ جوان، بما أننا اشتغلنا في نفس التجارة عاملني كما يعامل خياط خياطاً آخر».

خوان انركويز هو اسم الشاب اللطيف الوجه. كان له اسم آخر في سيفيل حين كان يتجول على رصيف المرفأ حالماً بأن يكون جلاّد الملك في أميركا. يقولون إنه يحب هذه المهنة لأنها تزرع الخوف ولايوجد سيدٌ مهم أو محاربٌ عظيم لايتنحى جانباً حين يمرّ قربه في الشارع. يقولون أيضاً إنه منتقم محظوظ. إنهم يدفعون له ليقتل ولايصدأ سلاحه أبداً ولاتتلاشى ابتسامته:

الجدّ المسكين!

الجدّ المسكين!

يطنّ صوت كارفاجال منخفضاً وحزيناً لأنه تذكر لتوه حصانه بوسكانيللو الذي هو أيضاً عجوز مهزوم، تذكر كيفَ كانا يفهمان بعضهما.

يمسك خوان إنركويز لحيته بيده اليسرى وباليمنى يقطع رأسه بضربة واحدة.

يشتعل التصفيق تحت الشمس الذهبية.

يرفع الجلاد رأس كارفاجال الذي كان يبلغ الرابعة والثمانين من العمر والذي لم يغفر أبداً لأي شخص.

١٥٤٨: هاكوي هاكوانا

- حول أكل لحوم البشر في أميركا -

منذ أن حضر فرانسيسكو بيزارو مرتدياً ثياب الحزن جنازة ضحيته آتاهوالبا نجح عدة رجال في قيادة المملكة الآنكية الواسعة الأرجاء وفرض القوة عليها.

ثار دييغو دي ألماغرو الذي كان يحكم جزءاً من تلك الأرض ضدّ فرانسيسكو بيزارو حاكم الجزء الآخر. أقسم الإثنان بخبز القربان المقدّس بأنهما سيتقاسمان الألقاب والهنود والأراضي دون أن يأخذ أحدهما أكثر من الآخر. كان بيزارو يريد هذا التمرد فانتصر عليه وقطع رأسه.

انتقم ابن ألماغرو لأبيه وعيّن نفسه حاكماً على جثة بيزارو، إلى أن أرسله إلى المشنقة كريستوبال فاكادي كاسترو الذي مرّ ذكره في التاريخ على أنه الشخص الوحيد الذي نجا من المشنقة أو البلطة أو السيف.

ثار فيما بعد غونزالو بيزارو شقيق فرانسيسكو ضدّ بلاسكو نونيز فيلا ــ النائب الملكي الأول للبيرو. سقط نونيز فيلا عن حصانه مصاباً بجرح بليغ. قُطع رأسه وعُلّق على رمح.

كان غونزالو بيزارو على وشك أن يعيّن نفسه ملكاً. يهبط في يوم الإثنين، التاسع من نيسان، المنحدر الذي يؤدي إلى الساحة راكباً على بغل. أوثقوا يديه خلف ظهره ورموا عليه رداءً أسود ليغطي وجهه ويمنعه من أن يشاهد جسد فرانسيسكو كارفاجال الذي يخلو من الرأس.

١٥٤٨: كوانا جواتا

- ولادة مناجم كوانا جواتا -

- «سلام الله عليك ياأخي!»

- «وعليك السلام أيها المسافر».

تبادل الرجلان الراكبان على ظهر بغلين والقادمين من مدينة المكسيك التحية وقررا أن يتوقفا ليستريحا. خيّم الليل. أولئك الذين ينامون نهاراً يراقبونهما من الظلال.

- «أليس هذا جبل كيوبيليت؟».

- «بوسعك أن تسميه جبل الملعون».

سيذهب مايبيس بدرو ومارتن رودريغو إلى زاكاتيكاس ليبحثا عن ثروة في المناجم. أحضرا معهما ما يمتلكانه وبعض البغال ليبيعوها بسعر جيد. سينطلقان إلى وجهتيهما عند بزوغ الفجر.

يجمعان بعض الأغصان فوق موضع توجد فيه أعشاب جافة ويحيطونها بالأحجار حين يضرب الصوان الفولاذ تنقدح الشرارة وإلى جانب النار يروي راكبا البغلين قصصهما عن حظهما السيء وبينما هما مستغرقان في ذلك مغلفين بالثياب الرّثة والحنين يصرخ أحدهما: «إنها تشع؟».

ـ «ماذا؟».

ـ «الأحجار».

يقفز مارتين رودريغوفي في الجو مشكلاً نجمة خماسية قذرة إزاء السماء التي يضيئها القمر بينما يكسر مايييس بدرو أظافره على الصخور الحارة ويحرق شفتيه وهو يقبّلها.

١٥٤٩: لاسيرينا

ـ العودة ـ

يرسي بدرو دي فالديفيا في كوينتيرو وتفاجئه حالاً الرائحة الأسيدية للجيف.

حمل فالديفيا في البيرو وزناً يساعده على تجنب المصائد وتجاوز الشكوك والأعداء. برهنت قوة ذراعه التي وضعت في خدمة الملك بالإضافة إلى توهج الذهب الذي سرقه من رجاله على شاطىء فالباريسو أنها بليغة جداً للرجال القادة في ليما. يعود بعد عامين حاملاً لقب حاكم تشيلي موقعاً ومختوماً. يلتزم أن يعيد الذهب إلى آخر غرام منه ويلتزم التزاماً آخر يأكل قلبه. بما أنه مُنح لقبه الجديد يجب أن ينهي علاقته مع آنيز سواريز ويحضر زوجته الشرعية من إسبانيا.

لاتستقبله تشيلي بابتسامة: في مدينة لاسيرينا هذه التي عمّدها باسم مسقط رأسه يستلقي الإسبان مقطوعي الأيدي والرؤوس بين الدمار. إن قصص حياته الساحرة لاتهمّ العقبان.

ـ المرة الأخيرة ـ

يظهرُ خط متموج في الضباب الأسود عند بزوغ الفجر ويفصل الأرض عن السماء.

تخلص آنيز التي لم تنم، نفسها من ذراع فالديفيا وتستلقي على مخدتها. لقد شبعت منه وتنبض كل زاوية صغيرة من جسدها بعنفوان الحياة، تنظر إلى يدها في الضوء الضبابي الأول، تخيفها أصابعها: إنها تشتعل. تبحث عن الخنجر. ترفعه. فالديفيا نائم ويشخر. يتردّد الخنجر في الجو فوق الجسد العاري.

تمرّ قرون.

أخيراً تخبىء الخنجر داخل المخدة بهدوء قرب وجهه. تخرج على رؤوس أصابع قدميها من الفراش محولة امرأة الفراش إلى امرأة حرة.

١٥٥٢: فالآدوليد

- الذي كان يتلقى الأوامر دائماً يصدرها الآن -

تُقبّل المرأة سبيكة الفضة بشفتيها، بجبهتها، بثدييها بينما يقرأ الكاهن بصوت مرتفع رسالة من زوجها خوان برييتو مؤرخة في بوتوسي. احتاجت الرسالة والسبيكة عاماً كاملاً تقريباً لتعبر المحيط وتصل إلى فالآدوليد.

يكتب خوان برييتو أنه بينما كان الآخرون يمضون وقتهم في البارات وحلبات مصارعة الثيران، لم يُمْض وقته في البارات أو ساحة مصارعة الثيران، وأن الرجال في بوتوسي يضعون أيديهم على سيوفهم عند أدنى إثارة وأنه يوجد عواصف رملية تخرب الملابس وتجنن الروح، وأنه لايفكر سوى بالعودة إلى إسبانيا وأنه يرسل سبيكة الفضة الكبيرة من أجل بناء حديقة ليتم فيها حفل استقباله حين يعود إلى الوطن.

يجب أن يكون للحديقة بوابة حديدية مزدوجة وقوس حجري عريض يُمكّن المدعوين إلى الحفلة من الدخول بعرباتهم ويجب أن تُسوّر الحديقة بحائط مرتفع دون أية فتحة وأن تمتلأ بالأشجار والأزهار والأرانب والحمام ويجب أن تنصب طاولة كبيرة في الوسط تزوّد بالأطعمة لأرستقراطيي فالآدوليد الذين اشتغل لديهم سابقاً كخادم. يجب أن تفرش سجادة على العشب قرب رأس الطاولة لتجلس عليها زوجته وابنته سابينا.

يؤكد لزوجته بشكل خاص ألا تشيح بصرها عن سابينا وأن تمنع حتى الشمس عن لمسها وذلك لأنه سيمنحها مهراً عالياً ويزوّجها زواجاً حسناً ولهذا السبب أمضى كل تلك السنين في الآنديز.

١٥٥٣: ضفة نهر سان بدرو

- ميغيل -

التصقت قطع كثيرة من جلده بالسوط. اتهموه بالتباطؤ في العمل أو بفقدان إحدى الأدوات، قال مراقب العمال: «ليدفع من جسده». وحين كانوا على وشك تقييده من أجل لسعات سوط أخرى حمل ميغيل سيفاً وفرّ إلى الغابات.

فرّ عبيد آخرون من مناجم بورما وانضمّ بعض الهنود إلى الهاربين. هكذا ولد الجيش الصغير الذي هاجم العام الماضي المناجم ومدينة باركو يزيميتو الجديدة.

ثم توجّه المتمردون إلى الجبال وبعيداً عن كل شيء أسّسوا مملكة حرة على ضفاف النهر. صبغ هنود «الجيرايجارا» أنفسهم باللون الأسود من رؤوسهم إلى أقدامهم وسوية مع الأفارقة عيّنوا «ميغيل» ملكاً.

تتنقل الملكة «غيومار» بروعة بين أشجار النخيل وتصدر تنورتها الجميلة المصنوعة من البروكار حفيفاً. ترافقها وصيفتان ترفعان طرف لباسها الحريري.

جالساً على عرشه الغابي يأمر ميغيل بحفر الخنادق وبناء الأسيجة يُنَصِّب مسؤولين ووزراء ويعيّن رجاله الأكثر معرفة أساقفة.

يقول «ميغيل» حين يسوي أحد رجال الحاشية طوقه المخرّم، ويبسط آخر أكمام سترته العسكرية: «مملكتي مستديرة ومروّية».

كان الجنود الذين سيقتلون ميغيل ويزيلون مملكته يُجَهِّزُون في «توكويو» تحت قيادة دييغو دي لوسادا. سيجيء الإسبان مسلحين بالبنادق والكلاب وأقواس النشّاب. سيفقد السود والهنود الذين يبقون على قيد الحياة آذانهم أو سَيُخصَون وتقطع أوتار أقدامهم ليكونوا عبرة لكل فنزويلا.

- حلم بدرو دي فالديفيا -

يرفرف ضوء المشاعل في الضباب. يعلو صوت المهاميز التي تقدح الشرر من الرصيف على أرض استعراض ليست في تشيلي ولا في أي مكان آخر. في الرواق، صف من نبلاء الحاشية، أردية سوداء طويلة وسيوف مشدودة إلى الخصور وقبّعات مريّشة. حين يعبر بدرو دي فالديفيا يركع كل واحد من الرجال وينزع قبعته. حين يزيلون قبعاتهم، يزيلون رؤوسهم معها.

١٥٥٣: توكابل

- لوتارو -

ضربت حمى الحرب كلّ مكان في تشيلي.

على رأس الآروكانيين تتموج العباءة الحمراء «لكوبوليكان»، العملاق الذي يستطيع أن يقتلع شجرة من جذورها.

يهجم الفرسان الإسبان. ينفتح جيش كوبوليكان كمروحة، يجعل الفرسان يدخلون، يطبق الفكّين ويلتهمهم من الجانبين.

يرسل فالديفيا كتيبة ثانية فتتبعثر أمام جدار آلاف الرجال. عندئذ يهاجم مع أفضل جنوده. يهجم بسرعة كبيرة، صارخاً حاملاً رمحاً بيده وينهار الآروكانيون أمام هجومه البرقيّ.

في هذه الأثناء، وعلى رأس الهنود الذين يخدمون الجيش الإسباني، ينتظر لوتارو إلى جانب تلّ.

- «أي نوع من الجبن هذا؟ أيّ عار يلحق ببلادنا؟».

كان لوتارو حتى هذه اللحظة خادم فالديفيا. في ومضة غضب يعلن الولاء ويختار الخيانة. ينفخ بالمزمار المعلق على صدره ويشنّ هجوماً بسرعة كبيرة. يفتح ممراً إلى اليمين واليسار بالضربات، يشق الدروع ويجبر الخيول على الركوع، إلى أن يصل إلى فالديفيا فيحدق به في عينيه ويسقطه.

لم يصل بعد إلى سن العشرين هذا القائد الجديد للآروكانيين.

١٥٥٣: توكابيل

ـ فالديفيا ـ

تقام حفلة حول شجرة القرفة.

يراقب المهزومون الذين يرتدون ثياب الأسود رقصات المنتصرين الذين يرتدون الخوذ والدروع. يرتدي لوتارو ثياب فالديفيا، السترة الخضراء المطرزة بالذهب والفضة، الدرع المشعّ، والخوذة ذات المقدمة الذهبية المرصّعة بالزمرّد والريش الرشيق.

يودّع فالديفيا العالم عارياً.

لم يخطىء أحد. هذه هي الأرض التي اختار فالديفيا أن يموت فيها منذ ثلاثة عشر عاماً حين غادر «كوزكو» يتبعه سبعة إسبان على ظهور الأحصنة وألف هندي على الأقدام. لم يخطىء أحد سوى «دونا مارينا» الزوجة التي تركها خلفه في استريمادور، والتي قرّرت بعد عشرين عاماً أن تعبر المحيط وهي الآن على ظهر سفينة مع حاشية تليق برتبتها كزوجة حاكم، مع عرش فضي وفراش مخملي أزرق وسجّاد وكل بطانتها من الأقرباء والخدم.

يفتح الآروكانيون فم فالديفيا ويملأونه بالخراء. يجبرونه على بلع الخراء حفنة إثر حفنة. يملأون جسمه بالتربة التشيلية حين يقولون له: «تريد الذهب؟ كل الذهب. أتخم نفسك بالذهب».

١٥٥٣: بوتوسي

ـ الحسناء ورئيس البلدية ـ

لوكان يوجد في بوتوسي مستشفى ومرّت أمام الباب سيشفى المرضى. إلا أن هذه المدينة، أو مجموعة البيوت، التي ولدت في أقل من ستة أعوام لاتملك مشفى.

نما معسكر المناجم بجنون ويحتوي الآن عشرين ألف روح. في كل صباح ترفع سقوف جديدة من قبل مغامرين يجيئون من كل مكان، يدفشون ويطعنون بعضهم بحثاً عن ثروة سهلة. لايبحث أحد في شوارعها الترابية عن فرصة بدون سيف ودرع جلدي ومحكوم على النساء أن يعشن وراء المصاريع والأقل دمامة بينهنّ يجازفن مجازفة خطيرة وبينهن، ليس هناك بديل للحسناء ـــ التي هي عانس قبل أي شيء ـ إلا أن تعزل نفسها عن العالم. تظهر فقط عند بزوغ الفجر لحضور القدّاس ومعها مرافقة كبيرة، لأن مجرّد رؤيتها تجعل أي شخص يتوق إلى ابتلاعها إما بلقمة واحدة أو رشفة بعد أخرى وتجعل الذين يحملون سلاحاً بيد واحدة يصفقون.

شاهدها رئيس بلدية المدينة دون دييغو دي إسكيفال. يقولون لهذا السبب يخرج بابتسامة عريضة وكل العالم يعرف أنه لم يبتسم منذ ذلك اليوم البعيد في طفولته حين آذى عضلات وجهه وهو يحاول ذلك.

ـ رجل أعمى يغني لها
تلك التي تنام وحيدة
على ألحان الأرغن اليدوي ـ

سيدتي

لماذا تنامين وحيدة

حين يكون بوسعك النوم مع شاب

يرتدي بنطالاً

أزراره مصقولة،

وسترة

بعرى فضّية؟

في الأعلى

يوجد شجرة زيتون خضراء

وفي الأسفل

شجرة برتقال خضراء

وبينهما شحرور

يمصّ قطعة سكّر

١٥٥٣ : بوتوسي.

- رئيس البلدية والشاب الشجاع -

يقول أحدهم: «لا تنم وحيداً نم مع هذه المرأة». ثم يشير إليه. ما تفضله الفتاة هو جندي يتميز بمشية رائعة ويوجد عسل في عينيه وصوته. يقاوم دون دييغو يأسه وينتظر فرصته.

تجيء الفرصة في إحدى الليالي، في إحدى مقامر بوتوسي على يد راهب قامر بما يحويه إناؤه التسوّلي. يقطف مقامر ماهر نصّاب ثمار جهده حين يخفض الخاسر ذراعه ويسحب خنجراً من تحت ردائه ويطعن يد الرجل ويثبتّها على الطاولة. يقفز الشاب الشجاع الذي كان هناك بدافع الفضول ويشترك في المشاجرة. يتمّ اعتقال الجميع.

كان على رئيس البلدية دون دييغو أن يقرّر المسألة. يواجه الشاب الشجاع ويقدم له عرضاً: «إما أن يدفع غرامة أو يعاقب».

- «لا أستطيع أن أدفع غرامة. أنا فقير. إلا أنني أنحدر من دم نقي ونسب شريف».

يقرر ريئس البلدية: «إثني عشر جلدة لهذا الأمير».

يحتجّ الجندي: «أتفعل هذا مع جندي إسباني؟».

يقول دون دييغو وهو يجلس مستمتعاً بالجلد: «قل هذا لأذني الأخرى لأن هذه لا تصدق ذلك».

حين يحلون وثاقه يهدّد العاشق الذي جلد: «سأنتقم من أذنيك هاتين أيها السيد رئيس البلدية. سأعيرهما لك لمدة عام، يمكنك أن تستخدمهما طوال هذه الفترة وبعد ذلك ستصبحان ملكي».

١٥٥٤ : كوزكو

- رئيس البلدية والأذنان -

منذ أن هدّده الشاب الشجاع ودون دييغو يتحسّس أذنيه كل صباح حين يستيقظ ويفحصهما في المرآة. اكتشف أن أذنيه تنموان حين تكونان سعيدتين وأن البرد والغمّ يجعلهما تتقلّصان أما النظرات والافتراءات فترفع حرارتهما إلى أن تحمرّا ــ تتحركا بيأس كالطيور في الأقفاص حين تسمعان صرير حد فولاذي أثناء شحذه.

ولكي يضمن سلامتهما يأخذهما إلى كوزكو يرافقه حرس وعبيد طوال الطريق.

وفي أحد أيام الأحد يغادر دون دييغو الكنيسة بعد القدّاس بطريقة تدل على الإستعراض أكثر مما تدل على المشية الطبيعية، يتبعه طفل أسود حاملاً وسادة صلاته. فجأة تنظر عينان إلى أذنيه باستهداف واضح ثم يلمع رداء أزرق ويختفي في الحشد.

تشعر أذناه بالألم.

١٥٥٤: ليما

- رئيس البلدية ومُحَصِّل الدَّيْن -

ستقرع أجراس الكاتدرائية بعد قليل معلنة منتصف الليل. ستحّدد عاماً على مرور تلك الحادثة الغبية التي أجبرت دون دييغو على الانتقال إلى «كوزكو» ومن ثمّ إلى ليما.

يؤكد دون دييغو للمرة الألف أن الأبواب موصده وأن الحرّاس الذين يحرسون حتى السقف لم يناموا. فتّش بنفسه المنزل زاوية بعد أخرى دون أن ينسى حتى كومة الحطب في المطبخ سيقيم حفلة عاجلاً.

ستقام حفلة تنكرية ومصارعة ثيران ومبارزات وألعاب نارية وسيشوى الدجاج بالسّفود على النار وستفتح براميل الخمرة. سيرهق دون دييغو عيني ليما. سيجّرب في الحفلة عباءته الدِمَقْسية وجواده المطهم ذا السرج المخملي الأسود المطرّز بالذهب الذي ينسجم مع غطاء السرج القرمزي المزركش.

يجلس منتظراً قرع الأجراس. يعدّها ثم يسحب نفساً عميقاً.

يرفع عبد الشمعدان ويضيء طريقه المفروش بالسجاد الذي يؤدي إلى غرفة النوم. ينزع عبد آخر صدرته وحذاءه الذي يبدو كالقفاز وجوربه الأبيض المخرّم. يغلق العبدان الباب ويذهبان إلى موقعهما ليحرسا إلى الصباح.

يطفىء دون دييغو الشموع ويدفن رأسه في الوسادة الحريرية الكبيرة وللمرة الأولى طيلة عام واحد ينام نوماً عميقاً لا يشوبه قلق.

فيما بعد، بدأت بدلة الدرع التي تزيّن زاوية غرفة النوم بالتحرك. يتقدّم الدرع في الظلمة حاملاً سيفاً في يده، نحو الفراش ببطءٍ شديد.

١٥٥٤: مدينة المكسيك

- سيبولفيدا -

يقرّر مجلس مدينة المكسيك، قِشْدَة النبالة الاستعمارية أن يرسل إلى خوان غينيز دي سيبولفيدا مئتي بيزو ذهباً تقديراً لخدماته وليشجّعه في المستقبل.

ليس سيبولفيدا الإنسانوي، طبيباً وكبيراً للكهنة فحسب، إنه مؤرخ وكاهن تشارلز الخامس ويتألّق في عمله كما تشهد على ذلك ثروته المتصاعدة. يعمل في البلاطات كوكيل دعاية متحمّس جداً لمالكي الأراضي الأميركية والهندية.

في ردّه على تأكيدات بارتولومي ديلاس كاساس، يؤكد سيبولفيدا أن الهنود عبيد بالفطرة، استناداً إلى إرادة الله، وأن النصوص المقدّسة تحتوي على أمثلة تعفي غير العادلين من العقاب. وحين يقترح لاس كاساس أن يتعلم الإسبان لغة الهنود وأن يتعلم الهنود لغة قشتالة يجيب سيبولفيدا أن الفرق بين الإسبان والهنود، هو نفس الفرق بين الذكر والأنثى، وتماماً مثل الفرق بين الإنسان والقردة. مايدعوه لاس كاساس : إساءة استعمال السلطة ، والجريمة يعتبره سيبولفيدا نظاماً شرعياً للهيمنة، ويمدح فنون اصطياد أولئك الذين ولدوا ليطيعوا ويرفضون العبودية.

الملك الذي ينشر انتقادات لاس كاساس يحظر أطروحة سيبولفيدا حول الأسباب العادلة للحرب الإستعمارية. يقبل سيبولفيدا الحظر مبتسماً ودون احتجاج في التحليل الأخير الواقع أكثر قوة من الضمير السيء، وهو يعرف جيداً مايعرفه جميع أولئك الحكام في قلوبهم: إن مايبني الإمبراطوريات هو رغبة جمع المال وليس رغبة ربح الأرواح.

١٥٥٦ : آسنسيون، البارغواي

- فاتحون -

حملوا الحطب، والجرحى على ظهورهم. عاملت النساء الرجال وكأنهم أطفال. قدمت لهم الماء العذب، والعزاء، وخيوط العنكبوت لتضميد كدماتهم . جاءت كلمات التجشيع والتنبيه من أفواههن، وأيضاً اللعنات التي حرّكت الجبناء، وشجّعت الضعفاء. كن يطلقن السهام والرصاص حين كان الرجال يبحثون عن قطعة ظلّ ليموتوا فيها. حين وصل الذين نجوا من الجوع والسهام إلى السفن، رفعت النساء الأشرعة، وجذفن دون تذمر. هذا ماحصل في بوينس آيرس، ونهر البارانا.

بعد عشرين عاماً وزّع الحاكم إيرالا الهنود والأراضي في آسنسيون. عبّر بارتولومي غارسيا أحد أولئك الذين وصلوا في السفن من الجنوب عن احتجاجه. منحه إيرالا ستة عشر هندياً فقط: هو الذي ما يزال ذراعه مصاباً برأس سهم، وقاتل وجهاً لوجه الكواجر التي قفزت فوق حاجز بوينس آيرس الدفاعي.

تصرخ دونا إيزابيل دي غويفارا: «ماذا عني أنا؟ ماذا سأقول أنا؟».

هي أيضاً كانت هناك من البداية. جاءت من إسبانيا لتؤسّس بوينس آيرس مع مندوزا وذهبت مع إيرالا إلى آسنسيون. وكونها امرأة، لم يمنحها الحاكم هنوداً على الإطلاق.

1556: آسنسيون، البارغواي

ـ جنة محمد ـ

يتدحرج النّرد. ترفع امرأة هندية الشمعة. الذي يربح يأخذها عارية، لأن الشخص الذي يخسرها راهن عليها عارية.

في الباراغوي، النساء الهنديات غنائم العجلة والنرد والورق، غنائم الحملات على الأدغال، أسباب المبارزات والجرائم. ورغم أنه يوجد الكثير منهن، فإن الدميمة تساوي ما تساويه قطعة من لحم الخنزير أو الخيل. يذهب غزاة الآنديز والهنود إلى القداس تتبعهم قطعان من النساء. في هذه الأرض الخالية من الذهب والفضة يمتلك البعض ثمانين أو مائة امرأة، من اللواتي يطحنّ نهاراً قصب السكر وفي الليل يعملن في الحياكة ويمنحن أجسادهن ليقدمن لأسيادهن العسل والملابس والأولاد: يساعدن على نسيان الحلم بالثروة الذي أنكره الواقع، وعلى نسيان الحبيبات البعيدات اللواتي يهرمن في إسبانيا.

يُحذِّر دومينغو مارتينيز والد مالا يحصى من المهجّنين ونسّاك المستقبل: كونوا حذرين. إنهن يذهبن إلى الفراش حاقدات يقول إن النساء الهنديات حاقدات وعنيدات، متلهفات دائماً للعودة إلى الغابة حيث تمّ اصطيادهن، وأن المرء لايستطيع أن يأتمنهن حتى على أونصة قطن لأنهن يخبئنها أو يحرقنها أو يمنحنها، وأن مجدهن هو فقط تدمير المسيحيين وتدمير كل ما يوجد. انتحرت بعضهن شنقاً أو أكلن القذارة، ويوجد البعض ممن رفضن منح أثدائهن للأولاد الحديثي الولادة. قتلت الهندية جوليانا الغازي نونو دي كابريرا في إحدى الليالي وصرخت بالأخريات أن يفعلن مثلها.

ـ أغنية زير نساء ـ
من كتاب الأغاني الإسبانية

إذا كان بوسع المغاربة
أن يضاجعوا سبع نساء
لماذا يرفض الإسبان
مضاجعة الكثيرات؟
آه، يالها من متعة

أن تعود إلى إسبانيا
على الطريقة المغربية.
أن تحب امرأة واحدة هو لا شيء
أن تحب اثنتين نفاق
أن تحب ثلاثة وتخدع أربعة
هذا هو المجد الذي يأتي من الله.

١٥٥٦: لا امبريال

- مارينو دي لوبيرا -

يقرّر الحصان الذهبي الجلد والمفعم بالحيوية الجهة والسرعة. إذا أراد أن يعدو بسرعة يعدو، يختار البلاد المفتوحة ويجري وسط الحشائش الطويلة، يقترب من الجدول ويعود باحترام، ودون عجلة يروح ويغدو في الشوارع القذرة لهذه المدينة الموسومة من جديد.

راكباً على ظهره العاري، مطلق العنان، يستعرض بدرو مارينو دي لوبيرا ويحتفل. تتدفّق كلّ خمرة لامبريال في شرايينه. يقهقه من وقت لآخر ويوجّه ملاحظة. يدير الحصان رأسه، ينظر ويوافق.

تمرّ اليوم أربعة أعوام على ترك بدرو لحاشية نائب الملك في ليما وعلى عبوره الطريق الطويل إلى تشيلي.

يقول دون بدرو للحصان: «عمري أربعة أعوام، أربعة أعوام قصيرة. أنت أكثر كهولة وغباء».

شاهد كثيراً وقاتل كثيراً في تلك الأعوام الأربعة. يقول إن هذه الأراضي التشيلية تنبت الفرح والذهب كما تنمو النباتات في أمكنة أخرى. وحين تنشب حرب، كما يحدث دائماً، ترسل العذراء ضباباً كثيفاً لتعمي الهنود ويمنح القديس سانتياغو رمحه وحصانه الأبيض لجيش الغزاة. ليس بعيداً من هنا وليس منذ زمن بعيد، حين كانت فرق الخيالة الآرومانية تدير ظهرها للبحر، أسقطتها موجة عملاقة وابتلعتها.

يتذكّر بدرو ويعلق، والحصان يوافقه الرأي.

فجأة تظهر ثعابين برقية في السماء ويهزّ الرعد الأرض.

يقول بدرو: «إنها تمطر، إنها تمطر حليباً!».

يَرْفَعُ الحصان رأسه ويشرب.

١٥٥٨: كانييتي

ـ الحرب مستمرة ـ

بمائة سهم يشقّ صدره، يقابل كوبوليكان نهايته. يسقط القائد العظيم ذو العين الواحدة مهزوماً بسبب الخيانة. اعتادت القمر أن تقف وتتأمل أعماله البطولية الفذّة ولم يكن يوجد رجل لايحبه أو يخشاه، إلا أن خائنا استطاع أن يقضي عليه.

منذ عام فاجأت الخيانة أيضاً لوتارو.

سأل القائد الإسباني: «وأنت، ماذا تفعل هنا؟».

لم يدخل لوتارو إلى سانتياغو كغازٍ على رأس رجاله. أُحْضِرَ رأسه المقطوع من جبل «تشيلبريكو» مشكولاً بأطول رمح في الجيش الإسباني.

إن الخيانة سلاح مهلك كالتيفوئيد والجدري والجوع الذي أصاب الآروكانيين حين كانت الحرب تدمّر المحاصيل والمزروعات. مع ذلك يمتلك مزارعو وصيادو هذه الأراضي التشيلية أسلحة أخرى. يعرفون الآن كيف يستخدمون الخيول التي كانت تزرع سابقاً الهلع في قلوبهم. يهجمون على ظهور الأحصنة كزوبعة من الخيّالة ويحمون أنفسهم بالدروع الجلدية. يعرفون كيف يستخدمون البنادق التي يستولون عليها في ساحة المعركة ويربطون السيف على رؤوس رماحهم. وراء أغصان الأشجار المتحركة، في ضباب الصباح يتقدّمون غير مرئيين، ثم يتظاهرون بالانسحاب لكي تغرق أحصنة العدوّ في المستنقعات أو لتتكسر أقدامها في مصائد مموّهة. تخبرهم أعمدة الدخان بوجهة الجنود الإسبان، ينقضون عليهم ويختفون. يظهرون فجأة ويهجمون على العدو حين تصبح الشمس أكثر إشعاعاً ويتحمّص الجنود في دروعهم. كانوا يسقطون الخيّالة بأنشوطة العقدة المنزلقة التي ابتكرها لوتارو.

والأكثر من ذلك أن الآروكانيين يطيرون. قبل أن يذهبوا إلى الحرب يدلكون أنفسهم بريشِ أسرعِ الطيور.

ـ الأغنية الآروكانية ـ

عن الخيّال الشبح

من هذا
الذي يمتطي الريح
كالنمر
بجسده الشبحي؟

حين تراه أشجار البلوط.
حين يراه الناس.
يقول أحدهم للآخر همساً.
«انظر ياأخي، لقد جاء
شبح كوبوليكان».

١٥٥٨: ميتمالويان

ـ الطيور السوداء ـ

قبضوا على خوان تيتون، الواعظ الهندي لقرية ميشمالويان التي تقع في وادي المكسيك وهم يعذبونه الآن. قبضوا أيضاً على الذين استمعوا إليه. خرج خوان معلناً نهاية حقبة واقتراب عام ينهي جميع الأعوام. قال: «ستخيّم ظلمة شاملة، سيجَفّ المزاد العلني ويهيمن الجوع. وكل من لا يغسلون المعمودية عن شعرهم سيتحولون إلى حيوانات. ستهبط الطيور السوداء المرعبة من السماء وتأكل جميع من لا يزيلون علامة الكهنة».

أخبر مارتين أوسيلوتل أيضاً عن الطيور السوداء. أُسِرَ وضُربَ وجرّد من أملاكه ونفي من تيهوكو. هو قال أيضاً إنه لن يوجد لسانُ لهبٍ في احتفال النار الجديدة وسينتهي العالم بسبب أولئك الذين نسوا تعاليم آبائهم وأجدادهم ومن أنجبهم وربّاهم. قال: ستنقضّ الطيور السوداء علينا في الظلام وتلتهم النساء والرجال. قال مارتين أوسيلوتل: «إن الرهبان هم طيور سوداء مُقنّعة وأعداء للسعادة لايعرفون أننا ولدنا لنموت وأنه بعد الموت لن نحصل على المتعة ولا على السعادة».

أيضاً يمتلك الأسياد العجائز الذين يعيشون في «تلاهكالا» شيئاً يقولونه عن القساوسة: «إنهم مساكين، إما مرضى أو مجانين، ظهراً وفي منتصف الليل وعند بزوغ الفجر، حين يبتهج الجميع يصيحون ويبكون. يجب أن يكون فيهم خطأ مريع. إنهم لايمتلكون إحساساً. لايبحثون عن المتعة والسعادة، لايبحثون إلا عن الحزن والعزلة».

١٥٥٨: يوستي

من أنا؟ من كنت؟

يتنفس باذلاً جهداً كبيراً والحرارة تفترس رأسه. قدماه منتفختان بداء المفاصل لاتستطيعان السير. يتمدّد على الدكّة، هذا الذي كان ملكاً على نصف العالم يهرب من مهرّجيه ويتأمّل الغسق في وادي أستريمادورا. الشمس تغيب خلف الجبال الأرجوانية وأشعتها الأخيرة تضفي لوناً أحمر على الظلال المنتشرة فوق دير الجيرونوميين.

دخل مدناً كثيرة كفاتح. صُفّق له وحُقد عليه. ضحى الكثيرون بحياتهم من أجله، وزهقت أرواح كثيرة باسمه. بعد أربعين عاماً من القتال والسفر يريد السجين الأعلى لامبراطوريته أن يستريح وينسى. من أنا؟ ماذا كنت؟ رأى الموت يدخل في المرآة. أهو الخادع أم المخدوع؟

في وسط الحروب وبضوء نيران المعسكرات وقّع أكثر من أربعمائة اتفاقية قروض مع أصحاب البنوك الألمانيين والجنوييّن والفلمنكيين، ولم تحضر السفن ذهباً وفضة كافيين من أميركا. هذا الذي أحب الموسيقا سمع رعد المدافع والأحصنة أكثر من ألحان المزمار المقدّسة، وبعد حروب كثيرة سيرث ولده فيليب امبراطورية مفلسة.

وصل تشارلز إلى إسبانيا من الشمال عبر الضباب حين كان في سن السابعة عشرة تتبعه حاشية من التجار الفلمنكيين وأصحاب البنوك الألمان في قافلة لاتنتهي من العربات والأحصنة. في ذلك الوقت لم يكن قادراً على إلقاء التحية بلغة قشتالة. ولكنه سيختارها غداً ليقول وداعاً.

ستكون آخر كلماته: «آه يايسوع».

1559: مدينة المكسيك

- النّدابون -

يفرد نسر الأستورياس جناحيه في سماء الهضبة المكسيكية. على قماش أسود محاط بالرايات يتوّهج التاج. تعلن منصّة التابوت، التبجيل لتشارلز الخامس، وأيضاً للموت الذي غزا ملكاً لايُقهر.

تجوّل التاج الذي هو نسخة طبق الأصل عن التاج الذي زيّن الإمبراطور في أوروبا، في شوارع المكسيك. حُمل على وسادة دِمَقْسية في الموكب. صلّت الجموع وغنّت خلفه بينما قرعت جميع الكنائس لحن الموت. تقدّم النبلاء على ظهور الأحصنة في بروكار حزن أسود وأردية مخملية سوداء مطرزة بالذهب والفضة، وتقدّم تحت ظِلّةٍ كبير الأساقفة والأساقفة بتيجانهم التي تشدّ الأبصار وسط غيمة من البخور.

لم ينم الخيّاطون لعدة أيام. ارتدت المستعمرة كلها ثياب الحداد.

كان الآزتيكيون يندبون أيضاً في أحيائهم القذرة. كانوا على هذه الحالة لمدة شهور وتقريباً لمدة عام كان الطاعون يستأصلهم بالجملة. حمّى لم تعرف أبداً قبل الغزو، تسحب الدم من الأنف والعينين وتقتل.

- نصيحة الحكماء الآزتيكيين العجائز -

بما أنك ترى الآن بعينيك
انتبه .
انظر إلى الوضع هنا . لايوجد فرح
ولاسعادة.

هنا . على الأرض، تُذرف دموع كثيرة
يتوقف النَفَس
وتنتشر الكآبة والمرارة.
تهبّ ريح سبجيّة وتنقضّ علينا.
الأرض هي مكان الفرح المؤلم
الفرح الذي يخز

ولكن رغم أن الأمور كانت هكذا
رغم أن المعاناة كانت شاملة
حتى ولو كانت الأشياء هكذا على الأرض
أيجب أن نخاف دائماً؟
ونرتجف إلى الأبد.
ونعيش إلى الأبد ونحن نبكي؟

كي لانئن دائماً
كي لايتخمنا الحزن
مَنَحَنا أبونا
الابتسامات، الأحلام والطعام.
قُوّتنا
وفعل الحبّ
الذي يبذر الناس

١٥٦٠: ويهوسينكو

ـ المكافأة ـ

يحمل زعماء ويهوسينكو الآن أسماء أسيادهم الجدد. يُطلق عليهم اسم فيليب دي ميندوزا وهرناندو دي مينيسيس وميغيل دي ألفارادو ودييغو دي تشيفز أو ماتيو ديلاكورونا. إلا أنهم يكتبون بلغتهم الناهاواتولية وبتلك اللغة بعثوا رسالة إلى ملك إسبانيا: «نحن المنحوسين، خدمك الفقراء من ويهوسينكو ...».

يشرحون لفيليب الثاني أنهم لايستطيعون الوصول إليه بأية طريقة أخرى لأنهم لايمتلكون أجرة الرحلة وأنهم سيروون قصتهم في الرسالة. كيف سنتكلم؟ من سيتكلم من أجلنا؟ نحن المنحوسين.

لم يشنوا الحرب أبداً على الإسبان مشوا عشرين فرسخاً إلى هيرنان كورتيز وعانقوه، قدّموا له الطعام وخدموه واعتنوا بجنوده المرضى. قدموا له الرجال والأسحلة والخشب لبناء السفن التي هاجمت تينوشتيتلان. بعد أن سقطت العاصمة الآزتيكية قاتل سكان ويهوسينكو مع كورتيز أثناء غزو ميتشواكان وجاليسكو وكولهواكان وبانوكو وأهواكا وتيهوانتيبك وغواتيمالا. مات الكثيرون وفيما بعد، حين طلبوا منّا أن نحطم الأحجار ونحرق النقوش التي كنا نعبدها، فعلنا ذلك ودمرنا معابدنا... كنا ننفذ جميع أوامرهم.

كانت ويهوسينكو مملكة مستقلة حين جاء الإسبان لم تدفع الجزية أبداً للآزتيكيين: آباؤنا وأجدادنا وأسلافنا لم يعرفوا ماهي الجزية ولم يدفعوها لأحد. وأسلافنا لم يعرفوا ماهي الجزية ولم يدفعوها لأحد.

الآن، على أية حال، يطلب الإسبان منا جزية مرتفعة من النقود والذرة ونعلن أمام جلالتكم أن مدينتنا ويهوسينكو ستختفي وتموت بعد وقت قصير.

١٥٦٠: ميتشوكان

ـ فاسكو دي غيروكا ـ

المسيحية البدائية، المشاعية البداتية: يصوغ أسقف ميتشوكان قوانين لمجموعاتنا البروتستانتية. ألهمته ذلك يوتوبيا توماس مور وأنبياء الإنجيل والتقاليد العريقة لهنود أميركا.

إن هذه الجماعات التي أسّسها غيروكا حيث لايسود أحد على غيره أو على أي شيء ولا يُعْرَفُ الجوعُ والمال، لن تتكاثر في المكسيك كما كان يرغب. إن مجلس الآنديز لن يأخذ على محمل الجد الأسقف الغبي، ولن ينظر إلى الكتب التي كان ينصح بها بعناد. لكن هنا، عادت اليوتوبيا إلى أميركا حيث نشأت. لقد جُسّدت خرافة توماس مور في العالم المشاعي الصغير

لميتشوكان، وسيتذكر الهنود في الأزمنة القادمة فاسكو دي غيروكا وكأنه منهم، هذا الحاكم الذي ثبّت عينيه على هلوسة ليرى ماوراء زمن الخزي والعار.

١٥٦١: مراكب نيلادي لوس

ـ الإستقلال الأول لأميركا ـ

توّجوه البارحة. تجمهرت قردة فضولية بين الأشجار. يقطر عصير الفاكهة من فم فيرناندو دي غوزمان وتتألق شموس في عينيه. كان الجنود يركعون واحداً بعد الآخر أمام العرش المصنوع من العصي والقش، يقبلون يد المنتَخَب ويقسمون يمين الولاء ثم يوقعون الإعلان بأسمائهم أو بإشاراتهم، كانوا جميع أولئك الذين لم يكونوا نساءً أو خدماً أو هنوداً أو سوداً. جعل الناسخ الإعلان رسمياً، وأعلن الإستقلال.

أصبح للذين يبحثون عن الدورادو، للضائعين وسط الأدغال ملكاً. لاشيء يربطهم بإسبانيا الآن سوى الاستياء. لقد رفضوا العبودية للملك الذي هو وراء البحار. يصرخ لوب دي آغيري: «لاأعرفه ولا أُريد أن أعرفه أو أطيعه».

نُصِب البلاط في أكبر أكواخ القرية وعلى ضوء الشموع يأكل الأمير فيرديناند كعك المنيهوت المغطى بالعسل. حوله خدمه، حامل كوبه، وخادمه الخاص. يصدر الأوامر لمعاونيه وهو يلتهم الكعك. يصدر الأوامر لنسّاخه ويمنح الامتيازات والألقاب. كان أمين الصندوق الملكي وكاهن القصر وكبير الخدم والمتذوّق يرتدون سترات رثة أيديهم متورّمة وشفاههم متشققة. كان ضابط النظام ذو اللون الداكن والعين الواحدة والأعرج والقزم هو ليو آغيري الذي يتآمر في الليل ويشرف على بناء السفينة في النهار.

ترنّ ضربات الفؤوس والمطارق. حطمت تيّارات نهر الآمازون سفنهم، ولكن إلى الأمام تنهض سفينتان على الرمل. الغابة تقدم أخشاباً جيدة. يصنعون كيراً من جلود الأحصنة، مسامير، ورتاجات، ومفاصل من كعوبها.

عذّبهم البرغش والبعوض وخنقتهم الرطوبة والأبخرة المحملة بالحمّى وهم ينتظرون اكتمال السفينة. يأكلون الأعشاب ولحم القشاعم دون ملح. لم تبق كلاب أو أحصنة ولم تُخرج سنارات الصيد سوى الوحول والطحالب العفنة ولكن لاأحد في المعسكر يشكّ في أن ساعة الانتقام قد حانت. غادروا البيرو منذ شهور بحثاً عن البحيرة التي ذكرت الأسطورة أنها تحوي تماثيل ذهبية كبيرة بحجم الأطفال، والآن يريدون أن يعودوا إلى البيرو مستعدين للحرب. لن يصرفوا يوماً آخر في البحث عن أرض موعودة لأنهم يدركون أنهم وجدوها سابقاً، وقد أمرضهم حظهم السيء. سيبحرون في نهر الآمازون ويظهرون في المحيط ويحتلون جزيرة مارغريتا ويغزون فنزويلا وبنما...

أولئك الذين ينامون، يحلمون بفضّة بوتوسي، أما آغيري الذي لايغمض أبداً عينه الوحيدة، يراها مستيقظة.

١٥٦١: نويفا فالنسيا ديل ري

- آغيري -

يظهر آغيري في وسط خشبة المسرح حاملاً فأساً في يده ومحاطاً بدزينات من المرايا. على ستارة المسرح الخلفية تظهر صورة تخطيطية كبيرة وسوداء للملك فيليب الثاني.

لوب دي آغيري: (مخاطباً الجمهور). على طريق هزيمتنا، عابرين في الموت والبلية استغرقنا عشرة أشهر للوصول إلى فم الأمازون، النهر العظيم المخيف والمشؤوم. بعد ذلك استولينا على جزيرة «مارغريتا». هناك قضيتُ على خمسة وعشرين خائناً بالمشانق أو المخانق الحديدية، ثم شققنا طريقنا إلى الجزء الرئيسي من الجزيرة. يرتجف جنود الملك فيليب من الخوف. سنغادر فنزويلا حالاً وندخل إلى مملكة البيرو منتصرين (يلتفتْ ويرى صورته المثيرة للشفقة في إحدى المرايا). توّجتُ فرناندو دي غوزمان ملكاً على نهر الأمازون (يرفع فأسه ويحطم المرآة بضربة). توجته ملكاً وقتلته. فعلت الشيء نفسه مع قائد حرسه ومع جنرال وأربعة قوّاد آخرين. (يحطّم جميع المرايا وهو يتحدث) قتلتُ أيضاً كبير خدمه وكاهنةً وامرأةً اشتركت في مؤامرة ضدي وذلك الشخص الذي وُلِدَ في اليونان وظن أنه رام ماهر وأميرالاً وستة من حلفائهم.... عيّنت قادة جدداً وصفّ ضباط. أرادوا أن يقتلوني فشنقتهم (يحطم آخر مرآة)... جميعاً.. جميعاً.. جميعاً.. (يجلس على الأرض شبه مختنق، مغطى بالزجاج، يرفع الفأس بيده إلى الأعلى، وعيناه شاردتان. يخيّم صمت طويل). عبرتُ البحر إلى البيرو شاباً لأنني أستحق الكثير وأنا أحمل في يدي رمحاً... ربع قرن! أسرار.. مآس... حفرت مقابر كاملة لأعثر على الذهب والفضة وأمنحها للآخرين... نصبتُ المشانق في وسط مدن لم تولد... اصطدت حشوداً من البشر وأنا على ظهر حصاني... هنودا يهربون مرعوبين في ألسنة اللهب... سادةً من ذوي الألقاب الرفيعة يرتدون ثياباً حريرية مستعارة أولاد شيء ما أو آخر، أولاد لأحد، تمتلىء أفواههم بالرغوة ويأكلون الوسخ، الدم الذي سمّمته السهام.. وعلى الجبال يستلقي محاربون اخترقت دروعهم الفولاذية عواصف ثلجية أكثر عنفاً من وابل الرصاص، وَجَدَ كثير منهم قبوراً في بطون العقبان، اصفرّ كثيرون منهم كالذهب الذي كانوا يبحثون عنه... جلد أصفر، عينان صفراوتان... والذهب (يُسْقِطُ فأسه من يديه اللتين تبدوان كالمخلبين بألم. يظهر راحتي كفيه) تبخَّر تحوّل الذهب إلى ظل أو ندى (ينظر إلى الأسفل مشككاً. يخيم صمت طويل. ينهض فجأة. يعود إلى مخاطبة الجمهور، يرفع قبضته الناتئة العظام نحو الصورة التخطيطية الكبيرة لفيليب الثاني، ينعكس ظله بلحيته المستدقة على ستارة المسرح الخلفية) قلة ملعونة منكم ستذهب إلى الجحيم أيها الملوك، لأنه يوجد قلة ملعونة منكم. (يمشي نحو ستارة المسرح

الخلفية جاراً قدمه العرجاء). أيها الوغد الكريه، فقدتُ جسدي وأنا أدافع عنك ضد المتمردين في البيرو! قدّمت لك رجلاً وعيناً وهاتين اليدين الليتن لافائدة ترجى منهما. إن المتمرد الآن هو أنا. سأتمرّد حتى الموت بسبب إنكارك للجميل (يواجه الجمهور شاهراً سيفه). أنا أمير المتمردين، لوب دي آغيري، الحاج، غضب الله، زعيم المشلولين! لانحتاج إليك يامالك إسبانيا! (تمرّ أضواء ملوّنة في نقاط مختلفة على المسرح) يجب أن لا نترك أي وزير من وزرائك حياً (يطعن بسيفه شعاعاً من الضوء الأحمر).. القضاة، الحكام، الرؤساء، نواب الملوك! الحرب حتى الموت ضد جميع عاهرات البلاط (يبقى شعاع الضوء في مكانه غير آبهٍ بطعنة السيف القاطعة) المغتصبون، اللصوص (يجرح السيف الهواء) لقد دمّرتم الآنديز (يهاجم ضوءاً ذهبياً)، محامون، كتاب بالعدل، متبرّزو حِبْر! إلى متى سنتحمل سرقاتكم في هذه الأراضي التي ربحناها (يشق السيف شعاعاً أبيض اللون) كهنة، أساقفة، كبار أساقفة. إنكم لن تدفنوا حتى هندياً مسكيناً. من أجل التوبة تضعون دزينة من الفتيات في مطابخكم. أيها المتاجرون بالقرابين المقدّسة، أيها الغشّاشون (تتكاثر هجمات السيف العبثية على أضواء لاتتحرك على المسرح. يفقد أغيري قواه ويبدو مرة أخرى وحيداً وتافهاً لامعنى له).

١٥٦١: نويفا فالينسيا ديل ري

- من رسالة لوب دي آغيري إلى الملك فيليب الثاني -

هنا عرفنا حجم قسوتك وكيف حنثت بيمينك وبكلمتك، ولهذا، في هذه البلاد نمنح لوعودك ثقة أقل من التي نمنحها لكتب مارتن لوثر، لأن نائبك مركيز كانيتي شنق مارتن دي روبلز، الرجل الذي كان يخدمك بشكل جيد، والفاتح الشجاع للبيرو توماس فاسكويز والمسكين ألونزو داياز الذي بذل جهوداً كبيرة في اكتشاف هذه الأرض أكثر من التي بذلها كشّافة موسى في الصحراء..

استمع، استمع أيها الملك الإسباني، كفّ عن قسوتك وعقوقك مع عبيدك، وبما أنك أنت ووالدتك المرتاحان في إسبانيا بعيدان عن جميع المتاعب، فقد منحك أتباعك على حساب دمهم ومدّخراتهم جميع الأراضي والإقطاعيات التي تمتلكها في هذه النواحي، واستمع أيها الملك والسيد، لايمكنك أن تلقّب نفسك ملكاً عادلاً إذا أخذت أي جزء من هذه الأراضي التي لم تقم فيها بأية مغامرة دون أن تكافىء أولئك الذين كدحوا وتعرقوا...

وا آسفاه! ومن بالغ سوء الحظ أنه كان على والدك، القيصر الإمبريالي أن يفتتح ألمانيا بقوات إسبانيا، صارفاً الكثير من النقود التي جاءت من هذه الأمكنة التي اكتشفناها نحن، ومن بالغ سوء الحظ أن هرمنا وإعياءنا لايؤلمك بما يكفي لجعلك توقف جوعنا حتى ليوم واحد.

١٥٦١: باركو بزيميتو

- إعادة النظام -

لوب دي آغيري الذي تخلّى عنه رجاله مفضلين صفح الملك أو الوعود، يطعن حتى الموت ابنته الفيرا لينقذها من أن تصبح وسادة للحراس السود ويواجه جلاديه. يصحح تسديدهم، ليس إلى هذه الجهة، ليس إلى تلك الجهة، طلقة قذرة ويسقط دون أن يمنح نفسه لله.

حين يقرأ فيليب الرسالة جالساً على عرشه بعيداً عن هنا، يُثَبِّتُ رأس آغيري على رمح كعبرة لجميع بيادق التنمية الأوروبية.

١٥٦٢: ماني

- النار تخطىء خطأً فادحاً -

يرمي فراي دييغو إلى اللهب كتب المايا واحداً بعد آخر.

يلعن المفتش الشيطان بينما تفرقع النار وتلتهمُ. حول المحرقة يئن الهراطقة ورؤوسهم منكّسة إلى الأسفل. يغطّس الهنود المعلقين من أقدامهم، المسلوخين من ضربات السياط في الشمع المغلي، بينما النار تتأجّج والكتب تطقطق وكأنها تتذمّر. تتحوّل اليوم ثمانية قرون من أدب المايا إلى رماد. على الصفحات الطويلة للورق اللحائي تكلمت الإشارات والصور: تحدّثتْ عن عمل أنجزَ وأيام انصرمتْ عن الأحلامِ وحروبِ بشرٍ ولدوا قَبْلَ يسوع. بفرشاةٍ من الصوف رسمَ العارفون بالأشياء هذه الكتب المضاءة والمضيئة لكي لايصاب بالعمى أحفاد الأحفاد، لكي يعرفوا كيف يرون أنفسهم وتاريخَ قومهم ولكي يعرفوا حركات النجوم، تواترَ الكسوفات ونبوءات الآلهة وأن يستدعوا الأمطار ومحاصيلَ ذرة جيدة.

في الوسط يحرق المفتش الكتب، ويؤدّب القرّاء حول النار الكبيرة. في هذه الأثناء يشرب المؤلفون والكهنة الفنانون الذين ماتوا منذ أعوام أو قرون شراب الشوكولاتة في الظلّ المنعش لأول شجرة في العالم. إنهم ينعمون بالسكينة لأنهم ماتوا وهم يعرفون أنه من المستحيل أن تحرق الذاكرة. ألن يغنى مارسموه ويُرقص على إيقاعه عبر أزمان وأزمان؟

حين تُحرق منازلها الورقية الصغيرة، تجد الذاكرة مأوى في الأفواه التي تغني أمجاد الرجال والآلهة في الأغاني التي تنتقل من شعب إلى آخر وفي الأجساد التي ترقص على إيقاع الجذوع المجوّفة ودروع السلاحف وعيدان القصب.

١٥٦٣: حصن آركو

- التاريخ الذي سيكون -

تُشدّ الأنشوطة وتخنق. نفدتْ الماء في هذا الحصن الدفاعي الأمامي الذي حُرق مرتين وأُعيد بناؤه. سيضطرون بعد قليل إلى شرب بولهم القليل. سقطت سهام كثيرة في الداخل استخدمها الإسبان حطباً للطبخ.

يقترب زعيم الآروكانيين من سفح الحصن على ظهر حصانه: «أيها القائد، هل تسمعني؟».

يظهر لورينزو بيرنال رأسه.

يعلن الزعيم المحلي أن الحصن سيحاط بالقش وتُضرم فيه النار. يقول إنهم لم يتركوا أحداً حياً في كونسيبسيون.

يصرخ برنال: «لن يحصل أي شيء».

- «لايوجد فرصة، أبداً».

ينهض الحصان على قائمتيه.

- «إذاً ستموت».

يقول بيرنال صارخاً: «سنموت ولكننا سنربح الحرب على المدى الطويل، سيكون هنا الكثير منا».

يجيب الهندي بضحكة خافتة:

يسأل: «كيف؟ أية نساء ستنجبهم؟».

يجيب القائد ببطء وهو يمضغ كلماته: «إذا لم يكن يوجد نساء إسبانيات، سنستولى على نسائكم». ثم يضيف: «وسننجب منهن رجالاً يصبحون أسيادكم».

١٥٦٤: بليموث

- هوكينز -

تنتظر السفن الأربع التي يقودها جون هوكينز المدّ الصباحي. حالما ترتفع المياه ستبحر إلى أفريقيا لاصطياد البشر على شواطىء غينيا. من هناك سيذهبون إلى جزر «الآنتيل» ليبيعوا العبيد مقابل السكر والجلود واللآلى.

منذ عامين قام هوكينز بهذه الرحلة على حسابه، في سفينة سُمْيت يسوع. باع مائة عبد تهريباً في سانتو دومينغو. انفجرت الملكة إليزابيت من الغضب حين علمت بذلك، إلا أن غضبها تلاشى حين اطَّلَعَتْ على بيان ميزانية الرحلة. بمثل لمح البصر أصبحت شريكة في العمل مع كلب البحر الديفوني واشترى إيرلات[1] بيمبروك وليشستر ورئيس بلدية لندن أسهماً أولى في المشروع الجديد.

يخطب هوكينز بالبحارة وهمْ يرفعون الأشرعة. ستتبنّى البحرية البريطانية أوامره في القرون القادمة. يصيح بأعلى صوته: «اخدموا الله كل يوم. أحبوا بعضكم، ادّخروا مؤنكم، راقبوا النيران! صادقوا بعضكم!».

١٥٦٤: بوغوتا

- تقلبات الحياة الزوجية -

- «قولي لي، هل أبدو مختلفة؟».
- «قليلاً».
- «ماذا قليلاً؟».
- «أنت سمينة بعض الشيء ياسيدتي، اعذريني إذا قلت هذا».
- «برأيك هل أنا سمينة من الطعام أم من الضحك؟».
- «سمينة من الحب، ولاأقصد الإساءة طبعاً».
- «لايوجد إساءة، هذا ما طلبتك من أجله».

السيدة قلقة جداً، جسدها قليل الصبر، لاتستطيع أن تنتظر زوجها الغائب، إذ أخبرها أحدهم إنه عائد إلى «كارتاجينا» ماالذي لن يفعله حين يرى بطنها ذلك الرجل الصارم الذي يشفي الصداع بقطع الرؤوس.

- لهذا استدعيتك ياجوانا، ساعديني أنت التي تستطيعين أن تطيري وتشربي الخمر من كأس فارغ. أخبريني هل زوجي عائد في الأسطول «الكارتاجيني»؟

تخلط المرأة السوداء جوانا غارسيا الماء والتراب والدماء والأعشاب في حوض غسيل فضي. تغمس كتاباً أخضر صغيراً في الحوض وتتركه يعوم ثم تدفن أنفها فيه وتقول: لا، إنه ليس قادماً، وإذا كنت ترغبين برؤية زوجك تعالي وألقي نظرة.

---

(١) - إيرل: لقب انكليزي أدنى من مركيز وأرفع من فيكونت.

تنحني السيدة فوق الحوض. تشاهده جالساً في ضوء الشموع قرب امرأة جميلة في مكان مليء بالحرير بينما يقطع له أحد ما ثوباً من النسيج الفاخر. «آه أيها الدجال. أخبريني ياجوانا. ماهذا المكان؟».

ـ «إنه منزل خياط في جزيرة سانتو دومينغو».

تظهر في المياه الكثيفة صورة خياط يقطعُ كمّا.

تقول المرأة السوداء: «هل أوقف هذا؟».

ـ «نعم أوقفيه».

تبزغ اليد من الحوض مع كم من النسيج الرائع يقطر بين الأصابع.

ترتجف السيدة من الغضب:

ـ «إنه يستحق بطوناً أكثر سمنة هذا الخنزير القذر».

من زاوية المنزل، ينخر جرو صغير بأعين نصف مفتوحة.

١٥٦٥: الطريق إلى ليما

ـ الجاسوس ـ

نما البطيخ الأحمر كبيراً كالشموس في مزرعة دون أنطونيو سولار التي تقع على نهر لورين. إنها المرة الأولى التي تُزرَع فيها هنا هذه الثمار التي أُحضرت من إسبانيا. يرسل رئيس العمال عَشْر عيّنات مستمتعاً ومعتزاً بالأمر. تمكن مقارنة حجم هذه البطيخات مع فجل وادي «كوزكو» الذي يقال عنه أن خمسة أحصنة يمكن أن تربط إلى رؤوسه.

ينقل الهنديان هدية كبير العمال في كيسين ويمنحهما رسالة لتسلّم مع البطيخ إلى دون أنطونيو سولار: « إذا أكلتم أية بطيخة ستخبره هذه الرسالة بذلك».

حين يصبحان على بعد فرسخين من مدينة الملوك يجلس الهنديان ليستريحا.

ـ «ما طعم هذه الفاكهة المميزة؟».

ـ «لابدّ أنه مدهش».

ـ «مارأيك بتجريبها؟ لنجرّب بطيخة واحدة».

استدرك أحد الهنديين: «ولكن الرسالة ستغني».

ينظران إلى الرسالة بكراهية وينظران حولهما باحثين عن سجن لها. يخبآنها في مكان لاتستطيع أن ترى منه شيئاً ويلتهمان بطيخةً بعضاتٍ سريعة مكتشفين اللبَّ السائلي الذي يفوق طعمه الخيال ثم يأكلان بطيخة أخرى ليجعلا الكيسين متساويين وبعد ذلك يلتقطان الرسالة ويحملان الكيسين على كتفيهما ويتابعان طريقهما.

١٥٦٥: بيوبو

ـ الحجر هو أنا ـ

ينتظر مسؤول الملك الساحرة الماهرة في الشعوذة والتي استدعيت لتشرح نفسها. كان التمثال الحجري مرمياً عند قدميه مُنكبّ الوجه. لقد قبض على الساحرة وهي تتحدث مع الوثن في الخفاء وستدفع حالاً جزاء هرطقتها ولكن المسؤول يريد أن يسمع من شفتيها اعترافها بالتحدث مع الشيطان قبل أن تُعاقب. كان يُسلّي نفسه أثناء انتظارها بالدوس على الوثن وبالتفكير بمصير هؤلاء الهنود الذين يجب أن يكون الله متأسفاً على خلقهم.

يرمي الجنود الساحرة أرضاً ويتركونها ترتجف على العتبة.

عندئذ يُسلّم الوثن الحجري العجوز والقبيح على الساحرة العجوز القبيحة بلغة «الكويتشوا» قائلاً من تحت قدم المسؤول: «مرحباً أيتها الأميرة»

ينصعق المسؤول ويسقط على الأرض زاحفاً.

تقول وهي تُهَوّي له بقبعتها ممسكة معطف الرجل الذي فقد وعيه: «لاتعاقبني ياسيدي. لاتحطمه».

تريد المرأة العجوز أن تشرح له أن الآلهة تعيش في الحجر وبدون الوثن لن تعرف اسمها أو من هي أو من أين جاءت وسوف تهيم في الأرض عاريةً وضائعةً.

ـ صلاة الأنكيين بحثاً عن الله ـ

اسمعني
يامن يعيش عالياً في البحر
يامن يعيش في أعماق البحر
ياخالق العالم
وخزّاف الإنسان
ياإله الآلهة،
عيناي يائستان لرؤيتك.
أو تائقتان لمعرفتك.
إذا رأيتك
وعرفتك
وتأملتك
وفهمتك

فسوف تراني وتفهمني،
لاالشمس ولا القمر،
لا النهار
ولا الليل
ولا الصيف
ولا الشتاء
يتحركون اعتباطاً
بل في فلكٍ مُحْكم
إلى المكان المحدّد
وإلى النهاية الطيبة
يامن تحمل معك في كل مكان
الصولجان الملكي،
اسمعني،
أصغي إليّ
لاتجعلني أصاب بالإعياء
لاتتركني أموت.

١٥٦٠: مدينة المكسيك

ـ المراسم ـ

يومض الرداء المطلي بالذهب. بعد مرور أربعة وخمسين عاماً على موته يرأس «موكتيزوما» الموكب. يتحرك الخيالة وكأنهم راجلون نحو الساحة الرئيسية لمدينة المكسيك. يقفز الراقصون على صوت رعد الطبول وعلى نواح غلايين «التشيريميا». كثير من الهنود الذين يرتدون الملابس البيضاء يحملون أغصاناً مزهرة. يحمل آخرون قدور طبخ «صلصالية» كبيرة. يختلط دخان البخور بعطور المرق المتبّل.

يترجّل موكتيزوما أمام قصر كوريتز.

ينفتح الباب. يظهر كورتيز بين غلمانه مسلحاً بمِطْرَدٍ مسنون.

يحني موكيتزوما رأسه ويقدّم أكاليل الزهور راكعاً. يلمس كورتيز كتفيه. ينهض موكتيزوما. بإيماءة بطيئة ينزع قناعه ويكشف الشعر المجعّد والشارب المستدقّ لألونزو دي آفيلا.

ألونزو دي آفيلا. سيّد المشانق والمدية، مالك الهنود والأراضي والمناجم يدخل إلى قصر مارتين كورتيز، مركيز وادي «أواهاكا». يفتح ابن غازٍ بابه لإبن أخ غازٍ آخر.

تبدأ اليوم رسمياً المؤامرة ضد ملك إسبانيا. ليس كلّ شيء في حياة المستعمرة حفلات ساهرة ومسايفات، العاب ورق، وحفلات صيد.

١٥٦٦ : مدريد

- المتعصّب للكرامة الإنسانية -

يتحدّى فراي بارتولومي ديلاس كاساس الملك ومجلس الآنديز. هل سيعاقب نتيجة عدم طاعته؟ لايهمه هذا الأمر كثيراً في سن الثانية والتسعين. لقد قاتل طيلة نصف قرن. أليست مآثره مفتاح مأساته؟ تركوه يربح معارك عديدة إلا أن نتيجة المعركة كانت مُحدّدة مسبقاً. كان يعرف ذلك منذ وقت طويل.

لن تطيعه أصابعه أبداً الآن. يملي الرسالة ويخاطب دون إذن من أحد البابا. يطلب من بيوس الخامس أن يأمر بوقف الحروب ضد الهنود والنهب الذي يستخدم الصليب غطاءً له. يغضب وهو يملي الرسالة يصعد الدم إلى رأسه ويرتجف الصوت الخشن الضعيف الذي تبقى له.

فجأة يسقط على الأرض.

١٥٦٦ : مدريد

- حتى ولو خسرت، هذا جدير بالاهتمام -

تتحرك الشفتان. تنطقان كلمات بلاصوت: «سامحني ياإلهي؟».

يتوسّل فراي بارتولومي طالباً الرحمة يوم العقاب لأنه اعتقد أن العبيد المغاربة والسود سوف يخففون الكارثة التي تحلّ بالهنود.

يتمدّد بجبهة رطبة شاحباً لاتتوقف شفتاه عن الحركة. بعيداً يقصف الرعد ببطء. يغلق مانح الولادة، رجل الفعل فراي بارتولومي عينيه. ورغم أن سمعه تدهور، يسمع قرع المطر على سقف أبرشية «آتوشا» يبلل المطر وجهه. يبتسم.

يتمتم القسّيس الذي يرافقه شيئاً عن الضوء الغريب الذي أضاء وجهه. يسافر فراي بارتولومي تحت المطر، حرّاً من الشك والعذاب للمرة الأخيرة إلى العوالم الخضراء حيث عرف السعادة.

تقول شفتاه في صمت وهو يقرأ الصلوات في ضوء الحباحب مبلّلاً بالمطر الـذي يضرب السـقف المغطّى بورق النخيل: «أشكرك».

يقول وهو يحتفل بالقداس في أكواخ بلا جدران وهو يعمّد الأطفال العراة في النهر: «أشكرك».

يُصَلَّبُ القساوسة. تسقط آخر حبات الرمـل مـن السـاعة. يقلـب أحدهـم السـاعة الرمليـة كـي لايقاطع الزمن.

١٥٦٨: لوس توكويز

- كواي كاي بورو -

لن يعكس النهر وجهه ثانية ولاحزمة الريش المتألقة على خوذته.

لم تُصغ الآلهة لزوجته آركويا هذه المرة، التي توسّلت كـي لا يمسّـه المرض أو الرصاص وأن لاينسى النوم الذي هو شقيق الموت أن يعيده إلى العالم في نهاية كل ليلة.

قطّع الغزاة كواي كاي بورو بالرصاص.

منذ أن انتخبه الهنود زعيماً، لم يكن هناك هدنة في هذا الوادي ولا في جبال آفيـلا. في مدينـة كاراكاس الحديثة الولادة صلّبَ الناس حين نطقوا اسمه بصوت منخفض.

مواجهاً الموت ومسؤوليه، سقط آخـر الرجـال الأحـرار صارخـاً: «اقتلونـي! اقتلونـي! حـرّروا أنفسكم من الخوف».

١٥٦٨: مدينة المكسيك

- أبناء كورتيز -

مارتن كان إسم ولد هرنان كورتـيز الأكـبر والـذي أنجبتـه شـهوات والـده مـن المـرأة الهنديـة مالينش، مات والده تاركاً له معاشاً سنوياً ضئيلاً.

مارتين هو أيضاً اسم ولد هرنان كورتيز الشرعي والـذي أنجبتـه امـرأة إسبانية والدهـا كونـت وشقيقها دوق. ورث هذا المارتن شارة الشرف والثروة. إنـه مركـيز وادي «أواهاكـا» ومـالك لآلاف الهنود وللأراضي التي أذلّها والده وأحبّها واختار أن يمكث فيها إلى الأبد.

كان من عادة المركيز مارتين أن يتجوّل في شوارع المكسيك على سرج من المخمل القرمزي المطرّز بالذهب وخلفه يمشي حرّاسه مرتدين بزّات حمراء ومُسَلّحين بالسيوف. كـل مـن يمـر في طريقـه يجب أن ينزع قبّعته ويبايعه وينضم إلى حاشيته. كان مارتن الآخر، الوغد، واحداً من الحاشية.

أراد المركيز مارتن أن ينفصل عن إسبانيا ويعلن نفسه ملكاً على المكسيك. حين فشلت المؤامرة أطلق الأعذار وسمّى الأسماء فَعُفِيَ عنه.

مارتن الوغد الذي خدم شقيقه في المؤامرة وكل شيء آخر يُعذّب بالمخلعة[1] إلى جانبه يسجّل الناسخ: «لقد عُرّي ووضِعَ في المخلعة: وحين تم توبيخه قال إنه لا يدين لأحد بأي شيء»، يدير الجلاد العجلة. تسحقُ الكبلات اللحم وتُمدّد العظام.

يُسجّل الناسخ: «لقد سُئل ثانيةً ويقول أنه لا يملك شيئاً يقوله أكثر مما قاله».

تدور العجلة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة.

هافانا: ١٥٦٩

ـ القديس سيمون يحارب النمل ـ

يغير النمل على المدينة ويُدمّر المحاصيل. افترس عدداً من المسيحيين ذوي النوم الثقيل من سُرَرهم.

تعقد سلطات هافانا اجتماعاً استثنائياً تقرر فيه طلب حماية أحد القدّيسين من النمل المفترس.

أجريت القرعة أمام المحترم آلونزو آلفاريز على الرسل الإثني عشر. يربح القديس سيمون ويصير حامياً يتوسّط مع الله ويزيل النمل من المنازل والمزارع في هذه البلدة ومحيطها.

ستكافىء القرية بالمقابل القديس سيمون وتقيم حفلاً تكريمياً سنوياً له لايعفى أحد من حضوره يتضمن صلاة الغروب وقدّاساً وموكباً ومصارعة ثيران.

١٥٧١: مدينة المكسيك

ـ يجب أن تشي بجارك ـ

تتدلى شارات الشرف والسجادات الجميلة والمخمل والرايات من الشرفات. يتوهج درع فارس النظام في سانيتاغو أمام نائب الملك. يرفع الخدم فؤوسهم الكبيرة حول الصليب الضخم المثبت إلى منصة الإعدام.

المفتش العام قادم من مدريد. تعلن الطبول والأبواق عن وصوله. يجيء على ظهر بغل مزّين بالحلي والزخارف وسط شموع مضاءة لا تحصى وقبعات سوداء.

---

(١) ـ المخلعة: أداة تعذيب قديمة.

سَيُعَذَّبُ الهراطقة أو سيُحْرَقون تحت سلطته المطلقة. أمر البابا «انوسنت الرابع» منذ قرون أن يكافأ قاتلو الأرواح وسارقو إيمان المسيح بالتعذيب، إلا أن البابا بولس الثالث أمر فيما بعد أن لايستمر التعذيب أكثر من ساعة. منذ ذلك الوقت يستريح المفتشون قليلاً من عملهم في كل ساعة. سيأمر المفتش الجديد الذي وصل إلى المكسيك بعدم استخدام الخشب الأخضر أبداً في الإعدامات كي لا تختنق المدينة من الدخان المزعج وسيأمر أن تتم الإعدامات في أيام جميلة كي يستمتع الجميع بذلك. لن يزعج نفسه بالهنود لأنهم آمنوا حديثاً، وهم ضعفاء وقيمتهم قليلة.

يجلس المفتش قرب نائب الملك. تحيِّيه طلقات المدفعية. تقرع الطبول ويعلن منادي البلدة المرسوم العام للإيمان. يأمر المرسوم الجميع أن يبلّغوا عن أي شخص يعرفونه أو شاهدوه أو سمعوا عنه ولايستثنى من هذا الزوجات والأزواج والآباء أو أي شخص آخر مهما كانت درجة قرابته. الجميع ملزمون بالتبليغ عن الأحياء أو الأموات الذين نطقوا، أو آمنوا بكلمات أو آراء هرطوقية أو مثيرة للشك أو خاطئة أو طائشة أو مسيئة أو غير أخلاقية أو تجديفية.

١٥٧١: مدريد

- من هو المذنب أو المجرم أو الشاهد؟ -

أهذا هو الوجه نفسه، أم المرآة التي تعكسه؟ لايفكر الملك بذلك مرتين. يصدر أمراً بمصادرة جميع المخطوطات التي تركها فراي بارتولومي لاس كاساس كي لاتقع في أيدي إسبان سيئين أو في يد أعداء إسبانيا. مايقلق الملك فيليب الثاني بشكل خاص هو إمكانية نشر أو توزيع كتاب تاريخ الآنديز السميك جداً والذي لم يستطع لاس كاساس أن يكمله والذي مايزال حياً ومسجوناً ومقفلاً عليه في أبرشية سان غريغوريو.

«١٥٧٢: كوزكو»

- توباك آمارو -

يجيء جاراً قدميه على الحصى. يقترب توباك آمارو على ظهر حمار قزم، وعنقه مقيّدة بحبل إلى منصة الإعدام. أمامه يعلن منادي المدينة أنه طاغية وخائن.

يعلو الصخب في الحي الرئيسي.

- «لماذا يأخذونك أيها الآنكا[1] ليقطعوا رأسك؟».

تتحول تمتمات السكان المحليين إلى زئير. تصرخ النساء: «ليقتلونا جميعاً».

عالياً، على منصة الإعدام يرفع توباك آمارو يداً، يضعها على أذنه ويخفضها بهدوء. بعد ذلك، يصمت الحشد.

لم يكن يوجد شيء سوى الصمت حين يقطع سيف الجلاد رأس حفيد هوينا كاباك.

تنتهي مع توباك آمارو أربعة قرون من السلالة الآنكية وأربعون عاماً تقريباً من المقاومة في جبال «ويلكابامبا». الآن ستتوقف عواصف الحرب والإيقاع الخشن للأبواق المحارّية عن مهاجمة وادي كوزكو.

- المقهورون يؤمنون -

سيعود ويتجوّل على الأرض. تعرف ذلك الجبال الأكثر علوّاً. ولأنها أكثر علوّاً ترى المسافة الأكثر بعداً.

كان ابناً للشمس ولامرأة بسيطة.

سجنَ الريح وقيّد والده الشمس ليجعل الزمن يعاني.

رفع الأحجار إلى القمم بالحبال وبنى بهذه الأحجار المعابد والحصون.

تتبعه الطيور أينما اتجه. تحيّيه وتُبهج خطواته. نزفتْ قدماه من الترحال الطويل وحين امتزج دمِ قدميه بالتراب تعلّمنا كيف نحرثه. تعلّمنا الكلام حين قال لنا: «تكلّموا». كان أكثر قوة وشباباً منا.

لم يعشّش الخوف في صدورنا دائماً. لم نرتطم به دائماً كما هو الأمر مع منحدرات ومرتفعات دروبنا الوعرة. تاريخنا طويل. ولدَ تاريخنا في اليوم الذي خرجنا فيه من فم وعيني وإبطي ورحم الأرض.

إسباناري، شقيق إنكاري قطع رأس «إنكاري». تحوّل رأس إنكاري إلى نقود. تدفّق الذهب والفضة من أحشائه المليئة بالبراز.

تعرف ذلك الجبال الأكثر علوّاً. يحاول رأس إنكاري أن ينمو نحو قدميه. ستتجمّع أشلاؤه بالتأكيد في أحد الأيام. وحين يجيء هذا اليوم سيتجوّل على الأرض وستتبعه العصافير.

---

(١) - الآنكا: الملك.

١٥٧٤: مدينة المكسيك

- فعل الإيمان[1] الأول في المكسيك -

منذ أن نشر المنادون مرسوم الاتهامات انهمر الشجب على المهرطقين ومتعددي الزوجات والساحرات والمجدفين.

احتُفل بفعل الإيمان في الأحد الأول لعيد الصوم الكبير من الصباح إلى المساء وبدأتْ محكمة التفتيش تصدر أحكامها على الفزّاعات التي كانت تُجرّ من زنزاناتها ومن غرف التعذيب.

عالياً، على منصة الإعدام الفخمة، محاطاً بالرمّاحين والحشود المبتهجة، يعمل الجلاّد. يقول نائب ملك إسبانيا الجديدة الذي يحضر المشهد جالساً على عرش مخملي واضعاً مخدة تحت قدميه:

- «لايمكن أن يُذْكَر أن حشداً كبيراً في احتفال عام كهذا، أو في أي شيء له قداسة كبيرة سبق وشوهد من قبل».

جُلِدَ صائغان، وناسخ، وصانع أحذية من مائة إلى مائتي جلدة، لأنهم قالوا إنّ الجماع ليس ذنباً مهلكاً. يعاني بعض متعددي الزوجات من عقوبات مشابهة، من بينهم الراهب الأوغسطيني خوان سارميينتو، الذي يوجد في ظهره جرح غير مندمل، يُسَيّرُ ليجدف في السفن لمدة خمسة أعوام.

يتلقى كل من الزنجي دومينغو الذي ولد في المكسيك والهجين ميغيل فرانكو مائة جلدة لأن الأول ينكر وجود الله والثاني جعل زوجته تعترف له. يُجْلَد أيضاً الصيدلي غاسبار ديلوس رييس لأنه قال إنه من الأفضل التعايش مع المرأة بدلاً من الزواج وبأنه جائز شرعياً للفقراء والمظلومين بأن يحنثوا بإيمانهم من أجل النقود.

إلى التجذيف في السفن، السجن الشاق لمسببي الأذى، يذهب اللوثريون واليهود الذين رضعوا هرطقاتهم من أثداء أمهاتهم وبعض الإنكليز من أسطول جون هوكينز وفرنسي قال إن الملك والبابا جبانان.

يختتم إنكليزي من مناجم غوانا جواتو وحلاق فرنسي من يوكاتان حياتهما الهرطقية في المحرقة.

---

(١) - فعل الإيمان: الاحتفال الذي يرافق إصدار الحكم بالموت من قبل محكمة من محاكم التفتيش على امرىء متهم بالهرطقة والذي يتبع بتنفيذ الحكم من جانب السلطات الزمنية.

١٥٧٦: غوانا جواتو

- الرهبان يقولون -

جاءت إلى المكسيك منذ عشرين عاماً قادتها حمامتان إلى غوانا جواتو. وصلت دون أن تصاب بأذى رغم أنها عبرت البحر والصحراء ضلّ الذين كانوا يحملونها طريقهم. أرسلها الملك إلينا ليشكرنا على الثروة التي لاتتوقف أبداً عن التدفق من أحشاء هذه الجبال.

عاشت في إسبانيا أكثر من ثمانية قرون. عاشت في غرناطة في كهف لتختبىء من المغاربة، وحين عثر عليها المسيحيون وأنقذوها لم يجدوا أي جرح في جسدها المتخشّب. وصلت إلى غوانا جواتو سليمة. وبقيت سليمة، تجترح المعجزات. وها هي سيدتنا تمنح العزاء للفقراء والأغنياء بسبب بؤسهم وتحمي من البرد أولئك الذين ينامون خارج المنازل وفي القصور. لاتميّز رحمتها اللامتناهية بين الخدم والأسياد. ولايفشل أي شخص يستدعيها في الحصول على العطف الرباني.

أنقذت فضيلتها كثيراً من الهنود الذين يذهبون إليها تائبين ومؤمنين. بقيت سيف الله الذي يعاقب بغضب عادل الأوثان والهنود المذنبين في المكسيك. المبتلون الذين تضرعوا إليها ودفعوا الصدقات لم يمسسهم الطاعون.

في المناطق الأخرى، يموت الهنود الذين لايقتلهم التيفوئيد من الجوع أو العمل الشاق. تتناثر الجثث في الحقول والساحات وتمتلىء بها المنازل التي مات جميع سكانها ولم يبق أحد يخبر عن ذلك. ينشر الطاعون في أرجاء المكسيك روائح التعفن والدخان، وعلينا نحن الإسبان أن نسدّ أنوفنا حين نمرّ.

١٥٧٦: هوشيميلكو

- الحواري سانتياغو يحارب الطاعون -

حتى الأطفال الرضّع هنا دفعوا الجزية مالاً وذرةً. إذا استمر الطاعون من سيدفع؟ بنت السواعد المحليّة كاتدرائية المكسيك. إذا لم يتوقّف الطاعون من الذي سيزرع هذه الحقول؟ من الذي سيغزل وينسج في المشاغل؟ من الذي سيبني الكاتدرائيات ويعبّد الشوارع؟.

يناقش الرهبان الفرنسيسكانيون الموقف في أبرشيتهم. من بين ثلاثين ألف هندي عاشوا في «هوشيميلكو» بقي فقط أربعة آلاف حين جاء الإسبان وهذا ليس مبالغة. مات الكثيّرون وهم يقاتلون مع هرنان كورتيز وهم يفتحون البلدان ويقتلون الرجال من أجله. مات أيضاً الكثيرون وهم يعملون من أجله ومن أجل بدرو دي آلفاردو. وقتل الطاعون عدداً كبيراً..

يجيء إلى راعي الأبرشيه فراي جيرونيمو منديبيتا الوحي الذي ينقذ.

يحضرون للقيام بالقرعة. يخلط قندلفت معصوب العينين قصاصات الورق في صحن فضي. كتب في كل قصاصة اسم قديس له مكانة رفيعة في البلاط السماوي. يختار القندلفت واحدة. يفتحها الأب منديبيتا ويقرأ: «إنه الحواريّ سانتياغو».

أُعلِنَ من الشرفة لهنود هوشيميلكو وبلغتهم. يتحدث الراهب الرؤيوي راكعاً على ركبتيه، رافعاً ذراعيه: «سيهزم سانتياغو الطاعون».

يعده بمذبح.

١٥٧٧: هوشيميلكو

- الحواري سانتياغو يحارب الطاعون -

كان صوت اصطدام الأذرع يُسْمَع من مقبرة سانتياغو في مساء كل معركة، في أثناء الأعوام الشاقة للغزو، وكان القديس يقاتل مع حشد الغزاة راكباً على حصانه الأبيض، حاملاً رمحاً في يده. كان من عادة القديس سانتياغو أن يقتل الهنود وأن لاينقذهم، وكان الطاعون الذي لايلمس الإسبان يستمّر في إبادة الهنود في «هوشيميلكو» وفي أجزاء أخرى من المكسيك.

بينما كان الليل يرخي سدوله، يسمع الآب منديبيتا، من حجرته صرخات وأنيناً أكثر قوة من أناشيد الملائكة.

يجب أن يتوسط أحد ما إلى الله أو سيتبخر الهنود من هوشيميلكو. يناقش الفرنسيسكانيون الموقف ثانية ويقرّرون أن يجروا القرعة. يختار القدر المبارك سيباستيان ليكون القدّيس الحامي.

يعدونه ببناء مذبح.

١٥٧٩: كويتو

- ابن آتاهواليا -

شاهد بيتو الكاهن الهندي لإقليم أرشيدونا في رؤياه الشيطان في شكل بقرة. قالت له إن الله متضايق جداً من المسيحيين ولن يدافع عنهم، أما غوامي، الكاهن الهندي لتامبيسا فقد قضى خمسة أيام في العالم الآخر. شاهد الأعاجيب وأصغى إلى الإله ويمتلك الآن قوة المطر والإنبعاث. يعلن بيتو وغوامي أن الهنود الذين لاينضمون إلى التمرد سيحصدون الضفادع والثعابين في حقول أبدية الجدب.

ينصّب النبيّان نفسيهما على رأس رماح كثيرة. وفي جنوب شرق كويتو يتمرّد هنود «الكويخـو» ويهاجمون قرى عديدة وينتظرون عبثاً أن يحصل تمرّد في الجبال. يأسر فرانسيسكو آتاهوالبا، ولد الآنكا وقائد الجيش الإسباني متآمري الجبال ويخمد التمرد.

تأتي الهزيمة بعد بضعة معارك. يجبر الإسبان جميع هنود إقليم «الكويخو» والمناطق المحيطة «بكويتو» على حضور إعدام النبيّين بيتو وغوامسي. يُعْرضان في شوارع كويتو، يُعذّبان بكلاّبات حامية، يُشْنقان ويُقطّعان وتُعْرض قطعهما. يراقب الكابتن فرانسيسكو المشهد، جالساً على المقعد الملكي.

١٥٨٠: بونيس آيرس

- المؤسّسون -

أبحر ضابط إسباني منذ نصف قرن تقريباً من «سيغيل» إلى هـذه الشواطىء المجهولة. وظّف كل الثروة التي جمعها من نهب روما في هذه الحملة. أسّس هنا مدينة وحصناً أحاطه بالأكواخ وأبحر في النهر بحثاً عن جبال الفضة والبحيرة الغامضة التي تنام فيها الشمس.

بحث سيباستيان كابوت منذ عشرة أعوام عن كنز الملك سليمان مبحراً في هذا النهر الذي لايُعبّرُ عن اسمه الفضي والذي يوجد فقط وحلٌ على إحدى ضفتيه ورمل على الضفة الأخرى ويقود إلى أنهارٍ أخرى تقود إلى الأدغال.

لم تستمر مدينة بدرودي ميندوزا طويلاً. بينما كـان جنوده الذين دفعهم الجوع إلى الجنون يأكلون بعضهم كان الضابط يقرأ فيرجيل وإيرازموس وينطق بكلماتٍ من أجل الخلود. وفي وقت قصير جداً تلاشى الحلم «ببيرو» أخرى، فرغب أن يعود إلى إسبانيا، إلا أنه لم يصل إلى هناك حياً. فيما بعد، جاء ألونزو كابريرا الذي أحرق بونيس آيرس باسم الملك. استطاع أن يعود إلى إسبانيا وهناك قتل زوجته وانتهتْ حياتهُ في مصح عقلي.

يجيء الآن خوان دي غاري من أسنسيون. وتولد سانتا ماريا ديلوس بونيس آيرس ثانيةً وجاءت مع غاري مجموعة من الباراغويين، من أبناء الغزاة الذين رضعوا من أمهاتهم «الكوراكوانيات» حليبهم الأول واللغة المحلية التي يتحدثون بها.

يُجسّدُ سيف غاري، الملتصق بيده، ظلّ الصليب. تصطك أسنان المؤسّسين من البرد والخوف. يعزفُ النسيم ألحاناً من الحفيف في رؤوس الأشجار، وخلف هذا، في السهول اللانهائية الإمتداد، يتجسّس عليهم الهنود والأشباح بصمت.

١٥٨٠: لندن

- دريك -

ثلاثة أنخاب لذهب السفن الشراعية! تحيا فضة بوتوسي!

تصرخ النساء وتقرع أجراس الكنيسة منبهة: «لقد جاء التنين». أبحر فرانسيس دريك حول العالم في ثلاثة أعوام. عبر خط الإستواء مرتين ونهب البحر الإسباني، سارقاً المرافىء والسفن من تشيلي إلى المكسيك.

يعود الآن بسفينة واحدة وبحارة محتضرين عددهم ثمانية عشر شخصاً، إلا أنه يحضر معه كنزاً يعادل مائة وعشرين مرة المبلغ الذي خُصِّص للرحلة. تُنصِّبُ الملكة إيلزابيث الشريكة الرئيسية وصاحبة الخطة القرصانَ فارساً. يُقامُ الاحتفال على ضفة نهر «التايمز»، على السيف الذي يمنحه لَقَبَهُ نُقِشَتْ كلمة للملكة إيلزابيت: «من يطعنك يادريك يطعنني». يقدم لجلالتها وهو راكع على قدميه بروشاً سرقه في المحيط الهادي.

مرتفعةً فوق الضباب والسخام، تتربّع إليزابيت على قمة امبراطورية ناشئة. إنها ابنة هنري الثامن وآن بولين التي قُطِعَ رأسها في برج لندن لأنها أنجبت فتاةً. تلتهم الملكة العذراءُ عشّاقها وتستخدم قبضتيها ضد خادماتها وتبصق على ملابس أفراد حاشيتها.

سيصبح فرانسيس بيكون فيلسوفَ الملكة وقاضي قُضاتها. وسيصبح ويليم شكسبير شاعرها وفرانسيس دريك قائد سفنها. مُحتَقِرُ العواصفِ، سيّدُ الأشرعةِ والرياح، القرصان دريك يتحرّك في البلاط كأنه يتسلّق الصواري والأشرعة. إنه قصير وبدين له لحية شديدة الاحمرار، ولد في البحر ورُبِّي على خشيةِ اللهِ. إن البحر منزل له، ولايشّن أي هجومٍ إلا بعد أن يضغط الإنجيل على صدره، الإنجيل الذي يضعه تحت ثيابه.

١٥٨٢: مدينة المكسيك

- مالونُ جلد المجذوم؟ -

يتقدّم المصباح منتهكاً الظلمة مقتلعاً منها وجوه الأشباح وأيديها ويثبتها إلى الجدار بالمسامير.

لايلمس المسؤول شيئاً، يخبىء يديه المقفّزتين تحت ردائه. عيناه نصف مغمضتين وكأنه خائف أن تنتقل العدوى إليهما. لقد جاء ليشرف على تطبيق النظام الجديد في مستشفى سان باولو. أمر نائب الملك ألا يختلط المرضى الذكور، وأن يُوضَعَ البيض والهجن في غرفة واحدة وأن يوضع السود والخلاسيون في غرفة أخرى والهنود في غرفة منفصلة. ويأمر أن توضع جميع النساء مهما كانت وضعيتهن أو لونهن في غرفة واحدة.

١٥٣٨: كوبا كابانا

ـ أم الإله أيمارا ـ

يعبران بحيرة تيتيكاكا في قاربٍ مصنوع من عشب التيغا. تسافر معه مرتدية ثيابَ الإحتفال. مُوِّه رداؤها، بالذهب في مدينة لاباز. حين يصلان يضع رداءه عليها ليقيها من المطر ثم يدخلان إلى قرية «كوباكابانا». كان المطر يلسع الحشود التي جاءت لتستقبلهم.

يدخل فرانسيسك تيتو يوبانكوي معها إلى المعبد ويزيل غطاءها. يأخذها إلى المذبح تعانقهم عذراء «كوباكابانا» جميعاً من مكانها المرتفع. ستحمي البشر من الطاعون والحزن وطقس شهر شباط السيء.

صاغها النحات الهندي في بوتوسي اشتغل عامين ليمنحها الجمال اللائق بها. على الهنود أن يرسموا أو ينحتوا صوراً تحاكي النماذج الأوروبية فقط ولم يرغب فرانسيسك تيتو يوناكوي أن ينتهك الحظر. لقد نوى أن يصنع عذراء مماثلة لسيدتنا في «كانديلاريا»، إلا أن يديه صاغتا هذا الجسد الآنديّ ذا الرئتين الكبيرتين الجائعتين للهواء والجمجمة الكبيرة والرجلين القصيرتين والوجه الهندي العريض الذي يحتوي شفتين مكتنزتين وعينين لوزيتين تحدقان بحزن نحو الأرض المصابة بالكدمات.

١٥٨٣: سانتياغو ـ تشيلي

ـ كان حراً لوهلة ـ

يحاول أن ينهض مستنداً على يديه إلا أنه يسقط على وجهه. يحاول أن يتكىء على مرفقه فينزلق. يحاول أن يقدّم ركبته فيغوص في الوحل.

كان يبكي تحت المطر دافناً وجهه في الوحول.

لم يبكِ هرناندو مارافيلا حين جُلد بالسوط مائتي جلدة وهو يُجَرّ في شوارع ليما إلى المرفأ، ولم تُلْمَحْ دمعة واحدة على وجهه حين جُلد مائتي جلدة في سانتياغو.

يسوطه المطر الآن مستخلصاً الدم الجافّ والوحول.

قالت له مالكته الأرملة دونا أنطونيا نابيا منذ زمن طويل حين أحضروا العبدَ الهاربَ إليها: «أيها الحقير، هكذا تعضّ اليد التي تغذيك!».

هرب هرناندو مارافيلا لأنه شاهد في أحد الأيام امرأةً جميلةً كصورةٍ ولم يقدر على مقاومة اللحاق بها.

قبضوا عليه في ليما وحقّقت معه محكمة التفتيش وحُكم عليه بأربعمائة جلدة لأنه قال إن الشيطان هو الذي يُرتّبُ الزواج وأن الأسقف لايساوي شيئاً وأنه يتبرّز عليه.

هذا الذي ولد في أفريقيا حفيداً لطبيبٍ وابناً لصيادٍ يلتفّ على نفسه ويبكي. كان جلده ينسلخ بينما المطر ينهمر على سانتياغو.

١٥٨٣: تلاتيلولكو

- ساهاغن -

تغني الحمامة المطوقة.

تقدّم امرأة الأزهار إلى حجر حُطِّم إلى قِطَعٍ. تقول المرأة للحجر: «إلهي! كم عانيت ياإلهي!».

يدلي الحكماء العجائز المحلّيون بشهاداتهم لفراي برناردينو دي ساهاغن متوسلين: «دعنا نموت بما أن آلهتنا ماتت».

فراي برناردوينو دي ريبييرا الذي ولد في ساهاغن: ابن القديس فرانسيس، حافي القدمين ويلبس رداءً كهنوتياً مرقعاً، الذي يبحث عن الفردوس وعن ذاكرة المقهورين، سافر أكثر من أربعين عاماً عبر المكسيك وإقطاعيّة ويهوسينكو وتولا وتولتيكس وعبر منطقة تيهوكو لينقذ صور وكلماتِ الزمن الماضي. أنقذ ساهاغن ومساعدوه الشبان في كتاب التاريخ العام لإسبانيا الجديدة الذي يتألف من إثني عشر مجلداً أصوات الهنودِ القديمة ومهرجاناتهم وطقوسهم وآلهتهم وطريقتهم في حساب مرور الأعوام والنجوم وأساطيرهم وقصائدهم وطبهم وحكاياتهم عن العصور الغابرة وعن الغزو الأوروبي. إن التاريخ يغنيّ في هذا العمل الأول العظيم للأنثروبولوجيا الأميركية.

أمر الملك فيليب الثاني منذ ستة أعوام بالإستيلاء على هذه المخطوطات المحلية التي ترجمها ساهاغن ونسخها كي لايبقى لها أي أثر. أين انتهت هذه الكتب التي قيل إنها تُخلّدُ وتنشر عبادة الأوثان؟ لاأحد يعرف. لم يستجب مجلس الآنديز لتوسلاتِ المؤلفين والناسخين اليائسة. ماالذي فعله الملك بأربعين عاماً من حياة ساهاغن وبقرونٍ عديدةٍ من حياة المكسيك.؟ يقولون في مدريد إن الصفحات استُخدمت لتعليب التوابل.

لايستسلم العجوز «ساهاغن». في سن الثمانين. يتشبّث ببعض الأوراق التي أُنْقِذَتْ من الكارثة ويُملي على طلابه في تلاتيلولكو السطور الأولى من عمل جديد سيدعى فن الكهانة فيما بعد سيذهب ليعدّ تقويماً مكسيكياً كاملاً. حين ينهي التقويم يبدأ بتأليف قاموس ناهواتليّ ــ إسباني لاتيني. وبعد القاموس...

في الخارج تعوي الكلاب خائفة من المطر.

١٥٨٣: آكوما

ـ مملكة سيبولا الحجرية ـ

استجاب الكابتن أنطونيو دي أسبيخو الذي صنع ثروةً سريعةً على حدود المكسيك لدعوة سيرانة[1] مدن الذهب السبع فقامَ على رأس بعض الخيالة المحاربين برحلةٍ (أوديسة) إلى الشمال، وبدلاً من مملكة سيبولا الخرافية عثر على صحراء شاسعةٍ تتناثر فيها أحياناً بعض القرى على شكل حصون. لم يكن هناك أحجار ثمينة تتدلى من الأشجار لأنه لم يكن يوجد أشجار إلاّ في الأودية النادرة، ولم يكن هناك توهج ذهبي سوى ذلك الذي كانت الشمس تستخرجه وهي تضرب الصخور بقسوة.

نصب الإسبان علمهم في تلك القرى ومايزال الهنود لايعرفون أنهم سيُجْبرون حالاً على تغيير أسمائهم وبناء معابد لعبادة إله آخر رغم أن الروح العظيمة قالت لهم في الماضي أنَّ سلالة جديدة، سلالة ذات ألسنة مثل الشوكة، ستصل جالبةً معها الجشع والخيلاء. يقدّم الهنود للكابتن أسبينو الذرة والكعك والديكة والجلود ويرحب به سكان الجبال العليا ويحضرون الماء والذرة.

فيما وراء ذلك يحلّق حصن بُني من الطين والصخور في السماء الأرجوانية. من حافة الهضبة تهيمن قرية الآكوماز على الوادي المخضرّ. بحقول الذرة التي ترويها الأقنية والسدود. الآكوماز، أعداء النافاخوس مشهورون بوحشيتهم. حتى فرانسيسكو فاسكويز دي كورنادو الذي جاء إلى هنا منذ أربعين عاماً لم يتجرأ على الإقتراب منهم.

يرقص الآكوماز على شرف أسبيخو ويضعون عند قدميه الثياب الملونة والديكة، قرونَ الذرة وجلود الأيائل.

بعد بضعة سنوات يرفضون دفع الجزية. سيستمر الهجوم ثلاثة أيام وثلاث ليال، ستُقْطَع رِجْلٌ لكل من بقي على قيد الحياة بضربة فأسٍ واحدة وسَيُرْمى الزعماء من فوق الجرف.

ـ أغنية الليل، قصيدة نافاخوسيه ـ

أيها المنزل المصنوع من الفجر
أيها المنزل المصنوع من ضوء المساء
أيها المنزل المصنوع من سحابة داكنة

(١) ـ السيرانة: واحدة من مجموعة كائنات أسطورية لها رؤوس نسوة وأجساد طيور كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك.

يامن يوجد على بابه سحابة سوداء.
تتدلى منها خيوط سوداء...
والذي يقف البرق فوقه
أتمنى أن أمشي سعيداً
أتمنى أن أمشي سعيداً مع شلالاتٍ كثيرة
أتمنى أن أمشي سعيداً مع نباتاتٍ كثيرة
أتمنى أن أمشي سعيداً على خط اللقاح
أتمنى أن أمشي سعيداً
ويكون جميلاً ما ينتظرني
ويكون جميلاً ما خلفته ورائي
ويكون جميلاً ماهو فوقي
وما هو تحتي
وما هو حولي
ويصبح الجمال غاية كلّ شيء.

١٥٨٦: كوبي

- الطاعون -

لاتلمع الأنفلونزا كالسيف الفولاذي، لكن لايستطيع أيّ هندي أن يتفاداها. يقتل الكزاز والتيفوئيد من الناس أكثر مما يستطيع ألفٌ من الكلاب الرمادية التي لها أعينٌ نارية ومخالب مزبدة أن تقتل.

يهاجم الجدريُّ بشكل سري، أما البندقية فتهاجم بصوت صاخب وسط غيوم الشرر والدخان الكبريتي، لكن الجدري يدمّر الهنود أكثر مما تدمرهم البنادق.

إن رياح الطاعون تدمّر هذه الأقاليم، تضرب البشر وترميهم أرضاً تلتهم أجسادهم، تأكل أعينهم وتغلق حناجرهم وتفوح من الجميع رائحة التعفّن.

يرنّ في هذه الأثناء صوت غامض فوق البيرو. يدوس على الطاعون ويخترقُ ابتهالاتِ الذين يحتضرون، يقول هذا الصوت الذي يهمس من أذنٍ إلى أخرى: «كلّ من يرمي الصليبَ خارجَ بيته سيعود من الموت».

١٥٨٨: كويتو

- حفيد آتاهوالبا -

تتعرّق الأعمدة والأرابيسك والزخارف ذهباً. يصلّي القديسون والعذراوات المعبودات اللواتي يرتدين أرديةً مموّهة وكورس الملائكة ذات الأجنحة الذهبية الصغيرة ذهباً: هذا واحدٌ من المنازل التي تقدمها كويتو له، هذا الذي ولد في بيت لحم منذ قرونٍ في معلف تبن وماتَ عارياً.

تمتلك عائلة الملك آتاهوالبا مذبحاً في كنيسة فرانسيس هذه، في مكان الشرف، في جناح الكنيسة العظيم قرب المبشّر. يرتاح الموتى عند قدمِ المذبح. يشغل المدفن الرئيسي ولد آتاهوالبا الذي عُمِّدَ باسم فرانسيسكو مثل والده وقاتل والده. كان يجب على الله أن يحفظ العظمة للكابتن فرانسيسكو آتاهوالبا لو كان يصغي، كما يقولون، لوجهات نظر القادة بانتباهٍ أكبر من الذي يمنحه لصرخاتِ المَقُودين عرفَ ابنُ الملك كيف يقمعُ الانتفاضاتِ المحلية في الجنوب. أحضر إلى كويتو كأسرى زعماء كارناريبامبا وكويس وكوفيء بمكتب مدير هذه المدينة للشؤون العامة.

جاءتْ بنات فرانسيسكو وبنات أخيه ليضَعْن صورةَ القديسة كاترين التي نحتها نحاتٌ من طليطلة يُدعى خوان بوتيستا فاسكويز في مكان مرتفعٍ على مذبح آتاهوالبا. أرسل الصورة من إسبانيا ألونزو، ابن فرانسيسكو وماتزال الأسرة لا تُدرِك أن ألونزو مات في مدريد بينما كانت القديسة كاترين تعبرُ المحيط لتصل إلى هذه الكنيسة.

مات ألونزو آتاهوالبا حفيد الملك في السجن. كان يستطيع العزف على القيثارة والكمان وموتّرة المفاتيح. كان يرتدي فقط الملابس الإسبانية التي يُفصِّلها أفضل الخياطين، ولم يدفع أجرة منزله لوقتٍ طويل. لا يُسجَنُ السادةُ بسبب الديون إلا أن ألونزو ذهب إلى السجن بعد أن شجبه أفضل الخياطين في مدريد وتجار الجواهر وصانعو القبّعات والقفّازات. ولم يدفع للمنحوتة التي تضعها الآن أسرتُه بين الأكاليل الذهبيّة على المذبح المموّه بالذهب.

١٥٨٨: هافانا

- القديس مارشال يحارب النمل -

يستمر النمل المفترس في قتل البشر وتهديم الجدران. يقطع الأشجار ويلتهم المزارع والفاكهة والذرة ولحم الشاردين.

وبسبب عدم فعاليةِ راعي الأبرشية القديس سيمون ينتخب مجلس المدينة جماعياً حامياً آخر.

تَعِدُ المدينة بأن تحتفل بيومه في كل عام. إن القديس مارشال هو الدرع الجديد لهافانا الذي يحميها من النمل المفترس. يُعْرَف القديس مارشال الذي كان أسقفاً «لليموغس» منذ ثلاثة قرون كأخصائي، ويقال إن نفوذه كبير عند الله.

١٥٨٩: كوزكو

- يقول إنه امتلك الشمس -

مُتَصَلِّباً تحت الأغطيةُ يُخفِّفُ مانسيو سيرادي لوكويزامو الحمل عن ضميرهُ. يملي أمام الكاتب بالعدل ويُقسم: «إننا اكتشفنا هذه المناطق في ظرفٍ كهذا حيث لم يَكُن يوجد في أيٍ منها لصٌ واحد أو رجلٌ شريرٌ أو عاطلٌ عن العمل ولم يكن توجد امرأة فاسقة أو سيئة...».

لا يريدُ ضابط بيزارو العجوز أن يرحل من هذا العالم دون أن يقول للمرة الأولى: «إن الأراضي والجبال والمناجم والمراعي وأراضي الصيد والغابات وجميع المصادر حُكمت أو قُسّمت بطريقة عرفها الجميع وحصلوا على ملكيتهم دون أن يحتلها أو يأخذها أي شخص آخر...».

إن دون مانسيو هو آخر المتبقين على قيد الحياة من الجيش الذي غزا البيرو. كان منذ أكثر من نصف قرن أحد أولئك الذين غزوا مدينة «كوزكو» المقدّسة وسرقوا كنوز مقابرها ومنازلها وهدموا أعمدة معبد الشمس المزين بالذهب التي كان تألقها يجعل أيّ شخص يدخل يبدو كجثة. يقول إنه تلقّى الجزء الأفضل من الغنيمة: حصل على وجه الشمس الذهبي الكبير ذي الأشعة النارية وألسنة اللهب، التي غزت المدينة وأعمت سكان كوزكو عند ساعة الفجر.

رهن دون مانسيو الشمس في لعبة ورق وخسرها في ليلة واحدة.

١٥٩٢: ليما

- إحراق المهرطقين في ليما -

تحمل الريح رماد ثلاثة لوثريين إنكليز أسروا في جزيرة بونا. أحرق أحدهما ويدعى هنري أوكسلي حياً لأنه لم يتخلَّ عن دينه.

يلتفُّ الدخان صاعداً من وسط دائرة محاطة بالرماح الطويلة بينما يزداد الحشد اهتياجاً ومحكمةُ التفتيش تقرأ أحكاماً بالجلد والآلام الأخرى والإذلال.

عوقب كثيرون لأنهم تزوّجوا مرتين أو بسبب الجماع وجرائم أخرى متعلقة بالآثام الجسدية. وحُكم على راهب دومينيكاني وآخر فرانسيسكاني وآخر أوغسطيني وآخر جزويتي بتهمة إغواء الراهبات. وحكم على الجندي خوان ديبورتيلا لأنه أقسم بأذني الله. حُكم على إيزابيل دي أنكولو وهي زوجة جندي بتهمة أنها قرأت كلمات التكريس بصوت منخفض كي يرغب بها الرجال. وحُكم على البحار بارتولومي ديلاغاريس لأنه أكّد أنه لايوجد إثم كونه يدفع مقابل الجنس وهو عازب. حُكم على الحلاق لورنزو ديلابينا لأنه قال حين احتلَّ أحدهم مقعد زوجته في الكنيسة: «إذا كانت هذه هي الطريقة المتبعة فهذا يعني أنه لايوجد إله».

حُكم على بدرو لويس أنريكويز، من مدينة سيفيل، بالسجن لمدة عشرة أعوام لأنه أكّد أنه إذا أخذ المرء ديكاً إلى حقل يخلو من أصوات الكلاب في منتصف الليل وقَطّع رأسه فإنه سيعثر على حجرة صغيرة، بحجم حبة بندق وإذا حك شفتيه بها هذا سيجعل المرأة الجميلة الأولى التي يصادفها تموت من الحب ولأنه أكّد أنه إذا قتل المرء هرّة في شهر كانون الثاني ووضع حبة لوبياء في كل مفصل منها ودفنها، فإن حبات اللوبياء التي تنمو منها تجعل كلّ من يتذوقها وهو ينظر في المرآة لامرئياً ولأنه قال أيضاً إنه كان شخصاً فظاً ومعالجاً وعلامة على ذلك كان يضع صليباً على صدره وآخر في سقف حلقه ولأنه ادّعى أنه شاهد في السِجن عجائب وشمّ أطيب العطور.

١٥٩٣: كواراباي

ـ آنشييتا ـ

أشار «إغناسيو دي ليولا» إلى الأفق وأمر: «اذهب وأضرم النار في العالم».

كان خوسيه آنشييتا أصغر الرسل الذين أحضروا رسالة يسوع والأخبار الطيبة إلى غابات البرازيل. بعد أربعين عاماً يلقبه الهنود كارايبيبي، الرجل المجنح، ويقولون إنه حين يرسم علامة الصليب يوقف العواصف ويحوّل الأسماك إلى لحم خنزير والرجل الذي يحتضر إلى بطل. تهبط ملائكة من السماء لتعلن له عن وصول المراكب الشراعية أو عن هجوم الأعداء. يرفعه الله عن الأرض حين يصلي. جسده النحيل الذي يحرقه قميصه النسيجي يصدر الأشعة حين يجلد نفسه متقاسماً العذاب مع ابن الله الوحيد.

ستشكره البرازيل بسبب معجزاته. من يد هذا القدّيس ذي الثياب البالية جاءت القصائد الأولى التي كتبت على هذه الأرض والقواعد اللغوية التوبية ــ الكوارانية الأولى والمسرحيات الأولى، ومسرحيات الأسرار المقدّسة المكتوبة باللغة الفطرية، والتي تنقل الإنجيل مازجة الشخصيات المحلية بالأباطرة الرومانيين والقديسين المسيحيين. كان آنشييتا أول مدرس وطبيب ومكتشف ومؤرخ لحيوانات ونباتات البرازيل في كتاب يخبرنا كيف يغيّر الكواراس لون ريشه وكيف تبيض «البيوبوا» في الأنهار الشرقية وكيف يعيش الشيهم[1].

يتابع في سن الستين تأسيس المدن وبناء الكنائس والمستشفيات ويحمل على كتفيه النحيلين الألواح الخشبية الثقيلة مع الهنود. يبحث عنه البشر والطيور كأنهم ملهمون بنورانيته المتواضعة والنظيفة. يمشي فراسخ عديدة دون أن يتذمر أو أن يسمح لهم بأن يحملوه في الشباك عبر هذه الأقاليم حيث يمتلك الجميع لون الحرارة ويتآكلون في لحظة ليولدوا ثانية، الفاكهة التي صارت عسلاً، الماء، الموت، بذار الفاكهة الجديدة: الأرض تغلي، البحر يغلي على نار بطيئة، وآنشييتا يكتب على الرمل بعصاه أشعاره لخالق الأبدية.

---

(١) ـ الشيهم: حيوان شائك من القوارض.

١٥٩٦: لندن

- رالي -

السير والتر رالي، مدير التبغ والصانع العسكري المغرور ينفث ثعابين دخان من أنفه وحلقات ودوائر دخانية من فمه وهو يقول: «إذا قطعوا رأسي فسيسقط سعيداً وغليوني بين أسنانه؟».

يعلق صديقه: «ستنتن».

لم يكن يوجد في البار سوى عبد أسود صغير ينتظر صابراً في الزاوية. يروي رالي كيف اكتشف الجنة الأرضية العام الماضي في غويانا هناك، حيث تختبىء إلدورادو. يلعق شفتيه متذكراً طعم الفاكهة وبيض الإغوانة ثم يغمض عينيه واصفاً فاكهة وأوراقاً لا تسقط أبداً عن رؤوس الأشجار.

يقول: «اسمع ياأخي، إن مسرحيتك عن العشاق الشباب... نعم، تلك، التي تدور أحداثها في فُرَجِ الغابة، إنها مدهشة. تدور أحداثها في فيرونا وتفوح برائحة القفص. لقد اخترتَ الخلفية الخاطئة ياعزيزي، ذلك الهواء، هناك...».

يعرف صديق رالي، الأصلع ذو العينين اللعوبتين أن غوّيانا هي مستنقع حيث السماء سوداء دائماً بسبب البعوض، إلا أنه يصغي صامتاً ويوافق لأنه أيضاً يعرف أن رالي لايكذب.

١٥٩٧: سيفيل

- مشهد في السجن -

جرحه الأتراك. هاجمه القراصنة وجَلَدَه المغاربة. حرمه القساوسة من الكنيسة. سجن في الجزائر وفي كاسترو ديليريو. والآن هو سجين في سيفيل. جالساً على الأرض قرب الفراش الحجري يغمس قلمه في المحبرة ويتساءل. عيناه مثبّتتان على لهب الشمعة ويده الطيبة متوازنة في الفراغ.

هل للإلحاح قيمة؟ مايزال جواب الملك فيليب مؤلماً، حين طلب منه وللمرة الثانية عملاً في أميركا: «ابحث عما يناسبك هنا». وإذا كانت الأشياء قد تغيرت منذ ذلك الوقت، فإنها تغيّرت نحو الأسوأ. كان يمتلك سابقاً أمل الإستجابة على الأقل. إلا أن الملك المؤتزر بالسواد والمفصول عن العالم لم يعد منذ ذلك الوقت يتحدث مع أحد سوى مع أشباحه داخل جدران الأسكوريال.

ميغيل دي سرفانتس وحيد في زنزانته ولايكتب للملك... ولايطلب العمل في أي مكتب فارغ في الآنديز. يبدأ على صفحة بيضاء برواية مصائب شاعر فارس، أحد أولئك الفرسان الذين يمتلكون رمحاً مرمياً في المعلف وسيفاً صدئاً ودرعاً مهترئاً وجواداً ضعيفاً وكلباً جباناً.

ترنّ أصوات كئيبة في السجن لكنه لايسمعها.

١٥٩٨: بوتوسي

ـ قصة فلوريانا روزاليس
امرأة بوتوسي الطاهرة ـ
(عرض موجز للقصة نقله بارتولومي آرزانس أورسواي فيلا)

عمّدوها باسم فلوريانا بسبب جمالها العظيم الذي بدا منذ أن ولدت كزهرة جميلة ورشيقة ولأن اسم والدتها كان آنا.

كانت الشابة المدهشة التي ربيت على الفضيلة في عزلة المنزل تتجنّب أن ترى أحداً أو يراها أحد إلا أن هذا أشعل رغبات طالبي يدها الذين أحاطوا بها منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها. كان الأكثر نجاحاً في متابعة طلب يدها دون خوليو شانسير مالك المنجم والكابتن رودريغو دي ألبوكويركي وحاكم توكومان الذي مرّ من هنا في طريقه إلى «ليما» وتريّث في بوتوسي بعد أن شاهد فلوريانا في الكنيسة.

بدافع من الضغينة المحضة ولأنه رُفِضَ، يتحدّى حاكم توكومان والد فلوريانا في مبارزة ويجرحان بعضهما قرب نبع إلى أن تفصل بينهما بعض السيدات من اللواتي لم تنقصهن الشجاعة.

احترقت فلوريانا غضباً من رؤية والدها مجروحاً وقرّرت أن تنتقم بيدها. أرسلت تخبر الحاكم أنها ستنتظره مساء غد في حانوت معيّن حيث ترغب بالتحدث معه دون أن يراهما أحد.

ارتدى الحاكم أفضل ثيابه حتى بدا فارغاً ومزهواً بإفراط وكانت هذه رذيلة سيئة في الرجال الذين درسوا في مدرسة «هليوغا بالوس» الذين قال عنهم «هيروديانو» أنه احتقر الملابس الصوفية الرومانية واليونانية وارتدى ألوانا ذهبية وأرجوانية مزينة بالأحجار الثمينة على النمط الفارسي، كما يذكر «لامبرايديو». وصل الحاكم بثيابه الأنيقة في الوقت المحدّد حيث ظهرت فلوريانا حاملة معها بين الأزهار الجميلة أفعى غضبها السامة. أخرجت من كمّها موسى حاداً واندفعت إليه كلبوة لتقطع وجهه وهي تصبّ لعناتها عليه. تجنّب الحاكم الموسى بيده وأشهر، خنجراً. متيقظة للخطر، القت فلوريانا على وجهه كومة من الملابس ثم أمسكت بيديها عصا كبيرة وختمت على قدره. لقد ضربت الحاكم ضربة بطحته أرضاً.

حاول والدا فلوريانا المهمومان والخائفان، أن يخبآها في منزلهما إلا أن هذا كان مستحيلاً، إذ جاء الحاكم والسلطة القضائية العليا والشرطة راكضين ولم يكن أمام فلوريانا من بديل سوى أن تصعد إلى غرفتها وترمي نفسها من النافذة إلى الشارع. شاء الله أن تعلق تنورتها بنتوء من إطار النافذة فعلقت به ورأسها متدل إلى الأسفل.

أخبرت الخادمة دون سانشيز فارفان الذي كانت تعرفه وتعرف أنه يحب سيدتها أن يذهب إلى الزقاق خلف المنازل ليرى إذا كانت فلوريانا هناك لأنها رمت نفسها لتوها من النافذة. ولكن حين شاهد الكابتن رود ريغو دي آلبوكويركي دون خوليو يتحدث بشكل سريّ مع الخادمة تبعه إلى الزقاق.

وصل دون خوليا حين كانت فلوريانا متدلية وهي تتوسّل طالبة المساعدة وقد امتلكها الخوف وصارخة أنها تختنق. اقترب حبيبها الفارس ومّد ذراعيه وأمسكها من كتفيها ودفعها بقوة ساقطاً معها على الأرض.

في هذه اللحظة جاء الكابتن رود ريغو متفوهاً بكلماته الغرامية ثم غطّى فلوريانا بردائه ورفعها. حين شاهد دون خوليو ذلك اعتملت فيه الغيرة فنهض وطعن الكابتن بخنجره قائلاً له إنه خائن وضيع. سقط الكابتن إلى الأرض بجرح مهلك في صدره وبدأ يتوسّل طالباً الإعتراف، حين سمعت فلوريانا ذلك لعنت قدرها ومصائب شرفها ورحلت بسرعة كبيرة.

ارتدت فلوريا ثياباً هندية لتهرب من بلدة «بوتوسي» ولكن حين كانت على وشك امتطاء بغل، يُبَلِّغْ أحدهم الحاكم فيجيء إلى المكان ليزجّها في السجن. حين شاهد الحاكم فلوريانا اخترق الطفل الأعمى الذي يدعى كيوبيد قلبه بسهم مريع. أمسكها من يديها لاهثاً وحملها إلى القصر.

في الساعة العاشرة من تلك الليلة، أي في الساعة التي كان عليها أن تدخل فيها إلى غرفة الحاكم ربطت فلوريانا حبلاً إلى الشرفة وهبطت إلى يدي خوليو الذي كان ينتظرها في الأسفل. طلبت الشابة من دون خوليو قبل أن تتحرك خطوة واحدة أن يقسم أن لا يمسّ طهارتها.

وحين اكتُشِفَ أمر هربها وأحدقَ بهما الخطر حمل دون خوليا فلوريانا على كتفيه وركض بها إلى ساحة ديل غاتو البعيدة. طار فوق الأحجار والوحل تحت سيل من التعرّق وحين استطاع أخيراً أن يجلس ليستريح، وبعد أن أنزل فلوريانا عن ظهره انهار فجأة.

ظانة أنه أغمي عليه وضعتْ رأس دون خوليو في حضنها، وبعد أن اكتشفت أنه مات قفزت مرعوبةً وهربت إلى «سان لورينزو» في شهر آذار من عام ١٥٩٨ .

بقيت هناك مختبئة وقـرّرت أن تحافظ على طهارتها الدائمة وأن تستمر إلى نهاية عمرها خادمة مطيعة لله.

ـ دوبيتات[1] إسبانية للغناء والرقص ـ

رأيت رجلاً يعود إلى الحياة
بعد أن تلقى ألف طعنة رمح

---

(١) ـ الدوبيت: مقطع شعري مؤلف من بيتين.

وفيما بعد رأيته يموت
من نظرة واحدة فقط.

في أعماق البحر
تنهّد حوت مراراً
فروت تنهداته هذه الحكاية:
إن من يحب، يتألم.

أريد اليوم أن أغنّي
لأن الأقدار ستجلب الدموع
إلى عينيّ غداً.

١٥٩٨: مدينة بنما

- أوقات النوم والقدر -

يريد سيمون توريس، صيدلي بنما، أن ينام إلا أنه لايستطيع أن يزحزح عينيه عن ثغره في السقف. كان جفناه ينفتحان ويحدقان بالثغرة كلما أغمضهما. يشعل سيمون غليونه ويدخن محاولاً أن يبعد البعوض بالدخان وبيده. يلتفّ ويتقلّب مبلّلاً ومحترقاً في الفراش الذي التوى من جرّاء الصدمة التي تعرّض لها في ذلك اليوم. تغمزه النجوم عبر الفتحة ويودّ أن يتوقّف عن التفكير، وهكذا تمرّ الساعات إلى أن يصيح الديك إما ليعلن عن النهار أو ليدعو الدجاجات.

منذ اسبوع نزلت امرأة من السقف وسقطت على سيمون.

تلعثم الصيدلي: «من، من، من أنت؟».

قالت وهي تمزق ثيابها: «لانمتلك وقتاً طويلاً».

نهضت في الصباح متألقة ومتلألئة وارتدت ثيابها بسرعة كبيرة.

- «إلى أين أنت ذاهبة؟».

- «إلى نومبر دي ديوس. تركتُ الخبز هناك في القرن».

صرخ الصيدلي: «إلا أنه يبعد عشرين فرسخاً».

صحّحت له: «ثمانية عشر فقط». وقبل أن تختفي قالت له: «كن حريصاً على نفسك. كلّ من ينام معي يفقد ذاكرته».

١٠٩٩: كويتو

- هنود أزميرالداس الذين هم من أصل أفريقي -

يبقون مستيقظين، لايغمض لهم جفن. يمتلئون بالشكوك. هذه الفرشاة التي تسرق صورتهم، ألن تسرق أرواحهم منهم؟ الفرشاة سحر مثل المرآة، وتمتلك الناس كالمرآة.

يجبرهم البرد المرعب لكويتو على السعال بين فينة وأخرى ويزأر الفنان بهم. متعبين وشبه مختنقين من الأطواق يستأنفون وضعياتهم ويبقون متقليين إلى أن يعطسوا ثانية. جاؤوا إلى هذه المدينة منذ بضعة أيام ومايزالون لايستطيعون أن يفهموا لماذا جاء هؤلاء البشر الأقوياء ليعيشوا في مكان بارد كهذا ولماذا تمتلك المنازل أبواباً ولماذا تحتوي الأبواب أقفالاً ومصاريع.

دفعت العاصفة منذ نصف قرن، سفينة إلى الصخور الساحلية، قرب فم نهر، أزميرالداس. كان يوجد في السفينة عبيد من غينيا سيباعون في ليما. انطلق السود وضاعوا في الغابات. بنوا القرى وأنجبوا أطفالاً من النساء المحليات وتكاثر هؤلاء الأولاد. من بين الثلاثة الذين يرسم صورتهم الآن أندريه سانشيز كاليك، يوجد إثنان ولدا من ذلك التمازج الأفريقي مع النساء الإكوادوريات. أما الثالث، فرانسيسكو دي آروبي فقد جاء من غينيا. كان عمره عشرة أعوام حين تحطّمت السفينة.

ألبسوا ثياب السادة: أردية وعباءات، أكماماً مخرّمة وقبّعات كي لايتركوا انطباعاً سيئاً لدى الملك حين يتلقى في مدريد صورة أملاكه الجديدة، البرابرة الذين كانوا لايقهرون حتى هذا الوقت. وضعت رماح في أيديهم وعقود من الأسنان والأصداف على ثيابهم الإسبانية ووضعت على وجوههم تزيينات ذهبية تخترق آذانهم، ومناخيرهم وشفاههم.

١٠٩٩: نهر شاكريز

- الحكماء لايتحدثون -

هذا هو الطريق الأكثر إشعاعاً على الأرض. من البحر إلى البحر تنطلق قافلة الفضة الطويلة. خطوط لاتحصى من البغال تحمل عبر الغابة معادن بوتوسي في طريقها إلى السفن الشراعية المنتظرة في بورتوبيلو.

تواكب قرود صغيرة قافلة الفضة عبر بنما وهي تصرخ دون توقف ساخرة من البغّالين وتقذفها بثمار الغوافة.

كان فراي دييغو دي أوكانا يراقبها بإعجاب من ضفة نهر «تاكريز». لكي تعبر النهر، تشكل القرود سلسلة تبدأ من الشجرة وكل واحد منها يمسك الآخر بذيله إلى أن تتأرجح السلسلة وتجمّع القوة التي تقذفها بعنف إلى أعلى أغصان الضفة الأخرى.

يجيء إليه هندي من البيرو يحمل متاعه ويقول له: «أيها الأب، إنهم بشر. إنهم لايتحدثون كي لايلاحظ الإسبان ذلك لأنهم إذا عرفوا ذلك سيرسلونهم إلى العمل في المناجم».

١٥٩٩: لاامبريال

- سهام اللهب -

ينشب التمرّد على شواطىء المحيط الهادىء وتهزّ الأصداء سلاسل جبال الآنديز.

جاء غارسيا أونيز ليولا ابن أخ القديس أغناطيوس إلى هنا من البيرو وهو مشهور بأنه صياد لايكلّ وقاتل محترف. هناك أسر توباك أومارو، آخر الآنكيين، ثم عيّنوه حاكماً على تشيلي ليروّض الآروكانيين. هناك قتل الهنود وسرق الخراف وأحرق المحاصيل دون أن يترك نبتة واحدة. الآن يعرض الآروكانيون رأسه على رمحٍ.

يستعمل الهنود عظام المسيحيين كأبواق تعلن الحرب بأقنعة حربية ودروع جلدية، تدمر خيالة الآوركانيين الجنوب. تسقط سبع بلدات واحدة بعد أخرى تحت مطر السهام النارية. هكذا يصبح المصطادون صيادين. يحاصر الآروكانيون «لاأمبريال» ويغيرون مجرى النهر ليقطعوا عنها الماء.

تستعيد نصف مملكة تشيلي وكلّ المناطق الممتدة إلى جنوب بيو ـ بيو هويتها الآروكانية.

يقول الهنود وهم يشيرون إلى الرمح: «هذا هو سيدي وهو لن يأمرني بأن أحفر بحثاً عن الذهب أو أن أحضر الأعشاب للمواقدِ ولا أن أعتني بالقطيع أو أبذر أو أحصد. أريد أن أبقى مع هذا السيد».

١٥٩٩: سانتا مارتا

- يشنون الحرب ليمارسوا الحب -

ينشب التمرد علي شواطىء الكاريبي وتهزّ أصداؤه سييرا نيفادا. ينتفض الهنود من أجل حرية الحب.

في مهرجان البدر ترقص الآلهة في جسد الزعيم «سوشاسيك» وتعير ذراعيه السحر. أصوات الحرب المتصاعدة من قرى «جريبوكا» وبوندا توقظ أرض التيرونا كلّها وتهزُّ «ماسينغا» وماسينغويلا

وزاكا ومازاكا وبوريتاكا ويتراما وماروما وتيروناكا وكواتشاكا وتشوينا وسينتو ونهوانجي ومامـاتوكو وسيبيناغا ودورسينو وغيراكا وأرويغواو دوراما ويبوكاكا ودونـا وتشـينغ وماسـاكا ودودامـا وساكاسـا وكومينكا وغوارينا ومورااكاتاكا وشوكوينكا وماسانغا.

يرتدي الزعيم «سوشاسيك» جلد يغـور. بالسـهام الصـافرة والسـهام الحارقـة والسـهام السـامة يحرق التيرونيون المعابد ويكسرون الصلبانً ويقتلون الرهبان. يقاتلون ضد عـدو الإلـه الـذي يحظـر عاداتهم.

منذ زمن موغل في القدم، كان أي شخص في هذه الأراضي يرغب بالطلاق يحصل عليه، وكـان الأقرباء يمارسون الحب إن أرادوا ذلك، رجلاً مع رجل وامرأة مع امرأة أو رجلاً مـع امـرأة إلى أن جاء الرجال الذين يرتدون الحديد، أولئك الذين رموا إلى الكلاب كلّ من أحب كمـا كـان أسـلافه يفعلون.

يحتفل التيرونيون بانتصاراتهم الأولى، يعزفون في معابدهم التي يسميها العدّو منـازل الشـيطان على المزمار المصنوع من عظام المهزومين ويشربون خمرة الذرة ويرقصون علـى قـرع الطبـول وإيقـاع الأبواق الصدفيّة. يغلق المحاربون جميع الممرات والطرق المؤدية إلى سانتا مارتا ويجهزون للهجـوم الأخير.

١٦٠٠: سانتا مارتا

- كانت لهم بلاد -

تحتاج النار إلى وقت لتشتعل. إنها تشتعل ببطء.

تصرُّ المعادن. يتحرك رجال يرتدون الدروع. لقد فشل الهجوم على سانتا مارتا وأصـدر الحـاكم أمـراً بالتدمـير الشـامل. وصلـت الأسـلحة والرجـال مـن «كارتاجينـا» في الوقـت المناسـب وتبعـثر التيرونيون الذين أهزلتهم سنوات كثيرة من دفع الجزية والعبودية منهزمين.

أبيدوا بالنار. أحرقت القرى والمـزارع وحقـول الـذرة ومحـاصيل البطاطـا والمنيهـوت وبسـاتين الفاكهة. أحرقـت المزروعـات المرويّـة الـتي أبهجـت العـين ومنحـت الطعـام والمـزارع حيـث كـان التيرونيون يمارسون الحب في وضح النهار، لأن الأطفال الذين يصنعون في الظلام يولـدون عميانـاً. كان كل شيء يحترق.

كم من العوالم الكثيرة تضيء هذه النار؟ العالم الذي كان والذي شوهد والعالم الذي كان ولم ير.

نفي التيرونيون في نهاية خمسة وسبعين عاماً مـن التمـردات وهربـوا إلى الجبـال، إلى الأمكنـة القاحلة والبعيدة التي تخلو من السمك والـذرة. نفاهم الغـزاة إلى تلـك الأمكنـة البعيـدة المرتفعـة، سيطروا على أراضيهم واسـتأصلوا ذاكرتهـم. وهكـذا يمكـن أن يطـال النسيان في عزلتهـم البعيـدة

الأغنيات التي غنّوها حين عاشوا سوية أحراراً وأقوياء يلبسون أردية قطنية متعددة الألوان وعقوداً ذهبية وأحجاراً مشعّة. وهكذا يمكن أن ينسوا إلى الأبد أن أجدادهم كانوا يغاوِرّ.

يتركون خلفهم الخراب والقبور.

تهمس الريح. تهمس الأرواح المعذّبة وترقص النار في المسافة.

- تقنيات الصيد -

في أعماق الدغل الأمازوني يجلس صياد من قبيلة «ديزانا» على صخرة مرتفعة ويتأمل النهر. تتحدر المياه حاملة الأسماك والأحجار المصقولة. تنحدر المياه مع ضوء الصباح الأول. يمعن الصياد النظر ويشعر أن النهر القديم يتحوّل إلى دم يتدّفق في شرايينه. لن يصطاد صيّاد السمك حتى يربح قلوب الإناث من الأسماك.

قريباً منه، في القرية، يستعدّ صياد آخر. لقد تقيأ واستحّم فيما بعد في النهر ونظف نفسه من الداخل والخارج. يشرب عصير النباتات التي لها لون الأيائل بحيث تحيل عطورها جسده ويرسم على وجهه القناع الذي تفضّله الأيائل. بعد أن ينفخ دخان التبغ على أسلحته، يمشي بهدوء إلى النبع الذي يشرب منه الأيّل هناك يرشُّ عصير الأنناس، الذي هو حليب ابنة الشمس.

نام الصياد وحيداً في تلك الليالي الأخيرة. لم يعاشر النساء ولم يحلم بهن، بحيث لا يغار الحيوان الذي سيصطاده وسيخترقه برمحه وسهامه.

١٦٠٠: بوتوسي

- العجيبة الثامنة للعالم -

تحمل قوافل من اللامات والبغال إلى ميناء «آريكا» الفضة التي نزفتها جبال بوتوسي من أفواهها. بعد رحلة طويلة تصل السبائك إلى أوربا لتمّوِل الحرب والسلام والتقدم.

تتلقى بوتوسي بدلاً من ذلك، من سيفيل أو عن طريق التهريب خمور إسبانيا قبعات وحرير فرنسا، ربطات ومرايا ونسيج فلاندرز، سيوفاً ألمانية وورقاً جنوياً وجوارب نيبوليتانية، زجاجاً من البندقية وشمعاً قبرصياً وألماساً سيلانياً ورخاماً هندياً غربياً وعطوراً عربية وملقيةً وسجاداً فارسياً وبورسلاناً صينياً وعبيداً سوداً من «كيب فيرد» وأنغولا وخيولاً قوية من تشيلي.

كلّ شيء مرتفع الثمن في هذه المدينة الأغلى في العالم. فقط شراب الذرة وأوراق الكوكا رخيصة الثمن. يمضي الهنود الذين أسروا بالقوة في البيرو أيام الآحاد في الزرائب ويرقصون على إيقاع الطبول ويشربون «الشيكا» إلى أن يسقطوا أرضاً في صباحات الإثنين يجمعون كالقطيع في الجبل،

يمضغون الكوكا ويضربون بالقضبان الحديدية، ليبحثوا عن شرايين الفضة، عن الثعابين الخضراء والبيضاء التي تظهر وتختفي في أحشاء هذا البطن الكبير حيث لا يوجد ضوء أو هواء. يكدح الهنود طوال الأسبوع، هؤلاء السجناء الذين يتنفسون الغبار الذي يقتل الرئات ويمضغون الكوكا التي تخدع الجوع وتقنّع الإعياء، ولا يعرفون أبداً متى يخيّم الليل أو يبزغ الفجر إلى أن ينتهي يوم السبت ويرنّ الجرس من أجل الصلاة ونهاية العمل. عندئذ يتحركون إلى الأمام حاملين شموعاً مضاءة ليظهروا فجر الأحد من الحفر العميقة والقنوات والأروقة اللانهائية.

يشاهدهم قسيس جاء حديثاً إلى بوتوسي يصلون إلى ضواحي المدينة موكباً طويلاً من الأشباح القذرة بظهور جرّحتها السياط ويقول: «لاأريد أن أشاهد صورة الجحيم هذه».

يقترح عليه أحدهم: «إذاً أغلق عينيك».

يقول: «لاأستطيع، إذا أغلقت عينيّ سأرى أكثر من ذلك».

- نبوءات -

تزوّجا البارحة أمام النار كما تتطلّب التقاليد وسمعا الكلمات المقدّسة:

لها: «حين يشتعل بنار الحب لاتتحولي إلى جليد».

له: «حين تشتعل بنار الحب لاتكن جليداً».

يستيقظان على وهج النار، يتعانقان ويهنئان بعضهما بعينيهما ويرويان أحلامهما.

أثناء النوم، تسافر الروح خارج الجسد وتعرف في أبدية أو في رفّة عين ما الذي سيحدث. يتمّ تقاسم الأحلام الجميلة، وليتقاسماها يستيقظان باكراً جداً. تُرمى الأحلام السيئة، على أية حال، إلى الكلاب.

الأحلام السيئة، الكوابيس المتعلقة بالمهاوي والعقبان أو الوحوش يمكن أن تنذر بالأسوأ. والشيء الأسوأ هنا هو أن تجبر على الذهاب إلى مناجم زئبق «هوان كاميليا» أو إلى جبل بوتوسي الفضي البعيد.

- أنشودة كوزكو -

رغبت لامة
أن يكون لها شعر ذهبي
متألقاً كالشمس
قوياً كالحب

وناعماً كالضباب
يحلّه الفجر
لينسج ضفيرة
يعلّم عليها
عقدة بعد عقدة
الأقمار التي تعبر
والأزهار التي تذبل

١٦٠٠: مدينة المكسيك

- عربات -

عادت العربات إلى شوارع المكسيك العريضة بعد أن حظرها منذ أكثر من عشرين عاماً الملك المتقشّف فيليب الثاني. قال المرسوم إن استخدام العربات يحوّل البشر إلى عاطلين عن العمل ويعوّدهم على حياة الراحة والكسل وهكذا يخسرهم العضلات المفيدة في فنون الحرب.

وبما أن الملك فيليب الثاني مات الآن، تنتشر العربات ثانية في هذه المدينة. تحوي في داخلها الحرير والمرايا ويزينها في الخارج الذهب ودروع السلاحف وعلى الباب تعلّق شارات الشرف. تنفث عطر الخشب الرائع وتتحرك بنعومة البندول وتهتزّ كالمهد وخلف الستائر يبتسم النبلاء الإستعماريون ويلوحون بأيديهم. على مقعده الرفيع وسط الهدّابات والشرابات الحريرية، تقريباً مثل ملك يجلس الحوذي المحتقر، والأحصنة منعّلة بالفضة.

مايزال استخدام العربات محظوراً على الهنود والعاهرات والذين عاقبتهم محاكم التفتيش.

١٦٠١: فالآدوليد

- كويفيدو -

حكمت إسبانيا البرتغالَ ومستعمراتها عشرين عاماً بحيث استطاعَ الإسباني أن يمشي على الأرض دون أن تطأ قدمه تربة أجنبية. إلا أن إسبانيا هي أغلى بلد في أوروبا. تنتج دائما أشياء قليلة ونقوداً كثيرة. من الإسكودات التي تبلغ خمسة وثلاثين مليوناً والتي ولدت منذ ستة أعوام لم يبق حتى ظلّ. إن المعلومات التي نشرها مؤخراً دون مارتين غونزاليس في كتاب يدعى رسالة في السياسة الضرورية، غير مشجعة: بعامل من الصدفة أو الوراثة، كل إسباني يعمل يحصل على

ثلاثين إضافية. أما الذين يحصلون على دخل يعتبر العمل بالنسبة لهم خطيئة. أما الطبقة الارستقراطية فتحوّل غرفة النوم إلى ساحة معركة. وفي إسبانيا ينمو الشحاذون والقساوسة أكثر مما تنمو بعض الأشجار القليلة.

تبحرُ مراكب محمّلة بذهب أميركا إلى جنوا. لاتتركُ المعادن التي تصل من المكسيك والبيرو أدنى رائحة في إسبانيا. ويبدو وكأن العمل الفذّ للغزو أنجزه أصحاب البنوك والتجار الألمان والجنويين والفرنسيين والفلمنكيين.

يعيش في فالادوليد شاب مشلول وضعيف البصر ينحدر من دم نقي يمتلك لساناً وسيفاً حادّين. في أوقات المساء وبينما ينزع له خادمه حذاءه، يحلم بالأشعار. وفي الصباح تنزلق ثعابينه من تحت أبواب القصر الملكي.

يشخّص فرانسيسكو دي كويفيدو في ذهنه، بينما رأسه مدفون في مخدّته، القوة التي تحوّل الجبان إلى محارب والتي تهدىء القاضي الأكثر قسوة، ولاعناً مهنة الشاعر هذه، يحك عينيه ويقرّب المصباح، وبخبطة واحدة يخرج من رأسه الأشعار التي ستمنعه من النوم. الأشعار تخبر عن دون دويلون، الذي:

يولد بشكل مشرّف في الآنديز
حيث العالم يرافقه
يجيء ليموت في إسبانيا
ويدفن في جنوا.

١٦٠٢: ريسيف

- الحملة الأولى ضد بالماريس -

في المطاحن التي تضغط وتعصر قصب السكّر يقاس عمل كلّ عبد كما يقاس وزن القصبة وضغط الآلة الساحقة وحرارة الفرن. تنعدم قوة العبد خلال خمسة أعوام ولكنّ المالك يستعيد في عام واحد الثمن الذي يدفع له. حين تنعدم فائدة أيدي العبيد ويصبحون أفواهاً لافائدة لها، يحصلون على حريتهم.

يختبىء العبيد الذين يربحون الحرية قبل الشيخوخة المفاجئة أو الموت المبكر في الجبال التي تقع في شمال شرق البرازيل. يرسل الحاكم العام للبرازيل الحملة الأولى ضد بالماريس.

تتألف من بعض البيض الفقراء والهجن المتلهفين لأسر وبيع السود ومن بعض الهنود الذين وعدوا بالأمشاط والسكاكين والمرايا الصغيرة ومن كثير من الخلاسيين.

يعود قائد الحملة من نهر «تابيكورو» الذي يدعى بارتولوميو بيزيرا ويعلن في ريسيف: «لقد دمّر مركز التمرد»، ويصدقه الجميع.

١٦٠٣: روما

- أجزاء العالم الأربعة -

صدرت في روما طبعة منقّحة وموسّعة من كتاب سيزار ريبا: علم الأيقونات. يظهر قاموس الصور الرمزية هذا العالم كما يبدو من الشاطىء الشمالي للبحر الأبيض المتوسط.

تظهر أوروبا على القمة، ملكة، محاطة برموز قوتها، تدعمها الأحصنة والرماح. تحمل بيد واحدة أعمدة المعبد وتحمل بالأخرى شبحاً. تضع تاجاً على رأسها وتستلقي تيجان أخرى عند قدميها وسط التيجان الكهنوتية والكتب وفراشي الرسم والآلات الموسيقية: القوانين والقيثارات. وإلى جانب البوق يوجد بوصلة ومسطرة.

في الأسفل، إلى اليمين، تظهر آسيا. تقدم القهوة والفلفل والبخور. تزّينها أكاليل الأزهار والفاكهة وينتظرها جمل راكع.

في جانب آخر تظهر أفريقيا امرأة مغربية غسقية اللون برأس فيل وعلى صدرها عقد مرجاني. وحولها أسد وثعبان وعقرب وسنابل قمح.

في أسفل كل شيء تظهر أميركا امرأة بوجه يخيف الناظر إليه. ترتدي الريش فوق جلدها الزيتوني العاري. عند قدميها يستلقي رأس بشري مقطوع وسحلية. إنها مُسلحة بالقوس والنشّاب.

١٦٠٣: سانتياغو

- القطيع -

يحصل مجلس بلدة سانتياغو على حديد وَشْمٍ جديد مصنوع من الفضة لوشم العبيد الهنود على وجوههم. يأمر الحاكم ألونزو دي ريبيرا أن جزءاً خامساً من قيمة كل آروكاني تمّ بيعه في موانىء فالديفيا وآريكا يجب أن يخصّص لكلفة الحرب وتغذية الجند.

تتلاحق حملات الصيد. يعبر الجنود نهر «البيو ـ بيو» ويقومون بالجلد ليلاً. يحرقون ويبترون ويعودون بالرجال والنساء والأطفال مقيدين من أعناقهم. وحالما يوشمون يباعون للبيرو.

يرفع الحاكم إناء الخمرة ويشرب نخب المعارك التي ربحت. يشرب الأنخاب على الطريقة الفلمنكية مثل بدرو دي فالديفيا. أولاً، جرعة كبيرة بعدها أخرى للسادة والسيدات الذين يتذكّرهم. حين ينتهي من الناس يشرب أنخاب القديسين والملائكة ولاينسى أبداً أن يشكرهم على الذريعة التي يقدمونها.

ليما: ١٦٠٥

ـ ليلة القيامة ـ

بعد عيد الميلاد تماماً، دمّرت المدافع الثقيلة للطبيعة مدينة آريكويبا. انفجرت سلسلة الجبال وتقيأت الأرض أسس المنازل. تبعثر البشر تحت الأنقاض وأحرقت الحمم المحاصيل ثم نهض البحر وابتلع مرفأ آريكا.

جمع راهب حافي القدمين حشداً في ساحة ليما. البارحة، عند الغسق. أعلن أن هذه المدينة الفاسقة ستنهار في الساعات القليلة القادمة وسينهار محيطها كله.

صرخ: «لن ينجو أحد. لن ينجو حتى الحصان أو السفينة الأكثر سرعة».

تمتلىء الشوارع وقت الغروب بالتائبين الذين يعاقبون أنفسهم بالمشاعل. يصرّح المذنبون بذنوبهم في الزوايا والأغنياء يرمون عن شرفاتهم آنية الفضة وثياب الحفلات في الشوارع. تكشفُ أسرار تجعل شعر الرأس ينتصب. الزوجات الخائنات ينزعن بلاط الأرصفة ويضربن أثداءهن بها. يركع اللصوص والغواة أمام ضحاياهم، يقبّل الأسياد أقدام عبيدهم ولاتتسع أيدي الشحاذين للصدقات الكثيرة. تتلقى الكنيسة نقوداً أكثر مما تلقّته في جميع أعياد الصوم الكبير في تاريخها كله، وإذا لم يكن الناس يبحثون عن قسّ يعترفون له، كانوا يبحثون عن واحد ليزوجهم. غصّت الكنائس بالبشر الذين يريدون أن يلوذوا بحمايتها.

بزغ الفجر.

تشرق الشمس فوق ليما كما لم يحدث من قبل. يبحث التائبون عن مراهم لظهورهم المتشققة ويطارد الأسياد عبيدهم. اللواتي خطبن حديثاً يحقّقن عن رجالهن الجدد الذين بخّرهم ضوء الفجر، البشر الذين تابوا من ذنوبهم يتجولون في الشوارع بحثاً عن ذنوبٍ جديدةٍ يرتكبونها تسمع شهقات البكاء واللعنات خلف كل باب. لايوجد شحاذ لم يختف عن البصر، أيضاً اختبأ الكهنة ليحصوا الجبال النقدية التي قبلها الله البارحة. ستشتري كنائس ليما بالنقود المتبقية الريش الأصلي لكبير الملائكة، جبريل.

١٦٠٧: سيفيل

ـ الفراولة ـ

يتذكّر الضابط غونزاليس دي ناخيرا الذي عاش ستة أعوام في تشيلي ويروي.

يتحدث عن أولئك الذين ولدوا وسط الأبواق والطبول، عن النبلاء الذين ارتدوا الدروع منذ أن كانوا في مهودهم، وجعلوا من أجسادهم جداراً لصّد هجمات الهنود. يصّر أن المطر يخرج السنابل الذهبية من التربة التشيلية وأن الهنود يدفعون الجزية من الذهب الذي يستخرجونه من بطون العظاءات.

يتحدث أيضاً عن فاكهة نادرة لها لون وشكل القلب تنفجر مخرجةً عصيرها اللذيذ حين تلمس الأسنان. تستطيع أن تنافس بحيويتها ومذاقها وعطرها ألذّ الفاكهة الإسبانية، رغم أنهم هناك في تشيلي يشتمونها بتسميتها فراولة.

١٦٠٨: بويرتو برينسيبي

- سيلفستر دي بالبو -

ولدت أول قصيدة ملحمية في تاريخ كوبا في المنزل الطيني المسقوف بسعف النخيل لسيلفستردي بالبو الذي يعمل في مجلس بلدة بويرتو برينسبي. يملي المؤلف مقاطعه الشعرية الفخمة على الأسقف ألتميرانو الذي اختطفه القرصان الفرنسي جلبرت جيرون منذ أربعة أعوام في مرفأ «منزانيللو».

تخرج من مملكة نبتون[1] الفقمات والحوريات إلى سفينة القرصان متعاطفة مع الأسقف، الذي لن يقبل شيئاً في الدفاع عنه يقدّم سكان «منزانيللو» مائتي دوقية وألف جلد ومؤناً أخرى فيعتق القرصان اللوثري الرهينة. جاءت الساتيرات والفونات[2] والقنطورات[3] من الغابات إلى الشاطىء حاملات التين الشوكي والأنناس والأفوغاته والتبغ. وأحضرت حوريات الغابة الفاكهة البرية وأشياء أخرى وأيضاً أحضرت حوريات الماء لترحب بالقسيس الأسماك النهرية وأحضرت له حوريات الينابيع والبرك سلاحف لذيذة الطعم من «ماسابو». حين كان القراصنة جاهزين لجمع الفدية هجم عليهم بعض الشباب، زهرة شباب «منزانيللو» ومنحوهم ما يستحقّونه. كان الذي اخترق صدر جلبرت جيرون برمحه شاباً أسود يدعى سلفادور:

آه يا سلفادور الكريبولي، أيها العبد البطل
لتحلّق شهرتك في الأرجاء بلا نهاية؛
لأنه في مدح جندي شجاع
لن يكلّ قلم أو لسان أبداً.

مليئاً بالإعجاب والرهبة، يستحضر سيلفستر دي بالبو طراودة ويقارن شباب منزانيللو بآخيل ويوليس بعد أن خلطهم بالحوريات والسنتورات. ولكن وسط هذه الآلهة الرائعة تمَّ تخليد جميع

(١) - نبتون: إله البحر.

(٢) - فون: أحد آلهة الحقول والقطعان عند الرومان.

(٣) - قنطور: كائن خرافي نصفه رجل ونصفه فرس.

سكان هذه القرية بشكل متواضع. يسمي المؤلف العبد الأسود الذي تصرّف كبطل وكثيراً من فاكهة الجزيرة وأعشابها العطرية وحيواناتها بأسمائها.

١٦.٨: سيفيل

- ماتيو آليمان -

يسافر ماتيو آليمان في السفينة المبحرة إلى المكسيك. لكي يسافر إلى الآنديز يُقدِّمُ رشوة إلى سكرتير الملك ويبيِّن نقاء دمه.

هذا الذي ينحدر من أبٍ وأمٍ يهوديين والذي تحرق له محكمة التفتيش أيَّ قريب، والذي يدعى ماتيو آليمان يبتكر لنفسه نسباً مسيحياً متفوقاً وشارة شرفٍ مفروضة وحوّل سيدته فرانسيسكادي كالديرون إلى ابنته الكبرى.

عرف الروائي كيف يتعلّم فنون شخصيته كوزمان دي ألفاراشي الماهر في الاحتيال والتشرد والخبث الذي يغير لباسه واسمه ومدينته ليمحو العار الذي لحق به لينجو من البؤس: «سأرقص على اللحن نفسه مثل كلّ الآخرين، طالما يستمر». هذا مايقوله كوزمان دي ألفاراشي في الرواية التي تقرؤها إسبانيا كلها.

١٦.٨: قرطبة

- الآنكا غارسيلاسو -

يبلغ الستين من العمر، يتكيء على الطاولة، يغمس قلمه في المحبرة القرنية ويكتب بطريقة تبريرية. يكتب نثراً مليئاً بالتفاصيل وأنيقاً. يمدح الغازي بلغته التي جعلها لغةً له. بيدٍ واحدةٍ يحيي الغزو معتبراً أنه عمل العناية الإلهية: «إن الغزاة، سواعد الإله، نصّروا العالم الجديد ودفعت المأساة ثمن الخلاص». باليد الأخرى، يودِّع مملكة الآنكيين التي دُمِّرت قبل أن تعرف ويستحضرها وكأنه يحن إلى الفردوس. تنتمي يدٌ واحدة إلى والده، الذي يعمل ضابطاً لدى بيزارو. وتنتمي الأخرى إلى أمه، ابنة عم «آتاهوالبا» التي أذلّها ذلك الضابط ورماها بين ذراعي جندي.

ولد الآنكا غارسيلاسو من عملية اغتصاب مثل أميركا. ويعيش مثل أميركا ممزّقاً إلى أشلاء.

رغم أنه عاش نصف قرن في أوروبا ما يزال يصغي إلى أصوات طفولته في كوزكو كأنها ما تزال مسموعة: الأشياء التي تعلمها وهو في طرحته، والحليب: جاء إلى العالم في تلك المدينة المدمّرة بعد أن وصل الإسبان وشرب في تلك المدينة من شفتي والديه القصص التي جاءت من ذلك اليوم البعيد حين أسقط الشمس على بحيرة تيتيكاكا الأمير والأميرة اللذين ولدا من علاقته الغرامية مع القمر.

١٦٠٩: سانتياغو

- كيف تتصرف على المائدة -

أخبروه بذلك هذا الصباح حين أحضروا الشوكولاته العطرية التي يتصاعد منها البخار. بقفزة واحدة خلّص الحاكم نفسه من الأغطية الهولندية: قرّر ملك إسبانيا أن يجعل استعباد الهنود الذين يؤسرون في الحرب قانونياً.

احتاجت الأنباء إلى عام تقريباً لتعبر المحيط وسلاسل الجبال. بيعَ الآروكانيون لبعض الوقت بحضور كاتب بالعدل وأي شخص يحاول الهرب يقطعون مفاصله، وستغلق موافقة الملك أفواه بعض المتذمّرين.

- «ليبارك الله هذا الخبز».

يقدم الحاكم عشاء لمروّضي البشر في هذه الأراضي العدوّة. يشرب الضيوف خمرة البلاد بقرون الثيران ويأكلون خبز الذرة المغلّف بأوراق الذرة. وكما يشير الحكيم الفونصو، يلتقطون بثلاثة أصابع قطع اللحم المتبّلة، وكما أضاف إيرازموس روتردام، لا يقضمون العظام أو يرمون قشور الفاكهة تحت الطاولة. بعد تناول شراب الكويلين الساخن يستخدمون نكاشة أسنان دون أن يتركوها بين شفاههم أو خلف آذانهم.

١٦١١: ياروتيني

- محطّم الوثن -

إنهم يحطمون كاباك هوانكا بالفؤوس. يصرخ القسيس فرانسيسكو دي آفيلا بالهنود أن يتحركوا. مايزال هناك كثير من الأوثان التي يجب أن تكتشف وتدمّر في أراضي البيرو حيث يعرف أن لاأحد يُمتنع عن خطيئة عبادة الأوثان. لايستريح الغضب الإلهي أبداً. ولايجلس آفيلا، جالد السحرة، أبداً.

إلا أن عبيده الذين يعرفون يتألمون عند كل ضربة. إن هذه الصخرة الكبيرة رجل اختاره وأنقذه الإله «بارياكاكا» تقاسم معه كاباك هوانكا لوحده كعكته وأوراق الكوكا حين قنّع بارياكاكا نفسه بالأسماك وجاء إلى ياروتيني وتوسّل طالباً شيئاً يشربه ويمضغه. إن هذه الصخرة الكبيرة رجل كريم. جمّده بارياكاكا وحوّله إلى حجر كي لا يجرفه إعصار العقوبة الذي يجرف الجميع.

رمى آفيلا القطع عن الجرف. ووضع مكان كاباك هوانكا صليباً. فيما بعد يسأل الهنود عن تاريخ كاباك هوانكا ويدوّنه.

١٦١٢: سان بدرو دي أوماباتشا

ـ المضروب يضرب ـ

يصفرُ السوط المصنوع من الجلد المدبوغ والذي هو رمز السلطة في الجو ويضرب. يمزّق الجلد إلى قطع ويشقّ اللحم.

عارياً وموثقاً إلى البكرة، يتحمّل كريستوبال دي ليون مولوهوامـاني زعيم جماعة أومباشا التعذيب. يتزامن أنينه مع لسعات السوط.

متنقلاً بين الزنزانة ومنصة التعذيب والسوط يعيش الزعيم في الألم. تجاسر أن يتمرد على نائب الملك في ليما. ولم يرسل النسبة المحدّدة له من الهنود. كان مسؤولاً عن قلة الأيدي التي تحضر الخمور من السهول إلى كوزكو والتي تنسج وتحيك الملابس كما يأمر الحاكم.

يستخدم الجلاّد الذي هو عبد أسود السوط بمتعة. إن هذا الظهر ليس أسـوأ أو أفضل مـن أي ظهر آخر.

١٦١٣: لندن

ـ شكسبير ـ

تصاب شركة فيرجينيا بخيبة أمل كبيرة على شاطىء أميركا الشمالية الذي يخلو مـن الذهب أو الفضة، مع ذلك تذيع كَراريس الدعاية في جميع أنحاء انكلـترا أنّ الإنكليز يبيعـون الهنـود في فيرجينيا لآلىء السماء مقابل لآلىء الأرض.

منذ وقت ليس بطويل، كان جون دون[(١)] يستكشف جسد عشيقته في قصيدة كما يستكشف المرء أميركا، وفيرجينيا وذهب فرجينيا هو الموضوع الأساسي لاحتفالات خطبة الأميرة إيـلزابيت. تقام حفلة تنكرية بقيادة جورج تشايمان على شرف ابنة الملك، تدور حـول صخرة ذهبية كبيرة هي رمز لفيرجينيا أو لأوهام مالكي أسهمها: الذهب، مفتاح القوى كلها، سرّ الحياة الذي يطارده السيميائيون، ابن الشمس كما الفضة. وُلِدَ من القمر والنحاس من الزّهـرة. يوجـد ذهـب في مناطق العالم الكروية الدافئة، حيث تبذر الشمس أشعتها بسخاء.

يُمَثَّل في احتفالات خطبة الأميرة عمل لوليم شكسبير أيضاً يدعـى «العاصفـة» وقـد جـاء هـذا الإلهام بسبب تحطم سفينة تابعة لشـركة فيرجينيـا في برمـودا. تجري أحـداث مسرحية خـالق

(١) ـ جون دون: شاعر انكليزي مشهور جداً.

الأرواح والعجائب الكبير هذه المرة في جزيرة تقع في البحر الأبيض المتوسط الذي يشبه البحر الكاريبي. هناك يقابل الدوق بروسبيرو كاليبان ابن الساحرة سيكوراكس، عابدة إله الهنود الباتاغونيين. كاليبان متوحش، هندي على النمط الذي شاهده شكسبير في معرض ما في لندن: شيء ينتمي إلى الظلمة، وحش أكثر من كونه إنساناً، الذي يتعلّم فقط أن يلعن، ولايمتلك مقدرة على المحاكمة أو الإحساس بالمسؤولية يستطيع أن يجد مكاناً في المجتمع الإنساني فقط كعبدٍ أو مربوطاً كقرد، أي في المجتمع الأوروبي، الذي لايمتلك هو على الإطلاق أدنى اهتمام في الانضمام إليه.

١٦١٤: ليما

- مجلس مدينة ليما
ولادة الرقابة على المسرح -

أكّد في هذا المجلس أنه بسبب عدم فحص الأعمال الكوميدية التي تمثّل في هذه المدينة أنه قيلت أشياء كثيرة مؤذية بحقّ السلطات والشرف المرتبط بهذه الحكومة. ومن أجل أن تتوقف هذه الأشياء غير اللائقة في المستقبل يتوجّب علينا أن نقدّم علاجاً. وبعد أن طرحت المسألة ونوقشت تم التوصل إلى إتفاق وأصدر أمر يقتضي التنويه لمؤلفي الأعمال الكوميدية الحاليين والمستقبليين بأن لايمثلوا أية ملهاة قبل أن تشاهد وتفحص وتتمّ الموافقة عليها من قبل الشخص الذي يعيّنه المجلس في حينه وكل من يخالف سيدفع غرامة قدرها مائتا بيزو.

١٦١٤: ليما

- رقصات هندية حُظِرت في البيرو -

جناحا الكندور، رأس الببغاء، وجلد اليغور: يرقص الهنود البيروفيون رقصة أسلافهم التي تدعى «ريمي» في عيد القربان. يؤدّون صلاتهم للشمس باللغة الكويتشوانية في وقت رشّ البذار أو يبايعون الشمس حين تحدث ولادة في فصل الحصاد.

إلى النهاية وبمساعدة إلهنا لكي تُقمع المناسبات التي تسبّب البطالة والكسل ولكي يتوقف الشيطان عن ممارسة خدعه يقرّر كبير أساقفة ليما أن تتوقّف الرقصات والأغاني التي تمارس باللهجة المحلية أو باللغة العامية. يعلن كبير الأساقفة عن عقوبات مريعة ويأمر بحرق جميع الآلات الموسيقية المحلية بما فيه المزمار القصبيّ رسول الحب:

ستنامين على الشاطيء،
وسأجيء في منتصف الليل.

١٦١٥: ليما

ـ غوامان بوما ـ

يتكىء على الطاولة، وهو يبلغ سبعين عاماً من العمر، يغمس القلم في المحبرة القرنية ويكتب ويرسم متحدياً. يكتب نثراً مستعجلاً ومتقطّعاً يلعن الغازي بلغته ويجعلها تنفجر. تظلّ اللغة القشتالية تضغط على الكلمات الكويتشوية والأيماريّة ولكن بعد كل شيء، قشتالة هي قشتالة بالنسبة للهنود. وبدون الهنود لايساوي جلالتكم أي شيء.

ينهي غوامان بوما اليوم رسالته الموجّهة إلى ملك إسبانيا. كانت موجهة في البداية إلى فيليب الثاني الذي مات حين كان غوامان يكتبها. يريد أن يرسلها الآن إلى يد فيليب الثالث يتنقّل الرحّالة من قرية إلى أخرى، يسيرُ المؤلف فوق جبال يغطّيها الثلج، يأكل إذا استطاع ويحمل على ظهره مخطوطته التي تكبر بالأمثلة والكلمات. يعود المؤلف من العالم... يعبرُ في العالم وهو يبكي طوال الطريق ويصل أخيراً إلى ليما. ويقرر أن يسافر من هنا إلى إسبانيا ولايعرف كيف سيتدبّر الأمر. وما الذي يهمّ؟ لاأحد يعرف غوامان ولاأحد يصغي إليه والملك بعيد جداً ومرتفع جداً، إلا أن غوامان الذي يحمل القلم في يده يعامله نداً لند ويخاطبه بشكل مألوف ويشرح له ما يجب عليه أن يفعله.

منفياً من مقاطعته، عارياً، معاملاً كأنه لاشيء، لايتردّد غوامان في إعلان نفسه وريثاً للسلالات الملكية الياروفيلكية والآنكية ويسمّي نفسه مستشار الملك والمؤرخ الهندي الأول وأمير الإقليم ونائب الحاكم. كتب هذه الرسالة الطويلة بدافع من كبريائه: يبدأ نسبه من أقدم أسياد «هوانكو» واندمج في الإسم الذي يمنحه الباز والكوجر، شعار نبالة أسلافه الذين حكموا الأراضي التي تقع في شمال البيرو قبل الآنكيين والإسبان.

إن كتابة هذه الرسالة تسبّب البكاء. الكلمات، الصور، دموع الغضب. إن الهنود هم المالكون الطبيعيون لهذه المنطقة والإسبان هم غرباء هنا. يدوس الرسول سانتياغو الذي يرتدي الزيّ العسكري على مَحَليّ ساقط. في المآدب الصحون منمنمة بالنساء. يحمل البغّال سلّة مليئة بأبناء الكاهن المهجّنين. أيضاً، إنه عقاب من الله أن يموت كثير من الهنود في مناجم الفضة والزئبق. في كل أنحاء البيرو، حيث يوجد مائة، لايبقى عشرة. يسأل الآنكا: «هل تأكلون الذهب؟»، يجيب الغازي: «نأكل هذا الذهب».

ينهي غوامان رسالته اليوم، لقد عاش من أجلها. لقد استغرقت معه نصف قرن لتكتب وترسم. تتألف تقريباً من ألف ومائتي صفحة. اليوم ينهي غوامان رسالته ويموت.

لن يراها فيليب الثالث ولا أي ملك آخر أبداً. سوف تتيه في الأرض ضائعة لمدة ثلاثة قرون.

١٦١٦: مدريد

ـ سرفانتس ـ

ـ «أية أنباء تحضرها من أبينا؟».

ـ «إنه يستلقي ياسيدي وسط الدموع والصلوات. إنه متورّم وله لون الرماد. لقد أسلم روحه سابقاً وهو بين الكاتب بالعدل والقسيس والندّابون ينتظرون».

ـ «لوكان معي فقط بلسم فييرابراس... جرعتان منه وسيتحسّن».

ـ «كيف وهو يبلغ السبعين وعلى وشك الاحتضار ولايوجد إلا ستة أسنان في فمه ولايمتلك إلا يداً واحدة تعمل وهو مليء بالندوب من الحروب واللعنات والسجون؟ هذا لن يفيده بأي شيء ياسيدي».

ـ «لاأقول جرعتين بل قطرتين».

ـ «لقد تأخر الوقت».

ـ «لقد مات، أهذا ماتقوله؟».

ـ «يحتضر ياسيدي».

ـ «انزع قبعتك ياسانشو وأنت ياروزينانته، أخفض رأسك. وآه ياأمير النبالة وملك الحروف».

ـ «ما الذي ستفعله بدونه ياسيدي؟».

ـ «لاشيء لايعظّمه».

ـ «أين سنضع أنفسنا ونحن وحيدان هكذا؟».

ـ «سنذهب إلى حيث أراد أن يذهب ولم يستطيع».

ـ «إلى أين ياسيدي؟».

ـ «لنقوّم ما اعوجّ على شواطىء «كارتاجينا» وفي وهاد «لاباز» وغابات «سوكونسكو»».

ـ «إنها أمكنة ظريفة لطحن عظامك».

ـ «يجب أن تعرف ياسانشو، ياأخي على طرقات كثيرة وفي رحلات كثيرة أن العظمة في الآنديز تنتظر الفارس الجوّال المتعطّش للعدالة والشهرة...».

ـ «حسناً، لم تمض وهلة على تعرضنا للضرب».

ـ «... وسوف يكافىء المرافقون بممالك كبيرة لم تكتشف أبداً».

ـ «ألا يوجد بعضها في مكان أقرب؟».

ـ «وأنت ياروزينانته، إن الأحصنة في الآنديز تنعّل بالفضّة والقطع الذهبية، وتعتبر آلهة».

ـ «إنّ ألف ضربة غير كافية بالنسبة له. إنه يريد أكثر من ألف ضربة».

ـ «أخرس ياسانشو».

- «ألم يقل والدك أنّ أميركا هي ملاذ للأنذال ومعبد للعاهرات؟».
- «اخرس، سأخبرك».
- «قال إن كل من يذهب إلى الآنديز يترك ضميره على رصيف المرفأ».
- «ولهذا سنذهب، للننظّف شرفه، هذا الذي تبنّانا كأحرار في السجن».
- «ألا نستطيع أن نندبه هنا فقط؟».
- «هل تدعو هذه الخيانة تبجيلاً؟ الآن أيها الوغد! سننطلق ثانية. إذا كان قد صنعنا لنطوف في العالم، سنأخذه عبر العالم. أحضر لي خوذتي والدرع والرمح ياسانشو!».

١٦١٦: بوتوسي

- صور موكب -

جبل بوتوسي السحري: علي هذه السهول المرتفعة والمعادية والتي منحت العزلة والبرد فقط، ازدهرت أكثر مدن العالم ازدحاماً بالسكان.

ترأس صلبان فضية فخمة الموكب الذي يتقدّم بين صفين من الرايات والسيوف. ترنّ على الشوارع الفضية الحوافر الفضية للأحصنة المزيّنة بالمخمل والسروج المطرّزة باللآلىء. من أجل التصديق على الذين يحكمون ومن أجل تقديم العزاء للذين يخدمون تمرّ الفضة في عرض متوهجة، واثقة، متبخترة، متأكدة أنه لايوجد مكان على الأرض لاتستطيع شراءه.

ترتدي المدينة ثياب المهرجان وعلى الشرفات تتدلى شعارات النبالة وأشياء أخرى، ومن بحر الحرير الذي يصدر حفيفاً ومن زبد البريمات وشلالات اللآلىء تراقب السيدات بإعجاب الموكب الذي يتقدّم والمؤلف من مجموعة أبواق وشومات[1] وطبول بأصوات حادة. كان بعض السادة يضعون عصابة سوداء على إحدى أعينهم وكانت تبدو أورام وجراح على جباهم، وهذه لم تكن علامات حرب بل سفلس. كانت القبلات وكلمات الغزل تطير من الشرفات إلى الشارع ومن الشارع إلى الشرفات.

تظهر شخصيات الأنانية والجشع المقنّعة. يغني الجشع من خلف قناعه الثعباني بينما حصانه يثب:

جَذْرَ جميع الشرور
يسمّونني، ولا أتعب أبداً
ليس لأشبع رغبة.

---

(١) ـ الشوم: آلة موسيقية خشبية قديمة.

تجيب الأنانية التي ترتدي بنطالاً أسود وسترة سوداء مطرزة بالذهب وقناعاً أسود تحت قبعة سوداء كثيرة الريش:

إذا غزوت الحب
وغزا الحبّ الموت، سيّتفق الجميع
أن لا شيء أقوى مني.

يرأس الأسقف جيشاً طويلاً وبطيئاً من الكهنة والتانيين الذين غطوا رؤوسهم مسلّحين بشموع طويلة وبشمعدان فضّي، بعد ذلك تفرض أبواق المذيعين أنفسها على أصوات أجراس الكنائس معلنة عن عذراء «كواديليوب» ضوء الصابرين، مرآة العدالة، ملاذ الخاطئين وعزاء المبتلين، النخلة الخضراء، الصولجان المزهر والصخرة المضيئة. تظهر في موجات من الذهب وأمهات اللآلىء تحملها أذرع خمسين هندياً مثقلة بجواهر كثيرة وتراقب بعينين مندهشتين صخب الملائكة ذات الأجنحة الفضية والعرض البديع لعابديها. وعلى حصان أبيض مطهم يجيء فارس السيف المشتعل تتبعه كتيبة من الخدم والغلمان ترتدي بزات بيضاء. يقذف الفارس قبعته بعيداً ويغني للعذراء:

رمادي كجمال سيدتي
التي تظهر كثيراً من الجمال
لتذهل السماء والأرض.

يركض الخدم والغلمان الذين يرتدون بزات أرجوانية خلف فارس الحب الإلهي الذي يجيء خبباً على حصانه كخيّال على الطريقة الرومانية وحوافّ ردائه الحريري الأرجواني تتأرجح في الريح. يركع على ركبتيه أمام العذراء ويخفض رأسه المتوج بالغار ولكن حين يهيىء نفسه ليغني أشعاره ينبعث وابل من الدخان الكبريتي ويقاطعه. لقد غزت منصة الشيطان الشارع ولاأحد يعير أدنى انتباه إلى فارس الحي الإلهي.

يفتح الأمير تارتر، عابد محمّد، جناحيه الخفاشيين وتظهر الأميرة بورسبيرين التي تمتلك شعراً طويلاً وفستاناً طويلاً وتقذف من مكان عال تجديفات يصفّقُ لها أتباعها من الشياطين. وفي مكان ما يُلْفَظُ اسم يسوع المسيح وتنفجر منصة الجحيم مصدرة صوتاً مرتفعاً ـ يقفز الأمير تارتر والأميرة بروسبيرين عبر الدخان واللهب ويسقطان أسيرين عند قدمي أم الإله.

الشارع مغطّى بملائكة صغار وهالات وأجنحة فضّية متألقة أما الكمنجات والغيتارات والبزق والشومات تصدر ألحاناً عذبة. موسيقيات يرتدين ثياب عازبات يحتفلن بوصول الرحمة والعدالة والسلام والحقيقة، بنات بوتوسي الأربع الرشيقات محمولات على محفات من الفضة والمخمل، وكان للخيول التي تجرّ منصتهم صدور ورؤوس هندية.

بعد ذلك يجيء الثعبان ملتفاً ومتموجاً. يتقدّم الثعبان على أقدام هندية في الطريق المضاء بالمشاعل زارعاً الخوف والنار في الاحتفالات ومظهراً التحدي والقوة عند قدمي العذراء. حين يقطع الجنود رأسه بالفؤوس والسيوف يظهر من أحشاء الثعبان الآنكا بكبرياء محطم إلى أشلاء. جاراً ثوبه الفانتازي، يركع ابن الشمس على قدميه أمام الضوء الإلهي. كانت العذراء تزهو بردائها الذهبي وباليواقيت واللآلئ والصليب الذهبي الذي يشعّ على تاجها الإمبراطوري أكثر تألقاً من السابق فوق عينيها المندهشتين.

بعد ذلك يجيء الحشد. حرفيون من كل مهنة ومتشردون شحاذون يستطيعون أن يجبروا حتى العين الزجاجية على البكاء: المهجنون أبناء العنف، الذين ليسوا عبيداً أو أسياداً، يمشون على أقدامهم، إذ أن القانون يحظر عليهم اقتناء الخيول أو الأسلحة كما يمنع الخلاسيين من استخدام المظلات بحيث لا يستطيع أي شخص أن يخبيء وصمة العار التي تلوّث الدم إلى الجيل السادس. يجيء مع المهجنين والخلاسيين أرباعُ الزنوج وأنصاف السود وبقية الخلائط التي أنتجها الصياد وفريسته

وفي الخلف يتقدم حشد من الهنود محملاً بالفاكهة والأزهار وصحون الطعام التي يتصاعد منها البخار يتوسّلون إلى العذراء من أجل الصفح والعزاء

وفي نهاية المؤخرة كان بعض السود يجرّون المحفة التي تركها جميع الآخرين.

١٦١٦: سانتياغو باباسكويارو

- هل إله الأسياد، هو إله العبيد؟ -

تحدّث نبي هندي عن الحياة الحرّة. مرتدياً الثياب التقليدية، سافر عبر الصحارى والجبال مثيراً الغبار ومغنيّاً على الإيقاع الحزين لجذع شجرة أجوف عن الأعمال الفذة للأسلاف، وعن الحرية الضائعة. بشّر العجوز بالحرب ضدّ أولئك الذين احتلوا أراضي الهنود وآلهتهم وجعلوا الهنود يفجرون رئاتهم في مناجم.زاكاتيكاس. أعلن أن أولئك الذين ماتوا في الحرب الضرورية سينبعثون والعجائز الذين ماتوا وهم يقاتلون سيولودون شباباً وأقوياء.

سرق التيبيهوانيون البنادق وصنعوا وأخبأوا الأقواس والسهام لأنهم رماة مهرة كنجم الصباح، رامي السهام المقدّس. سرقوا الأحصنة وقتلوها ليأكلوا سرعة حركتها وقتلوا البغال ليأكلوا قوتها.

نشب التمرد في سانتياغو باباسكويارو في شمال دورانغوا. داس التيبيهوانيون، هنود المنطقة الأكثر مسيحية، والذين كانوا أوائل المرتدّين عن دينهم، على الصليب. وحين توسّل الأب برناندور سيزنيروس طالباً الرحمة، أجابوه: «ليساعدك الله». في الجنوب حطموا وجه العذراء بالمناجل وتجرعوا الخمرة بكؤوس القربان. وفي قرية «زابجي» طارد الهنود الملفعون بالأردية

الكهنوتية الجزويتية والقلنسوات، الإسبان الفارين عبر الغابات. ضربوا الأب هرناندو ديل توفار بالهراوات في سانتا كاتارينا قائلين له: «لنر إذا كان الله سينقذك». انتهى الأب خوان ديل فالي متمدّداً عارياً على الأرض رافعاً يده التي ترسم إشارة الصليب عالياً في الجو، أما يده الأخرى فتغطي عضوه الذي لم يستخدم أبداً.

إلا أن العصيان لم يستمر طويلاً، إذ أن القوات الإستعمارية هزمت الهنود في سهول «كاكاريا». وسقط مطر أحمر على الموتى. سقط المطر عبر فضاء كثيف بالبارود وثُقِبَ الموتى بطلقات من الوحل الأحمر.

ترنّ الأجراس في زاكاتياس داعية إلى الولائم الاحتفالية. يتنهّد مالكو المناجم بارتياح، لن يكون هناك نقص في الأيدي التي تحفر. لاشيء سيقاطع رخاء المملكة. سيكونون قادرين على البول بهدوء في الأوعية الفضّية ولن يمنع أحد زوجاتهم اللواتي تتبعهن مائة خادمة وعشرين فتاة من حضور القدّاس.

١٦١٧: لندن

- نفحات تبغ فيرجينية في ضباب لندن. -

الشخصيات:

الملك: (ملك بريطانيا جيمس الأول، ملك اسكوتلندة السادس). لقد كتب: «إن التبغ يحوّل أعضاء الإنسان الداخلية إلى مطبخ، يوسخها ويملؤها بنوع من السخام الزيتي والمدهن. كتب أيضاً أن أي شخص يدخّن يقلد التصرفات البربرية والوحشية للهنود المتوحشين والعبيد والكفار».

جون رولف: استعماري انكليزي في فيرجينيا. إنه أحد الأعضاء الأكثر تميزاً من البشر الخاصّين الذين حدّدتهم واختارتهم إصبع الله... لأنه أنتج خلائط جيدة من التبغ في مزارعه وذلك من البذور التي أحضرها إلى فيرجينيا من تراينيداد. أرسل إلى لندن منذ ثلاثة أعوام في سفينة إيلزابيت أربعة براميل مليئة بالأوراق التي افتتحت تجارة التبغ التي كانت مزدهرة سابقاً في لندن. يمكن أن يقال بشكل جيد إن جون رولف وضع التبغ على عرش فيرجينيا كنبتة ملكية لها قوة مطلقة. في العام الماضي جاء إلى لندن مع الحاكم «ديل» باحثاً عن مستعمرين جدد وإيداعات جديدة لشركة فيرجينيا واعداً بأرباح خيالية لأصحاب الأسهم، لأن التبغ بالنسبة لفيرجينيا سيكون ماكانته الفضة في البيرو. جاء أيضاً ليقدّم للملك جيمس زوجته، الأميرة الهندية بوكاهونتاس المعمّدة باسم ريبيكا.

السير توماس ديل: كان حاكماً لفيرجينيا حتى العام الماضي. جعل زواج رولف بوكاهونتاس قانونياً والذي هو أول زواج أنكلو ـ هندي في تاريخ فرجينيا على أساس أن هذا الزواج يعتبر عملاً سياسياً ملائماً جداً للمساهمة في تقديم تموين الحبوب والأيدي بسلام من قبل السكان المحليين. على أية حال، في طلبه للأذن لم يذكر جون رولف هذا الجانب من القضية ولم يذكر أيّ شيء عن الحب رغم أنها لم تبلغ الثمانية عشرة من العمر. قال رولف إنه أراد أن يتزوج هذه الوثنية، ذات الثقافة الوقحة والتصرفات البربرية والمنحدرة من جنس ملعون من أجل صالح مزرعته وشرف بلاده وعظمة الله ومن أجل خلاصه ولتحويلها إلى المعرفة الصحيحة بالله وبالمسيح.

بوكاهونتاس: كانت تعرف أيضاً باسم ماتوكا حين عاشت مع الهنود. كانت البنت المفضلة لدى الزعيم الكبير بوهاتان. بعد أن تزوجت رولف تركت عبادة الأوثان وغيرت اسمها إلى ريبكا وغطّت عريها بملابس إنكليزية. ارتدت قبعة وربطة عنق مرتفعة وجاءت إلى لندن واستقبلت في البلاط. كانت تتحدث وتفكر كامرأة انكليزية وشاركت زوجها في دينه الكالفيني بإخلاص ووجدت فيها شركة فرجينيا الداعم الأكثر قدرةً وغرابةً لتمكّنَ لنفسها في لندن. ماتت مصابة بمرض إنكليزي كانت تبحر في التايمز في طريقها إلى فرجينيا وحين انتظرت السفينة الرياحَ المفضّلة لفظت بوكاهونتاس نفسها الأخير بين ذراعي جون رولف في آذار عام ١٦١٧ ولم تكن قد وصلت إلى سن الواحد والعشرين.

أوبيكانكانوف: إنه عم بوكاهونتاس والأخ الأكبر للزعيم الكبير بوهاتان. منح العروس في الكنيسة البروتستانتية في «جيمس تاون». منذ ثلاثة أعوام لم ينطق بأية كلمة قبل وأثناء وبعد مراسيم الزواج إلا أن بوكاهونتاس أخبرت رولف بقصة عمها. عاش أوبيكانكانوف، مرة في إسبانيا وفي المكسيك، كان في ذلك الوقت مسيحياً معروفاً باسم لوي دي فيلاسكو ولكنه حالما عاد إلى بلاده تخلص من الصليب والرداء الكهنوتي ورماهما في النار، ذبح القساوسة الذين كانوا يرافقونه واستعاد اسم أوبيكانكانوف والذي يعني في اللغة الهندية: *هذا الذي يمتلك روحاً نظيفة.*

يجمع ممثل من مسرح غلوب تفاصيل هذه القصة ويسأل نفسه الآن وهو يواجه إبريقاً من البيرة، مالذي سيفعله بها. هل يكتب قصة حب مأساوية أم مسرحية أخلاقية عن التبغ وقواه الشريرة؟ أم يعدّ حفلة تنكرية يكون موضوعها غزو أميركا؟ ستنجح المسرحية بالتأكيد لأن لندن كلها تتحدث عن الأميرة بوكاهونتاس وزيارتها السريعة الزوال إلى هنا. هذه المرأة التي تعادل مجموعة من الحريم كلّ لندن تحلم بها عارية بين الأشجار وفي شعرها أزهار عطرية. أيّ ملاك منتقم طعنها بسيفه؟ هل كفّرت عن ذنوب شعبها الوثني أم هل كان موتها تحذيراً من الله لزوجها؟ التبغ، الإبن غير الشرعي لبروسبرين وباخوس... ألا يحمي الشيطان العقد الغامض بين

تلك العشبة والنار؟ هذا الدخان الذي يصيب الرجل الفاضل بالدوار، أليس ابن الشيطان؟ والفسق المخبوء لجون رولف.. وماضي أوبيكانكانوف، المعروف سابقاً باسم لوي دي فيلاسكو، أهو منتقم أم خائن؟.. يدخل أو بيكانكانوف إلى الكنيسة وذراعه في ذراع الأميرة .. طويلة، منتصبة، صامتة...

يختتم صائد الحكايات غير الحكيم عمله وهو يدفع ثمن بيرته ويخرج إلى الشارع قائلاً: «لا، لا، إن هذه القصة جيدة جداً للكتابة وكما قال شاعر الآنديز اللطيف «سيلفا»: إذا كتبتها ما الذي سيبقى عندي لأرويه لأصدقائي؟».

١٦١٨: ليما

- عالم صغير -

مات مالك فابيانا كريولا خفّض في وصيته ثمن حريتها من مئتين إلى مائة وخمسين بيزو.

أمضت فابيانا الليل دون أن تنام وهي تفكر كم يساوي صندوقها الخشبي المليء بمسحوق القرفة. لاتعرف أن تجمع ولهذا لا تستطيع أن تحسب الحريات التي اشترتها بعملها خلال نصف القرن الذي أمضته في العالم ولاثمن الأولاد الذين أنجبوا من خلالها وأخذوا منها.

يجيء الطائر مع ضوء الفجر الأول وينقر النافذة بمنقاره يعلن الطائر نفسه كل يوم أن وقت الاستيقاظ والذهاب قد حان.

تتثاءب فابيانا، تجلس على الحصيرة وتفحص قدميها المتآكلتين.

١٦١٨: لواندا

- الرحيل في السفينة -

يُقْبَضُ عليهم بشباك الصيادين. يتقدّمون الآن إلى الساحل مربوطين إلى بعضهم من أعناقهم بينما تصدح طبول الألم في القرى.

يساوي العبد على الشاطىء الأفريقي أربعين عقداً زجاجياً أو صفارة مربوطة إلى سلسلة أو مسدسين أو حفنة طلقات. كان يقدّم اللحم الإنساني مقابل الحصول على البنادق القديمة والمناجل وشراب الرُّم والحرير الصيني.

يفحص الكاهن عمود الأسرى على الرصيف الرئيسي لميناء لواندا. يتلقى كلّ عبد قرصة ملح على لسانه ورشة من الماء المقدّس على رأسه واسماً مسيحياً. يترجم المترجمون الموعظة: «أنتم الآن أبناء الله..»، ينصحهم ألا يفكروا بالأراضي التي يغادرونها وأن لايأكلوا لحم الكلب أو الجرذ أو

الحصان، يذكرهم بالرسالة الإنجيلية التي أرسلها القديس بولس إلى «أفسس»: «أيها العبيد اخدموا أسيادكم» يذكرهم باللغة التي صبّها نوح على أبناء حام الذين بقوا سوداً طوال العصور.

يشاهدون المحيط للمرة الأولى ويروّعهم هذا الوحش الكبير الذي يزأر. يظنون أن البيض يأخذونهم إلى مسلخ بعيد ليأكلوهم ليصنعوا منهم الزيوت والشحوم. تسوقهم سياطٌ مصنوعة من جلود جواميس البحر إلى قوارب كبيرة تعبر الأمواج المتكسرة. على السفن يواجهون مدفعية موزّعة على الطرفين. تمنعهم السلاسل والقيود من الانتحار غرقاً.

سيموت كثيرون في الرحلة وسيباع الباقون على قيد الحياة في أسواق أميركا ويوشمون ثانية بالحديد المحمّى.

لن ينسوا آلهتهم أبداً. سيتقنّع أوكسالا الذي هو رجل وامرأة بالقديس جيروينمو وبالقديسة بربارة. سيصبح أوباتالا يسوع المسيح وسيتحوّل «أوشن» الذي هو روح الحسية والمياه العذبة إلى عذراوات «كانديلياريا»، إلى الفهم والفضيلة والمتع وسيصبح القديسة آني في ترينيداد. خلف القديس جورج والقديس أنطوني والقديس ميخايل ستكمن رماح «أوغم» إله الحرب. سيغني «بابلو» داخل القديس لازاروس. ستحلّ رعود ونيران «شانغو» المخيف في القديس جون والقديسة بربارة وسيستمرّ «إيليكوا» في كوبا بامتلاك وجهين: الحياة والموت، وفي شمال البرازيل سيكون «لإيكسو» رأسان الإله والشيطان، ليقدم للمؤمنين العزاء والانتقام.

١٦١٨: ليما

ـ ظلمة شديدة ـ

يدفع الصديقان ردائيهما الرثين إلى الخلف ويكنسان الأرض بقبعتيهما. يتبادلان تحيات الاحترام ثم تبدأ المجاملات: «إن جدعتك شيء عجيب».

ـ «إن قرحتك التناسلية رائعة فنيّة».

يعبران قطعة الأرض الخالية والذباب يطاردهما.

يتحدثان وهما يبولان مديرين ظهريهما للريح.

ـ «مرّ وقت طويل ولم نر شيئاً».

ـ «إنني أهرب كذبابة. وتزداد معاناتي».

ـ «نعم».

يخرجُ السحلية كسرةُ خبز من جيبه. ينفخ عليها. يليّنها ويدعو شحاذ الخبز ليكون ضيفه. يتأملان الأزهار في النباتات الشائكة وهما جالسان على صخرة.

يقضم شحّاذ الخبز لقمة بأسنانه الثلاثة ويقول: «يوجد في السراي صدقات جيدة... إنه أفضل مكان لعين في ليما. إلا أن الحمّال رماني في الخارج ورفسني».

- «أنت لا تعني خوان أوتشوا؟».
- «إن اسم الشيطان أفضل له. يعلم الله أنني لم أفعل له شيئاً».
- «لم يعد خوان أوتشوا هناك».
- «هذا صحيح».
- «لقد نبذوه ككلب والآن لم يعد حمّالاً في السراي ولم يعد يساوي شيئاً».

يبتسم شحاذ الخبز بعد أن شعر بأنهم انتقموا له. يمدّد أصابع قدميه العارية.

- «ألأنه قام بأعمال سيئة؟».
- «لا، لم يكن هذا هو السبب».
- «إذا لأنه كان غبيا جداً».
- «لا، لا، لأنه ابن خلاسي وحفيد زنجي. أسود جداً وبشكل مخز».

١٦٢٠: مدريد

- رقصات الشيطان تجيء من أميركا -

شكراً لجثة القديس إسيدور التي نامت قربه في الأيام القليلة الماضية، إن الملك فيليب الثالث يشعر بتحسّن. أكل هذا الظهر وشرب دون اختناق. أضاءت أطباقه المفضّلة عينيه وأفرغ كأس الخمرة بجرعة واحدة.

يرطب الآن أصابعه في الوعاء الذي يحمله خادم راكع. يقدم خادم الاستحمام المنديل إلى كبير خدم الأسبوع. ينقله كبير خدم الأسبوع إلى كبير الخدم. يركع كبير الخدم لدوق «أوسيدا» يأخذ الدوق المنديل ويحني رأسه ثم يسلمه للملك. وبينما يجفف الملك أصابعه يزيل الطفيليّ الفتات عن ثيابه ويصلي القسيس صلاة شكر لله.

يتثاءب فيليب، ويفكّ ياقته العالية المزركشة، ويسأل عن الأخبار.

يقول له الدوق أن هيئة إدارة المستشفى جاءت إلى القصر. إنهم يشكون أن الجمهور يرفض الذهاب إلى المسرح منذ أن منع الملك الرقصات، والمستشفى يعتمد على إيرادات المسرح. قالت الهيئة للدوق: «سيدي منذ أن توقفت الرقصات توّقفت الإيرادات. إن المرضى يموتون ولانملك شيئاً ندفعه من أجل الضمادات والأطباء». يقرأ الممثلون أشعاراً ألّفها لوب دي فيغا تمجّد الهنود:

تاكويتان ميتاناكوني
إسباني من هنا إلى هناك

لا يوجد في إسبانيا حب
هكذا يبدو لي
هناك الأنانية هي الملك
أما هنا فالحب.

لكن مايريده الجمهور من أميركا هو الرقصات والأغاني غير المحتشمة التي تثير البشر الأكثر احتراماً. لافائدة للممثلين في جعل الأحجار تبكي والموتى يضحكون ولا في جعل الفنون المسرحية تستخرج الإضاءة من الغيوم الكرتونية. تقول هيئة المستشفى وهي تئن: «إذا بقيت المسارح خالية يجب أن تغلق المستشفيات».

يقول الدوق: «أخبرتهم أن جلالتكم سيقرّر».

يحكّ فيليب ذقنه ويفحص أظافره.

- «إذا لم يغير جلالتكم رأيه فإن ما مُنِعَ قد مُنِعَ وبشكل جيد».

إن رقصة السربندة والشاكون تجعل الجنس يشع في الظلام. لقد شجب الأب ماريانا هذه الرقصات التي هي ابتكارات الزنوج الأميركان المتوحشين وهي شيطانية في كلماتها وحركاتها. حتى في المواكب تسمع أشعارهم التي تمدح الخطيئة وحين تنفجر إيقاعات دفّهم الداعر وصنوجهم لاتستطيع حتى الراهبات في الأديرة أن يسيطرن على أقدامهن وعلى دغدغات الشيطان التي تكهرب أردافهنّ وبطونهن.

تلاحق عينا الملك طيران ذبابة كبيرة كسولة بين بقايا المأدبة. يسأل الملك الذبابة: «وأنت، ماذا تعتقدين؟».

يظنّ الدوق أن الكلام موجّه إليه فيقول: «إن هذه الرقصات التهريجية هي موسيقا لِسَبْتِ السحرة كما قال جلالتكم بشكلٍ جيد، ومكان السحرة هو النار في الساحة الرئيسية».

تختفي الحلويات عن الطاولة إلا أن الرائحة تعلق في الجوّ.

يأمر الملك الذبابة هاذياً: «أنت التي تقرّرين».

يلحّ الدوق: «إن أسوأ عدو لجلالتكم لايستطيع أن يتهمكم بعدم التسامح. كان جلالتكم متسامحاً. في زمن الملك والدك حفظه الله..».

يهذي فيليب: «ألست أنت التي تقودين؟».

- «إن كل من تجرأ على رقص السربندة حصل على مكافأة مختلفة... مائتي جلدة وجرعة تجذيف في السفن».

يهمس الملك ويغلق عينيه: «أقول، أنتِ.».

- «أنت»، وتظهر كمية من الزبد واللعاب الذي ينتجه فمه دائماً بإفراط على شفتيه.

يشمّ الدوق رائحة احتجاج. فيغلق فمه حالاً وينسحب على رؤوس أصابع قدميه.

يغلب النعاس فيليب الذي ثقل جفناه ويحلم بامرأة ريّانة عارية تفترس ورق اللعب.

١٦٢٢: سيفيل

- الجرذان -

إن الأب أنطونيو فاسكويز دي اسبينوزا الذي وصل حديثاً من أميركا هو ضيف الشرف.

بينما كان الخدم يقدمون قطع الديك الرومي مع الصّلصة اندفعت موجات زبدية في الجو وجنّنت العاصفة بحراً أبيض مرتفعاً وحين جيء بالدجاجات المحشية سقطت أمطار استوائية على المائدة. يروي الأب أنطونيو أن المطر يسقط عنيفاً على الساحل الكاريبي حتى أن النساء يحملن ويولد أبناؤهن وهم ينتظرون توقفه، وحين يتوقف يكونون قد كبروا.

يأكل الضيوف الذين سحرتهم القصة والمأدبة ويصمتون، يمتلىء فم الكاهن بالكلمات وينسى الطعام. يستمع الأولاد والنساء الجالسون على الوسائد وكأنهم في قدّاس.

كان العبور من ميناء هوندوران في تروجيللو إلى سانلوكار دي باراميدا عملاً فذاً. تابعت السفن طريقها وهي تصطدم ببعضها، تعذّبها رياح عنيفة باردة. ابتلع البحر الغاضب عدة سفن والتهمت أسماك القرش كثيراً من البحارة. ولكن لم يكن هناك شيء أسوأ من الجرذان، قال الأب أنطونيو هذا وهو يخفض صوته.

ملأ الله السفن بالجرذان ليعاقب الذين ارتكبوا ذنوباً كثيرة في أميركا والذين لا يكترثون بالإعتراف أو بالعشاء الرباني كما يجب أن يفعلوا قبل أن يصعدوا إلى السفن. وضعها في المخزن بين المؤن وتحت مؤخرات السفن وتحت قاعة الكوثل وفي القمرات وعلى مقعد القبطان. كانت جرذاناً كبيرة وكثيرة أثارت الخوف والإعجاب. سرقت الجرذان أربعة قنطارات خبز من الحجرة التي كان الكاهن ينام فيها بالإضافة إلى البسكويت الذي كان تحت باب القبو. افترست لحم الخنازير وجوانب قطع اللحم المقدّد في المخزن الصدري لمؤخرة السفينة. وحين ذهب المسافرون الظامئون ليبحثوا عن الماء وجدوا جرذاناً غارقة تعوم في الصهاريج. وحين ذهب الجائعون إلى خنّ الدجاج، كان كل ما عثروا عليه هو العظام والريش وربما على دجاجة زاحفة بقدمين مقروضتين. لم تنج حتى الببغاوات وهي في أقفاصها. وبدأ البحارة يراقبون الماء والطعام المتبقيين ليلاً ونهاراً مسلحين بالهراوات والسكاكين فهاجمتهم الجرذان وعضّت أيديهم وأكلت بعضهم.

وصلت الجرذان إلى الزيتون والفاكهة إلا أن الحلويات بقيت سليمة ولم تلمس قطرة من الخمرة.

- «هل ترغبون بسماع الصلوات الجديدة التي ألفتها؟ بما أن الصلوات القديمة لم تُهدئْ غضب الرب. ؟».

لايجيبه أحد.

يسعل الرجال ويرفعون المناديل إلى أفواههم. اختفت النساء الواقفات اللواتي كن يصدرن أوامرهن إلى الخدم. كان الذين يستمعون وهم جالسون على الأرض حُولاً وفاغري الأفواه. يرى الأطفال الأب أنطونيو بأنف كبير وأسنان ضخمة وبشارب طويل ثم يحنون رؤوسهم باحثين عن ذيله تحت الطاولة

١٦٢٤: ليما

- بشر للبيع -

- «إمشي!».
- «أركض!».
- «غنّي!».
- «ما هي عيوبه؟».
- «افتح هذا الفم!».
- «هل هو سكران أم مشاكس فقط؟».
- «كم تدفع ياسيدي؟».
- «والأمراض؟».
- «يساوي هذا الثمن مرتين».
- «اركض».
- «من الأفضل ألا تغشني وإلا سأعيده».
- «إقفز أيها الكلب».
- «لاتحصل على بضائع كهذه مقابل لاشيء».
- «اجعله يرفع ذراعيه».
- «اجعله يغني جيداً بصوت مرتفع».
- «هل لهذه المرأة أولاد أم لا؟».
- «لنر أسنانها».

يجرونهم من أذن واحدة وسيوشم اسم المشتري على الخدود أو الجبهة وسيكونون أدوات عمل في المزارع وأحواض الصيد والمناجم أو أسلحة في الحرب سيصبحون قابلات وظئرات[1] يمنحن الحياة ليأخذها الجلاّدون وحافرو القبور. سيصبحن مغنيات ولحماً للفراش.

---

(١) ـ ظئرات: مرضعات لغير أولادهن.

تقع زريبة العبيد إلى اليمين في وسط ليما إلا أن مجلس المدينة صوّت لتوه من أجل إزالتها. سيوضع السود المعروضون للبيع في محجر للأرقاء يقع على الجانب الآخر من نهر ريماك قرب مسلخ «سان لازاور». هناك سيصبحون بعيدين عن المدينة بحيث لاتحمل الرياح أبخرتهم المعفنة والمعدية.

١٦٢٤: ليما

ـ أسود يسوق أسود ـ

عرض ثلاثة عبيد أفارقة في شوارع ليما بأيد موثقة وأعناق مقيدة بالحبل. كان الجلادون، الذين هم أيضاً سود، يمشون خلفهم بعد كل بضعة خطوات تنهال عليهم مائة ضربة سوط وحين يسقطون تخصص لهم ضربات أخرى.

أصدر رئيس البلدية الأمر. لقد أدخل العبيد ورق لعب إلى مقبرة الكاتدرائية وحوّلوها إلى مقمرة مستخدمين أحجار القبور طاولات وكان رئيس البلدية يعرف أن هذا الدرس سيكون عبرة لجميع السود الذين أصبحوا وقحين وكثيري العدد ومدمني شغب.

يستلقي الثلاثة الآن في فناء منزل سيدهم. ظهورهم لحم ممزّق. يعوون حين تغسل جراحهم بالبول والرّم.

يلعن مالكهم رئيس البلدية، يهزّ قبضته ويقسم بأن ينتقم، لأنه لايجوز لأحد أن يلعب ألعابا كهذه بملكية بشر آخرين.

١٦٢٤: ليما

ـ الشيطان يعمل ـ

يشعّ القمر متألقاً حين تعلن أجراس الكنيسة عن الساعة الواحدة. يغادر خوان موغروفيخو سيردا البار ويسير في ليل ليما المعّطر ببراعم أشجار البرتقال.

في تقاطع شارع «باركن» يسمع أصواتاً غريبة أو أصداء، فيتوقف ويصغي.

أسموديو يقول إنه تحرّك عدة مرات منذ أن أبحرت سفينته من سيفيل. لدى وصوله إلى بورتوبيللو سكن في أجساد تجار عديدين يسمّون الخدع القذرة صفقاتٍ، والسرقة عملاً، وأداةَ فتحِ الأقفال عصاً للقياس، وعاش في بنما في رجل أعمال دجّال بإسم مزّيف كان يحفظ غيباً كيف يتصرّف كدوق ومركيز...

ـ «أخبرني يا أسموديو، هل ينتبه هذا الشخص لقواعد الطبقة الأرستقراطية الحديثة؟».

ـ «جميعهم يا أمونيو. كان يكذب ولم يدفع أبداً ديونه ولم يزعج نفسه بالوصية السادسة. كان يستيقظ متأخراً دائماً ويتحدث أثناء القداس ويشعر بالبرد طوال الوقت فَكِّرْ فقط كم هو قاس أن

يشعر المرء بالبرد في بنما والتي قامت بمحاولة جيدة لتصبح جحيمنا. في بنما تتعرّق الأحجار، والناس يقولون: أسرعوا بالحساء. سوف تزداد سخونته».

لايستطيع دون خوان دي موغروفيخو الدائخ أن يرى أسموديو أو أمونيو الذين يتحدثان من مكان ما، لكنه يعرف أن أسماء كهذه لاتخطر في حيوات القدّيسين، ورائحة الكبريت التي لايمكن أن يخطىء في معرفتها المرء كافية لفهم فحوى هذه المحادثة البليغة. يبسط دون خوان ظهره على الصليب الطويل في تقاطع شارع «باركن» الذي يسقط ظله على الشارع ليبقى بعيداً عن أمونيو وأسموديو، يصلّب ويستحضر سرية من القدّيسين لتحميه وتنقذه. إلا أنه لايستطيع أن يصلي لأنه يريد أن يصغي ولن يفقد كلمة واحدة من هذا الحديث.

يقول أسموديو أنه غادر جسد ذلك السيد ليدخل إلى كاهن مرتد عن دينه وبعد ذلك وفي الطريق إلى البيرو وجد سكناً في أحشاء سيدة ورعة كانت مختصة ببيع الفتيات.

ـ «هكذا وصلت إلى ليما ونصيحتك حول العمل في متاهاتها كانتْ مفيدة جداً. قل لي ماذا يحدث في هذه البراري... هل تجمع الثروات هنا بشكل شريف؟».

ـ «لو كانت تجمع بشكل شريف، ستكون الجحيم أقل ازدحاماً».

ـ «ماهي أفضل طريقة لإغراء رجال الأعمال».

ـ «فقط ضعهم في العمل واتركهم فيه».

ـ «هل يحب الناس هنا أو يحترمون أسيادهم؟».

ـ «الخوف».

ـ «إذاً ماذا عليهم أن يفعلوا ليستمروا؟».

ـ «لايستحقون ذلك».

يستحضر دون خوان عذراء «آنتوش» ويبحث عن المسبحة التي نسيها ويمسك بمقبض سيفه بينما تستمر الأسئلة وأجوبة أمونيو السريعة.

ـ «أخبرني هل يرتدي ثياباً جيدة أولئك الذين يفترضون أنهم أفضل الناس؟».

ـ «يستطيعون ذلك نظراً لأنهم يجعلون الخياطين منشغلين طوال العام».

ـ «هل يتذمرون كثيراً؟».

ـ «في ليما الوقت دائماً مناسب للتذمر».

ـ «والآن أخبرني لماذا يغيرون في بعض الأسماء؟».

ـ «أولاً ليتجنبوا قول الحقيقة وثانياً كي لايسمي أحد القدّيسين».

تهاجم نوبة سعال دون خوان في تلك اللحظة. يسمع صرخات: «لنذهب! لنهرب!»، وبعد صمت طويل يخلص نفسه من الصليب الذي يحميه. يتحرك بركبتين مرتجفتين نحو شارع «ميرشانت» وبوابات «بروفنسيا». لم يبق من الرجلين المهذارين نفخة دخان واحدة.

١٦٢٤: سيفيل

ـ الفصل الأخير من حياة النذل ـ

يعكس النهر وجه الرجل الذي يستنطقه.

ـ «ماذا أفعل ببطلي؟ هل أقتله؟».

يرقص حذاؤه الضيّق المتدلي من الرصيف الحجري فوق نهر «كوادالكويفر» يمتلك هذا الرجل عادة أن يهزّ قدميه حين يفكر.

ـ «يجب أن أقرّر. أنا الذي خلقته وجعلته ابن حلاّق وساحرة وابن أخ جلاّد. توّجته أميراً على العالم السفلي للقمل والشحاذين وعلاّفاً للمشنقة».

تشعّ نظارته على المياه المتدرجة نحو الخضرة وتثبت على الأعماق حين يطلق أسئلته: «ماذا أفعل؟ علّمته أن يسرق الدجاج ويستدر الصدقات باسم جراح المسيح. تعلّم مني الغشّ في لعبة الطاولة والورق والمبارزة. بفنوني أصبح دون جوان الراهبات ومهرجاً مشهوراً».

يجعد فرانسيسكو دي كويفيدو أنفه ليجعل نظارته مرتفعة إلى الأعلى: «إنه قراري ويجب أن أتّخذه. لم يوجد أبداً رواية في تاريخ الأدب لم تحتو فصلاً أخيراً».

يمد عنقه باتجاه السفن التي تخفض أشرعتها وهي تقترب من أرصفة المرفأ.

ـ «لم يعان أحد منه كما عانيت. ألم أجعل جوعه جوعي حين كانت معدته تئن وحين لم يكن بوسع المستكشفين أنفسهم أن يعثروا على عينين في رأسه. إذا كان يجب أن يموت دون بابلو، ينبغي أن أقتله إنه مثلي، فلذة بقيت من ألسنة اللهب».

يحدق من بعيد شاب رث الملابس بالسيد الذي يحكّ رأسه متكئاً فوق النهر. يقول الصبيّ لنفسه: «لابد أنه عفريت عجوز، عفريت عجوز مجنون يحاول أن يصطاد بدون سنارة».

يقول كويفيدو في نفسه: «هل أقتله؟ ألا يعرف الجميع أن تحطيم المرايا يجلب النحس؟ هل أقتله؟ لنفترض أنني جعلت الجريمة عقوبة عادلة لما اقترفه في حياته الشريرة؟ سيكون حصة صغيرة للمفتش ورجال الرقابة. إن مجرّد التفكير بمتعتهم يلوي معدتي».

يبدأ طيران النوارس. ترسو سفينة قادمة من أميركا. يقفز كويفيدو ماشياً. يتبعه الصبي مقلداً مشيته المتقوّسة.

يتوهج وجه الكاتب. لقد عثر على ظهر السفينة على القدر الملائم لشخصيته؟ إنه سيرسل النذل دون بابلو إلى الآنديز. أين في غير أميركا يمكن أن تنتهي حياته؟ أصبح لروايته خاتمة وهاهو كويفيدو يمشي شارداً في مدينة سيفيل هذه حيث يحلم الرجال بالرحلات والنساء بالعودة إلى الأوطان.

١٦٢٤: مدينة المكسيك

- نهرٌ من الغضب -

يقذف الحشد الذي يغطي الساحة الرئيسية والشوارع المجاورة اللعنات والأحجار على قصر نائب الملك. تتكسر أحجار الأرصفة والكلمات التي تتهمه بالخائن واللص والكلب ويهوذا على المصاريع والمداخل المحكمة الإغلاق. تختلط الشتائم المنصبّة على نائب الملك مع صيحات الابتهاج بكبير الأساقفة الذي عزله من الكنيسة لأنه يضارب بخبز هذه المدينة. كان نائب الملك يخزن لبعض الوقت الذرة والقمح في مخازنه الخاصة ويلعب بالأسعار. يغلي الحشد: «اشنقوه. اضربوه. اضربوه حتى الموت» يطالب البعض برأس الضابط الذي دنّس الكنيسة بجرّه لكبير الأساقفة خارجها، آخرون يريدون أن يعدموا «ميخيا» الذي يرأس صفقات عمل نائب الملك والجميع يريدون أن يشووا نائب الملك المحتكر بالزيت.

ترتفع الرماح والعصي والمطارد فوق الرؤوس وطلقات البنادق والمسدسات ترفع أيد لامرئية راية الملك فوق سقف القصر وتعول الأبواق طالبة النجدة لكن لايأتي أحد لمساعدة نائب الملك المحشور في الزاوية. أغلق سادة المنطقة قصورهم على أنفسهم وهرب القضاة والمسؤولون عبر الشقوق. ورفض الجند أن يطيعوا الأوامر.

لاتقاوم جدران السجن عند الزاوية الهجوم. ينضّم السجناء إلى المدّ الغاضب. تسقط بوابات القصر وتلتهم النار الأبواب ويغزو الرعاع الغرف إعصاراً ينزع ستائر الجدران ويكسر أقفال الصناديق الكبيرة ويلتهم مايصادفه.

هربَ نائب الملك مقنّعاً كأسقف عبر قناة سرية إلى أبرشية سان فرانسيسكو.

١٦٢٥: مدينة المكسيك

- ما الذي تحبّه في مدينتنا؟ -

يسلّي الأب توماس كيج الذي وصل حديثاً نفسه في منتزه «ألاميدا». يراقب بعينين جائعتين السيدات وهن يتجولن في نفق بين الأشجار الطويلة. لايوجد امرأة واحدة ترتدي شالاً أو طرحه تصل إلى تحت الخصر، فمن الأفضل إظهار الأرداف المتأرجحة وتصنّع المشية الجميلة. كان يمشي خلف كلّ سيدة مجموعة من النساء السود والخلاسيات الجذابات تظهر أثداؤهن من تقويرات فساتينهن. ومن أجل الإثارة والدعابة يثبتن أزهارا على أحذيتهن العالية الكعب ويلففن على جباههن عصابات حريرية عليها كلمات مطرزة.

يصل القسّ إلى القصر محمولاً على ظهر هندي.

يقدّم له نائب الملك الأنناس والشوكولاته الحارة ويسأله ما الذي يحبه في المدينة.

قاطع المضيف مديح الأب كيج للمكسيك ولنسائها وعرباتها وأزقتها قائلاً: «هل تعرف أنني أنقذتُ حياتي بشعرة؟ وشعرة من رجل أصلع في ذلك.. ».

تنبثق من فم نائب الملك جداول أخبار عن انتفاضة العام الماضي.

بعد الكلام عن الدخان الكثير والدم وبعد صحنين آخرين من الشوكولاتة يعرف الأب كيج أن نائب الملك أمضى عاماً في أبرشية سان فرانسيسكو ومايزال غير قادر على الخروج من القصر خوفاً من أن يجازف بتلقي وابل من الأحجار. على أية حال، إن كبير الأساقفة المرتدّ يعاني من عقوبة النفي في «زامورا» البائسة والبعيدة وأرسل بعض القسيسين للتجذيف في السفن وكان شنق ثلاثة أو أربعة من المشاغبين كافياً لسحق وقاحة العامّة.

يقول نائب الملك· «لوكان الأمر بيدي لشنق الجميع». ينهض عن كرسيه ويعلن: «الجميع ! جميع سكان هذه المدينة اللعينة». يعود إلى الجلوس ثانية. ثم يتنفس ويقول: «إن هذه الأراضي جاهزة دائماً للتمرّد. لقد نظّفت شوارع المكسيك من العصابات».

يضيف بثقة وهو يمطّ عنقه: «أتعرف شيئاً ما؟ أبناء الإسبان، الذين ولدوا هنا... من كان على رأس التمرد؟ لقد كانوا هم. الكريبوليون! يعتقدون أنهم يملكون البلاد ويريدون أن يحكموا...».

يحدق الأب كيج بعيني متصوف إلى الشمعدان الكريستالي الذي يهّدد بلطم رأسه ويقول: «لقد أساؤوا إساءة مجحفة بحق الله.. إنها سدوم ثانية.. لقد رأيتها بأم عيني هذا المساء.. إنها متع أرضية..».

يهزّ نائب الملك رأسه مؤكداً.

يمرّر القس جملة: «سوف يقطعون عاجلاً كالعشب. سوف يذبلون كما تذبل الأعشاب الخضراء».

يتناول رشفة الشوكولاته الأخيرة.

يضيف وهو يضع الكوب الصغير في صحنه بهدوء: «هذا ماينصّ عليه المزمور السابع والثلاثين».

١٦٢٥: ساماياك

- رقصات هندية منعت في غواتيمالا -

يعلن القساوسة أنه لم يبق ذكرى أو أثر للطقوس والعادات القديمة في إقليم فيراباز.. إلا أن أصوات المنادين في البلدة تصبح خشنة وهي تعلن تعاقب مراسيم الحظر.

يصدر الآن خوان مالدونادو القاضي الملكي قوانين جديدة ضد رقصات مؤذية لصيّادي الهنود ولحفظ القانون المسيحي الذي يقرّون به، لأن رقصات كهذه تحضر إلى الذهن تضحيات قديمة

وطقوساً مسيئة لإلهنا. إن الهنود يبذرون الأموال على الريش وآنية الشرب التي تمنعهم من العمل في المزارع ومن دفع الجزية والحفاظ على منازلهم.

إن أيّ شخص يرقص رقصة «التن» سيجلد مائة جلدة. في رقصة التن يبرم الهنود عقداً مع الشيطان. إن «التن» أو «رابينال آشي» هي رقصة خصب ممسرحة بالكلمات والأقنعة. والتن هو أيضاً جذع شجرة أجوف ترافق قرعه أصوات أبواق طويلة صدّاحة، حين تستمر مسرحية ابن الكويتشيين، سجين «الرابيناليين» يرقص المنتصرون ويغنون تمجيداً لعظمة المقهور الذي يودّع أرضه توديعاً مشرفاً ويصعد إلى المحرقة حيث سيقدّم أضحية.

١٦٢٦: بوتوسي

- إله غاضب -

تتطوفن البحيرة، تهدم السدّ وتغزو المدينة. يحطّم الطوفان أشياء كثيرة إلى أشلاء. تجرّ البغال أشلاء البشر خارج الوحل. ينتهي مزيج من الإسبان والكريبوليين والهجن والهنود في قبور مشتركة. تبدو منازل بوتوسي جثثاً محطّمة.

لايهدأ غضب بحيرة «كاريكاري» إلى أن ينظّم القساوسة عرضاً لمسيح الصليب الحقيقي. تهدأ المياه حين ترى الموكب يقترب. سمعت هذه المواعظ نفسها من جميع منابر البيرو في تلك الأيام: «أيها المذنبون، إلى متى ستلعبون ألعابكم مع رحمة الرب؟ إن صبر الربّ لانهائي. إلى متى أيها المذنبون؟ ألم تكفكم التحذيرات والعقوبات؟».

ليس انفجار بحيرة بوتوسي شيئاً جديداً في هذه البقاع العريضة الخصبة. سقطت منذ خمسة وأربعين عاماً صخرة كبيرة على مجموعة من السحرة الهنود في «آتشوكالا» التي تقع على بعد بضعة فراسخ من مدينة «لاباز». كان الناجي الوحيد هو الزعيم الذي أصيب بالخرس وروى القصة بالإشارات. دفنت صخرة أخرى مجموعة من الهراطقة الهنود بعد وقت قصير في «ياناأوكا» قرب «كوزكو». بعد عام انفتحت الأرض وابتلعت الرجال والمنازل في «آركوبيا»، وبما أن المدينة لم تتعلم من هذا الدرس أظهرت الأرض مخالبها بعد فترة وجيزة ولم تترك شيئاً منتصباً سوى أبرشية سان فرانسيسكو وفي عام ١٥٨٦ اجتاح المحيط مدينة سان ماركوز دي آريكا وجميع مرافئها وشواطئها.

حين بدأ القرن الجديد، ثار بركان آبيناس. كان غضبه عظيماً إلى درجة أن رماده عبر سلاسل الجبال براً ووصل إلى شواطىء نيكاراغوا بحراً.

ظهر نجمان محذران في هذه السماء عام ١٦١٧ ومكثا رافضين الذهاب. أخيراً تحركا بعيداً. شكراً للأضحيات ولوعود المؤمنين في جميع أنحاء البيرو الذين صلّوا التاسوعية[1] بدون توقف.

---

(١) ـ التاسوعية: عبادة تستمر تسعة أيام.

١٦٢٨: شيباس

الشوكولاتة والأسقف

لايضع فلفلاً أسود كالذين يعانون من مشاكل في الكبد. لايضيف الذرة لأنها تسبّب انتفاخاً في البطن. يضيف بسخاء القرفة التي تساعد على إفراغ المثانة وتقوّي البصر والقلب لايستثني الفلفل الحار المطحون جيداً. يضيف ماء زهر البرتقال والسكر الأبيض ومسحوقاً شجرياً ليمنح اللون ولاينسى أبداً حفنة اليانسون وحفنتين من الفانيلا ومسحوق زهرة الإسكندرية.

يعبد الأب كيج الشوكولاتة المزبدة المحضرة جيداً. إذا لم تغمس الحلويات والمرزبانية[1] في الشوكولاته لن يكون لها نكهة. يحتاج كوباً من الشوكولاتة في منتصف الصباح ليخرج، وكوباً آخر بعد العشاء لينهض عن الطاولة وآخر ليتمدّد في الليل ويصدّ النعاس.

منذ أن وصل إلى شيباس لم يلمسها. يحتجّ بطنه، إلا أن الأب توماس يفضّل أن يعيش بشكل سيء بين الدوخات والاغماءات إذا كانت تجنبه القدر الذي قتل الأسقف بيرناردو دي سالازار.

حتى وقت متأخر، كانت نساء هذه المدينة تذهب إلى القدّاس مع مجموعة من الخادمات والوصيفات اللواتي بالإضافة إلى حمل الوسائد المخملية، يحملن كانوناً وأداة للتسخين وكأساً لتحضير الشوكولاتة. ولأن للنساء معداً حساسة، لايتحمّلن عناء الصلاة بدون الإكسير الساخن الذي مايزال جزءاً من القدّاس الأكبر. هكذا كان الأمر إلى أن قرّر الأسقف بيرناردو دي سالازار أن يحظر هذه العادة بسبب الفوضى التي سبّبَتها في الكنيسة.

انتقمت السيدات، ومات الأسقف في صباح أحد الأيام في مكتبه. وعند قدميه كانت قطع الكوب الذي قدّمه أحد ما لهُ، تستلقي مبعثرة.

١٦٢٨: مدريد

دم أزرق للبيع

وقع الأسطول الإسباني في يد القرصان بيت هن مقابل شاطىء ماتنزاس في كوبا. ستذهب كلّ الفضة القادمة من المكسيك والبيرو إلى هولندة. رُفّع «هن» في أمستردام إلى أميرال فخري وحُضّر له استقبال كأنه بطل قومي. من الآن فصاعداً سيغني الأطفال الهولنديون:

بيت هن، بيت هن
إسمك قصير
لكنّ شهرتك طويلة.

---

(١) ـ المرزبانية: حلوى من مسحوق اللوز والسكر وزلال البيض.

في مدريد تحكّ الرؤوس لم يبق سوى ثقب في الكنز الملكي.

يقرّر الملك من ضمن إجراءات الطوارىء الأخرى أن يعرض في السوق ألقاب النبلاء للبيع. تمنح النبالة للأعمال المميّزة. وما هو العمل الأكثر تميّزاً من الحصول على المال لدفعه من أجل ذلك؟ يستطيع أيّ عاميّ أن يستيقظ في الصباح نبيلاً له نسب عريق بأربعة آلاف دوقية والذي كان البارحة إبن يهودي أو حفيد مسلم يستطيع أن يبدأ يومه بدم نقيّ.

إلا أنه يمكن الحصول على الألقاب التانوية بثمن أقل. يوجد في قشتالة كثير من النبلاء الذين سيخرجون رافعين مؤخراتهم إلى الأعلى إذ لم تغطّيهم أرديتهم، سادة عظمة وهمية يعيشون وهم يزيلون أوساخاً غير مرئية عن جركيناتهم(١) وشواربهم: إنهم يقدمون للّذي يدفع ثمناً أعلى حق استخدام كلمة «دون» والتي هي كل ما تبقى لديهم.

أولئك الذين فقدوا مكانتهم في العالم يشتركون مع أولئك الذين يركبون عربات فضّية بالإحساس بالشرف والحنين إلى العظمة وبالرعب من العمل ـ والتسوّل أقل قيمة ـ وباحتقار الإستحمام الذي هو عادة المغاربة والإستحمام غريب عن الدين الكاثوليكي ويُغْضِب محاكم التفتيش.

ـ أغنية عن اليد الأندية تغنّى في إسبانيا ـ

يذهب المرء إلى روندا من أجل الإجّاص
ومن أجل التفاح إلى أرغوناليس
يذهب إلى الآنديز ليجمع نقوداً
وإلى سييرا لارتكاب الحماقات.

ذهب زوجي إلى الآنديز
لينهي بؤسه:
جاء ليخبرني أخباراً كثيرة
وبأشياء ثمينة قليلة من أجل الصرف.

ذهب زوجي إلى الآنديز
وأحضر لي خنجراً

(١) ـ جركينة: سترة طويلة ضيّقة لاكمين لها.

عليه نقش يقول:
إذا أردت أن تأكل يجب أن تعمل.

يذهب الرجال إلى الآنديز
من أجل قبّرة ذهبية.
إنهم يمتلكون الآنديز ها هنا
إذا أردوا فقط أن يعملوا.

١٦٢٩: لاس كانكريخيراس

- باسكونان -

يصرّ رأسه ويتألم. ممدّداً في الوحل وسط كومة من الموتى، يفتح نونيز دي بينيدا عينيه: العالم لوحة من الدم والوحل ملطخةٌ بالمطر الذي يدوّم ويرتدّ ويطرطش ويرتدّ

يرمي الهنود أنفسهم عليه. يمزقون درعه وخوذته الحديدية التي بعجتها الضربة التي صرعته ثم يعرّونه. يصلّب فرانسيسكو قبل أن يقيدوه إلى جذع شجرة.

تسفع العاصفة وجهه. يتوقف العالم عن الدوران. يخبره صوت من داخله عبر صرخات الآروكانيين: «أنت في مستنقع في إقليم تشيلان، في أرضك، تشيلي. هذا المطر هو الذي رّطب بارودك وهذه الريح هي التي أطفأت فتائلك. لقد خسرت. أصغ لهؤلاء الهنود الذين يتجادلون حول طريقة موتك».

يتمتم فرانسيسكو صلاته الأخيرة.

فجأة تتطاير مجموعة من الريش الملوّن عبر المطر. يفسح الآروكانيون طريقاً للحصان الأبيض الذي يخرج من منخريه ناراً متفجرة ومن فمه زبداً. يهمز الخيّال المقنّع بخوذةٍ حصانه بشدّة. يقف الحصان على قائمتيه أمام «موليكان» المنتصر. يخيّم الصمت على الجميع.

يفكّر فرانسيسكو: «إنه الجلاّد. انتهى كلّ شيء الآن».

يقول الخيّال المريّش شيئاً ما لموليكان. يسمع فرانسيسكو فقط صوت المطر والريح. ولكن حين يختفي الخيّال يفك موليكان وثاق الأسير وينزع رداءه ويغطيه به.

بعد ذلك تعدو الأحصنة إلى الجنوب.

١٦٢٩: ضفاف نهر البيو ـ بيو

- بوتابيتشون -

يشاهدون حالاً حشداً يتقدّم من ناحية الجبال البعيدة. يخز موليكـان حصانـه ويتقدّم ليلتقي بالزعيم بوتابيتشُون.

كان مع المجموعة القادمة من سلاسل الجبال أسير يتعثر بين الأحصنة مقيداً من عنقه بحبل.

ينصب بوتابيتشون رمحه الثلاثيّ الرؤوس على التلة المسطّحة. يفك وثاق الأسير ويرمي غُصْناً على قدميه.

ـ «سمّ القادة الثلاثة الأكثر شجاعة في جيشكم».

يتلعثمُ الجندي: «لاأعرف».

يأمر بوتابيتشون: «سمٍّ واحداً».

ـ «لاأذكر».

ـ «سمّ واحداً»

يسمى والد فرانسيسكو.

ـ «سمّ آخراً».

يسمي آخراً. ويؤمر بأن يكسر غصناً مع كل إسم. يراقب فرانسيسكو المشهد وأسـنانه تصطك.

يسمّي الجندي إثني عشر قائداً. يحمل إثني عشر غصناً في يده.

ـ «إحفر حفرة الآن».

يرمي الأسير الأغصان في الحفرة واحداً بعد آخر مكرراً الأسماء.

ـ «ألق عليها وسخاً وغطيها».

يقول بوتابيتشون بعد ذلك: «لقد دفن القادة الشجعان الإثنا عشر الآن؟».

يضرب الجلاد الأسير بهراوته المليئة بالمسـامير. ينتزعون قلبـه، ويدعـون موليكـان إلى تجـرع جرعة الدم الأولى. يعوم دخان التبغ في الجو حين يمرُّ القلب من يد إلى أخرى.

بعد ذلك يقول بوتابيتشون السريع في الحرب البطيء في الكلام لموليكان: «جئنا لنشتري القائد الموجود معك... نعرف إنه ابن ألفارو، الزعيم الكبير الذي جعل أرضنا ترتجف».

يقدّم له إحدى بناته ومائة خروف قشتالي وخمس لامات وثلاثة أحصنة وسروج وعدة عقود من الحجر الثمين. سيكفي هذا لشراء عشرة إسبان.

يبتلع فرانسيسكو لعابه. يحدّق موليكان بالأرض، بعد برهة يقول: «يجـب أن آخـذه إلى أبـي أولاً وإلى الزعماء الآخرين لإقليمي «ريبوكورا» أريد أن أريهم غنيمة شجاعتي».

يقول بوتابيتشون: «سننتظر».

يفكر فرانسيسكو: «إن حياتي هي فقط موت بعد آخر». تطنّ أذناه.

١٦٢٩: ضفاف نهر امبريال

ـ موليكان ـ

ـ «هل استحممت في النهر؟ اقترب من النار. أنت ترتجف. اجلس واشرب. تعال أيها القائد هل أنت أصم؟ وتتحدث لغتنا كواحد منا؟.. كل واشرب. أمامنا رحلة طويلة. ألا تحبّ الشيكا؟ ألا تحبّ لحمنا غير المملح؟ طبولنا لا ترقص قدميك؟. أنت محظوظ أيها القائد الولد. أنتم بشر يحرقون وجوه الأسرى بالحديد الذي لايمحى أثره. أنت سيء الحظ أيها القائد الولد. إن حريتك الآن ملكي. أنا آسف عليك. اشرب. اشرب. انزع هذا الخوف من قلبك لن أبيعك أبداً. إن قدرك في يد إله العالَم والإنسان. إنه عادل. اشرب. أكثرٍ؟ قبل أن تصل الشمس سنكون في ريبوكيورا. أريد أن أشاهد والدي واحتفل. إنه عجوز. عاجلاً ستذهب روحه لتأكل البطاطا السوداء هناك خلف القمم الثلجية. أتسمع وقع خطى الليل؟ أجسادنا نظيفة وقويّة للبدء بالرحلة. الخيول تنتظرنا. قلبي يخفقُ بسرعة أيها القائد الولد. أتسمع قرع طبول قلبي؟ أتسمع موسيقا سعادتي؟

١٦٢٩: إقليم ريبوكيورا

ـ لتقول وداعاً ـ

قمراً بعد قمر مرّ الزمن. سمع فرانسيسكو وتعلّم الكثير في سنوات أسره. لقد تعلّم، ، ويوماً ما سيكتب الجانب الآخر من هذه الحرب التشيلية: هذه الحرب العادلة التي شنّها الهنود ضدّ الذين خدعوهم وأخطأوا معهم واسترقوهم وفعلوا ما هو أسوأ من ذلك.

يصلّي فرانسيسكو في الغابة راكعاً أمام صليب مصنوع من الأغصان. سيذهب الليلة إلى حصن ناسيمينتو. سيستبدل هناك بثلاثة زعماء آروكانيين أسرى. سيحرسه في الرحلة مائة رمح.

يمشي الآن نحو المقرّ. تنتظره في أجمة الأشجار دائرة من المعاطف الرثّة والوجوه الموحلة. تمّر الفراولة أو شيكا التفاح من فم إلى آخر.

يتلقى المبجّل «تيريوبيلان» غصن القرفة الذي هو الكلمة ويرفعه ثم يمدح طويلاً كلاً من الزعماء الحاضرين يمدح موليكان، المحارب الباسل الذي ربحَ أسيراً مهماً في المعركة وعرفَ كيف يأسره حيّاً.

يقول تيريوبيلان: «حين حملنا سلاحنا ضدّ الطغاة الإسبان الذين اضطهدونا وأذلونا فقدت شعوري بالعطف نحوهم فقط في المعركة. لكن حين رأيتهم كأسرى فيما بعد سبّب لي هذا ألماً وحزناً عظيماً وآلم روحي أنني أدرك أننا في الحقيقة لانكرههم كأشخاص، إلا أننا نكره جشعهم وقساوتهم وغرورهم».

يلتفت إلى فرانسيسكو قائلاً: «وأنت أيها القائد الصديق والرفيق الذي سيرحل بعيداً ويتركنا متألمين وحزينين بدون عزاء لاتنسانا».

يسقط تيريوببيلان غصن القرفة في وسط الدائرة ثم يهز الآروكانيون الأرض بضربات أقدامهم.

١٦٣٠: موتوسينتل

ـ لن يخونوا موتاهم ـ

كان فراي فرانسيسكو برافو يعظ في قرية موتو سينتل لمدة عامين تقريباً. أخبر الهنود في أحد الأيام أنه استدعي إلى إسبانيا. قال إنه يرغب بأن يعود إلى غواتيمالا ويبقى فيها إلى الأبد مع قطيعه الذي يحبه إلا أن رؤساءه في إسبانيا لن يسمحوا له.

قال فراي فرانسيسكو: «إن ما يمكن أن يقنعهم هو الذهب فقط».

قال الهنود: «لانملك ذهباً».

صحّح القسيس: «نعم تملكون.. أعرف أن هناك ذهباً مخبأ في موتوسينتل».

شرحوا له: «ليس هذا الذهب لنا. إنه لأسلافنا. نحن فقط نعتني به ثم إذا فقد منه شيء ماذا سنقول لهم حين يعودون إلى الحياة؟».

ـ «أعرف فقط ماذا سيقول رؤسائي في إسبانيا. سيقولون: إذا كان هنود القرية التي تريد أن تمكث فيها يحبونك، فلماذا أنت فقير؟».

اجتمع الهنود ليناقشوا المسألة.

في أحد أيام الأحد، يعصبون عيني فراي فرانسيسكو ويدورون به إلى أن يدوخ. ذهب الجميع خلفه من الشيخ الأكبر إلى الرضيع. حين يصلون إلى مؤخرة الكهف يزيحون العصابة عن عينيه. ينبهر القس، وتتألم عيناه من لمعان الذهب. كان يوجد ذهب أكثر من كنوز ألف ليلة وليلة ولم تعرف يداه المرتجفتان أين تبدآن. حوّل رداءه إلى حقيبة وحمل ما قدر عليه. بعدَ ذلك أقسم بالله وبالكتب المقدّسة أنه لن يكشف السرّ أبداً ثم منحوه بغلاً وكعكعات ذرة كزادٍ في رحلته.

بعد مرور فترة من الزمن تلقى القصر الملكي في غواتيمالا رسالة من فراي فرانسيسكو برافو أرسلها من ميناء فيراكروز. قال إنه يؤدي واجبه رغم أن هذا يؤلم روحه بأن يقدم خدمة للملك تتعلّق بقضية مهمة ومميّزة مرتبطة بنوع من العمل. وصف الموضع المحتمل للذهب: «أعتقد أنني ابتعدت عن القرية قليلاً. كان هناك جدول يجري في جهة اليسار». وضع في الظرف بعض العيّنات ووعد أن يستخدم ما تبقى من أجل روح قدّيس في «مَلقة».

يندفع القضاة والجنود على ظهور خيولهم إلى موتو سينتل. يطلب القاضي خوان مالدونادو الذي يرتدي رداء أحمر ويحمل صولجاناً أبيض، من الهنود أن يسلموا الذهب.

يعدهم ويضمن لهم المعاملة الحسنة.
يهدّدهم بالعقوبات.
يسجن بعضهم.
يعذّب البعض الآخر بأدوات تعذيب خشبية.
يجبر البعض على الصعود على درجات منصة الإعدام،
ولايحظى بشيء.

١٦٣. ليما

- ماريا، ملكة ظهور السفن -

تقول ماريا ديل كاستيللو وهي تطلق تنهيدة: كل يوم تحدث مشاكل كثيرة ولا يأتي زوج. يُقَدِّمُ عند قدميها عامل المسرح والملقّن والممثلة النجمة العزاء ويمنحونها النسائم من مراوحهم.

اعتقل حرّاس محكمة التفتيش خوان من بين ذراعي ماريا في الغسق المتلبّد وزجوه في السجن لأن الألسنة المسمومة قالت إنه قال بينما كان يستمع إلى الإنجيل: «أوه.. كل ما يوجد فيه هو الحياة والموت».

قبل بضع ساعات في الساحة الرئيسية وفي الشوارع الأربعة التي تؤدي إلى زاوية التاجر، أعلن الزنجي لازارو أوامر نائب الملك الجديدة بخصوص المسارح.

يأمر نائب الملك الكونت تشينشون بأن يفصل حائط من الطوب النساء عن الرجال في المسرح تحت طائلة العقوبة إذا جلس أي شخص في منطقة الجنس الآخر. يجب أيضاً أن تتوقف المسرحيات الكوميدية بوقت أبكر حين تقرع الأجراس من أجل الصلاة ويجب أن يغادر الرجال والنساء من أبواب مختلفة كي لايتم ارتكاب اعتداءات خطيرة ضدّ الربّ، أبينا، كما يحدث غالباً في ظلام المعبرِ الضيّق وقرّر نائب الملك أنه إذا لم يكن هذا كافياً فيجب أن يُخفّض سعر البطاقات.

تصرخ ماريا: «لن ينال مني أبداً. مهما حاصرني لن ينال مني».

حافظتْ ماريا ديل كاستيللو، الزعيمة العظيمة للمسرح الكوميدي في ليما على حيويتها وجمالها اللذين جعلاها مشهورة ومازال بعد ستين عاماً تسخر من المحجبات اللواتي يظهرن عيناً واحدة، وبما أن عينيها جميلتان فإنها تنظر وتغوي وتخيف بوجهها المكشوف. كانت طفلة تقريباً حين اختارت هذه المهنة السحرية وكانت تسحر الناس من على مسرح «ليما» منذ نصف قرن. أوضحت أنها حتى لو أرادت فإنها لاتستطيع أن تحوّل المسرح إلى دير لأن الله لن يتزوجها بعد ثلاث زيجات استمتعت بها بشكل كامل.

رغم أن المفتشين جرّدوها من زوجها ورغم أن مراسيم الحكومة تحاول إخافة الجمهور، تُقسمُ ماريا أنها لن تنام مع نائب الملك.

ـ «أبداً، أبداً».

ضدّ الجحيم والمياه العالية وحيدة وبنفسها سوف تستمر في تقديم أعمالها الجريئة في مسرحها الكوميدي خلف أبرشية سان أوغسطين. بعد وقت قصير ستحيي مسرحية الراهبة الملازمة. التي كتبها الإسباني الساخر المشهور خوان بيريز دي مونتالبان وستنتج مسرحيتين جديدتين لاذعتين لكي يرقص الجميع ويغنون ويمتلئون بالعواطف في هذه المدينة المضجرة التي لايحدث فيها شيء.

١٦٣١: غواتيمالا القديمة

ـ أمسية موسيقية في دير كونسيبسيون ـ

تغني جوانا وهي تعزف على العود في حديقة الدير. ضوء أخضر. نسيم أخضر: كان الهواء ميتاً إلى أن لمسته بكلماتها وموسيقاها.

جوانا ابنة القاضي مالدونادو الذي يوزّع الهنود على المزارع والمناجم والمشاغل. كان مهر زواجها ليسوع ألف دوقية وستة عبيد سود كرّسوا لخدمتها في الدير. حين تغني جوانا كلماتها وكلمات الآخرين يصغي العبيد الذين يجلسون بعيداً منتظرين.

لايستطيع الأسقف الجالس أمام الراهبة أن يسيطر على عينيه. ينظر إلى رأس جوانا المنحني فوق المزمار، إلى حنجرتها العارية، إلى فمها المتوهج الفاغر ويأمر نفسه بأن يلزم الهدوء. إنه مشهور بأنه لايغير تعابير وجهه أبداً حين يمنح قبلة أو عزاء. إلا أن هذا الوجه الثابت يرتدي الآن تقطيبة يلتوي فمه ويرفّ جفناه، يبدو نبضه الصارم غير منسجم مع اليد التي تحمل كأس خمرة وهي مرتجفة.

كانت الألحان، مدائح الخالق أو اتهامات التجديف تصعد بين الأوراق. في الخلف، كان ينتصب بركان الماء الأخضر. يودّ الأسقف أن يركّز على حقول الذّرة والحنطة والينابيع التي تتدفّق على المنحدرات.

ذلك البركان يأسر المياه. كلّ من يقترب منه يسمع هيجانات.كما يحدث في إناء ماء يغلي. كانت آخر مرة تقيّأ فيها منذ أقل من قرن فأغرق المدينة التي أسّسها بدرو دي ألفارادو في سفوحه. هنا ترتجف الأرض في كلّ صيف واعدة بالغضب. هنا تعيش المدينة في قلق وتوتر بين بركانين يقطعان نفسها: واحد يهدّد بالطوفان والآخر بالجحيم.

خلف الأسقف، يقع البركان الناري مواجهاً للبركان المائي. يمكن أن يقرأ المرء على ضوء ألسنة اللهب الصاعدة من فمه رسالة على بعد فرسخ واحد. يسمع من وقت لآخر رعد كأنه قصف

مدافع عديدة ويقصف البركان العالم بالأحجار: يطلق الصخور الضخمة التي لايستطيع أن يحرّكها عشرون بغلاً ويملأ السماء بالرماد والهواء بزنخ الكبريت.

يحلّق صوت الفتاة.

ينظر الأسقف إلى الأرض راغباً أن يعدّ النمل إلا أن عينيه تنزلقان على قدمي جوانا اللتين يخبئهما حذاؤها ويكشفهما بطريقة ما. تحلق عيناه فوق الجسد المتناسق الذي يخفق تحت العباءة البيضاء بينما تستيقظ ذاكرته فجأة وتعود به إلى الطفولة. يتذكّر الأسقف تلك الاندفاعات التي لايمكن السيطرة عليها والتي كان يشعر بها ليعض خبز القربان المقدّس في منتصف القدّاس ويتذكر هلعه من أن ينزف ثم يبدأ بحراً من الكلمات غير المنطوقة والرسائل غير المكتوبة والأحلام التي لم تروَ أبداً.

بعد وهلة، يصدر الصمت صوته. يلاحظ الأسقف وهو يجفل أن جوانا توقفت لبعض الوقت عن الغناء واللعب. ستريح المزمار على ركبتيها وتنظر إلى الأسقف بابتسامة عريضة، بتلك العينين التي لاتستحقهما حتى هي. يعوم عطر أخضر حولها.

يعاني الأسقف من نوبة سعال. يسقط اليانسون على الأرض ويؤلم يديه من التصفيق ثم يصرخ.

- «سأجعلك الأم الرئيسية للدير. سأجعلك رئيسة الدير».

- دوبيتات شعبية للعاشق الخجول -

أريد أن أقول ولا أريد
أنا أتحدّث دون أن أنطق بكلمة.
أريد أن أحبّ ولاأريد.
وأنا أحبّ دون أن يسمعني أحد.

يعتريني ألم لاأعرف أين موضعه.
ولاأعرف سببه.
ولا أعرف متى سيشفيني منه
شخص ما نسيت اسمه.

في كلّ مرة تنظرين إليّ
وأنا إليك
بعيني أقول
مالا أقوله.
وبما أنني لاأجدك
أبحث لأذكرك.

١٦٣٣: بينولا

- المجد لله في الأعالي -

إن برغوث الرمل(1) أصغر من برغوث عاديّ وأشرس من نمر يدخل من القدمين وبصرعك إذا حككت. إنه لايهاجم الهنود بيد أنه لايرحم الأجانب.

حاربه الأب توماس كيج لمدة شهرين عندما يحتفل بنصره على البرغوث يوطد إقامته في غواتيمالا إنه لن يتذمر من أيّ شيء لولا البرغوث ترحّب به القرى بالأبواق تحت مظلات من الأغصان والأزهار يمتلك ما يريده من الخدم ويقود سائسٌ حصانه من لجامه.

يجمع راتبه في الوقت المناسب فضة وقمحا وذره وكاكاوا ودجاجاً وَيُدْفَعُ له بشكل منفصل مقابل القدّاسات التي يتلوها هنا في بينولا والمكسيك. هذا بالإضافة إلى عمليات التنصير والخطوبات والدفن والصلوات التي يؤديها ردًا على دعوات لمحاربة الجراد والأوبئة أو الزلازل. وبالمقارنة مع مايعطى للقديسين الكثيرين الذين يرأسهم وأولئك الذين يعملون أثناء عيد الميلاد وعيد الفصح يأخذ الأب كيج أكثر من ألفي «أسكود» كل عام دون أن يقوم بأي عمل. بالإضافة إلى الخمرة والملابس مجاناً.

يأخذ القسيس راتبه من الجزية التي يدفعها الهنود لدون خوان دي كوزمان مالك هؤلاء الرجال وهذه الأراضي بما أن المتزوجين فقط يدفعون الجزية، والهنود سريعون في نشر الفضيحة وفضوليون. يجبر المسؤولون الأطفال الذين هم في سن الثانية عشرة والثالثة عشرة على الزواج، ويزوجهم الكاهن بينما أجسادهم ماتزال تنمو.

١٦٣٤: مدريد

- من كان يختبىء تحت مهد زوجتك؟ -

يقرّر المجلس الأعلى لمحكمة التفتيش الذي يدقّق بمسألة نقاء الدم أنه سيجري تحقيقاً دقيقاً جداً مع موظفيه قبل أن يتزوّجوا.

يجب على جميع من يعمل في محكمة التفتيش ومن الحمّال إلى النائب العام. إلى المعّذب والجلاد والطبيب ومساعد الطاهي أن يوضحوا نسب المرأة التي يختارونها لمدة قرنين وذلك لتجنّب الزواج من المرضى.

وهؤلاء المرضى هم كل من يوجد فيه قطرات من الدم الهندي أو الأسود أو كل من ينتمي أجدادهم أو أجداد أجدادهم إلى الدين اليهودي أو الثقافة الإسلامية أو لهم أية علاقة بأية هرطقة.

---

(١) - برغوث الرمل: هامة من جنس دود الجبن تورث لسعتها حكاكاً شديداً وتنقر الجلد.

١٦٣٦: كويتو

- النصف الثالث -

أمضى الصياد الكبير ورئيس الحكومة وملك الحب وطاولة الورق والقدّاس أكثر من عشرين عاماً في منطقة كويتو. إن الجميع يمشون أو يركضون وفق سرعة حصانه.

اكتشف مجلس الآنديز في مدريد أنه مذنب ارتكب ستة وخمسين جنحة، إلا أن الأنباء السيئة لم تكن قد عبرت المحيط بعد. يجب أن يدفع غرامة الحانوت الذي افتتحه في الفناء الملكي ليبيع الحرير والنسيج الصقيل الذي هرّبه، وغرامةَ الفضائح التي لاتحصى مع النساء المتزوجات والأرامل والعذارى وغرامةَ المقمرة التي افتتحها في منزله في غرفة التطريز قرب الكنيسة الصغيرة التي كان يمارس فيها عبادته كلّ يوم. لقد ربح دون أنطونيو دي مورغا من قَلْبِ ورق اللعب مائتي ألف بيزو هذا دون أن نحصي بطولات أصابعه الرشيقة الغشّاشة (لقد حكم أنطونيو على عدد كبير من الهنود بأن يمضوا بقية حياتهم مقيدين إلى الأنوال، وذلك بسبب ديون تبلغ عشر قطع نقدية).

إلا أن قرار مجلس الآنديز لم يكن قد وصل إلى «كويتو» بعد: لكنّ هذا لم يكن الشيء الذي يقلق دون أنطونيو.

يقف في غرفته عارياً أمام المرآة المؤطرة بالذهب ويرى شخصاً آخر. ينظر إلى جسده البقريّ ولايعثر عليه. كان يتدلى تحت البطن المترهّل وبين الساقين النحيلتين صامتاً، المفتاح الذي عرف التوافق مع أقفال أنثوية كثيرة.

يبحث عن روحه إلا أن المرآة لا تحتوي عليها. من الذي سرق النصف المقدّس من الرجل الذي قدّم المواعظ للرهبان وكان أكثر قداسة من الأسقف؟ من الذي سرق بريق عينيه اللتين تشبهان عيني المتصوّف؟ كان يوجد فقط ظلمة وتجاعيد فوق اللحية الشائبة.

يتقدّم دون أنطونيو دي مورغا إلى الأمام إلى أن يلمس المرآة، ويسأل عن نصفه الثالث. يجب أن يكون هناك منطقة لاذت إليها الأحلام التي حلم بها مرة ونسيها. يجب أن يكون هناك مكان تستعيد فيه العينان اللتان أعطبهما النظر الكثير، ألوان العالم، وتستعيد فيه الأذنان اللتان هما الآن صمّاوان تقريباً ألحانه. يبحث عن ذوق لم يختفِ عن رائحة لم تتلاش، عن دفء تستطيع اليد أن تشعر به.

لا يعثر على أيّ شي تمّ انقاذه أو يستحق الإنقاذ. تعكس المرآة فقط رجلاً عجوزاً فارغاً سيموتُ الليلة.

١٦٣٧: مصبّ نهر سوكري

- ديبيغيلو -

تعلّم الأب توماس كيج منذ بضعة أيام كيف ينجو من التماسيح. إذا هربْتَ من التماسيح بشكل متعرّج فإنها ترتبك لأنها تستطيع أن تسبح فقط في خطٍّ مستقيم.

لكن لم يعلّمه أحد كيف ينجو من القراصنة. لكن هل يوجد أحد يعرف فعلاً كيف ينجو من تلك السفن الهولندية الكبيرة وهو يبحر في فرقاطة بطيئة غير مسلّحة؟

تخفض الفرقاطة أشرعتها في البحر الكاريبي وتستسلم. تستلقي روح الأب كيج منبطحةً أكثر انكماشاً من الأشرعة. كان يوجد معه في السفينة المال الذي جمعه في الإثني عشر عاماً التي قضاها في أميركا يحارب انتهاك المقدّسات ويسحب الموتى من الجحيم

تأتي المراكب الصغيرة وتذهب. يأخذ القراصنة اللحم والطحين والعسل والدجاج والدهون والجلود. يأخذون تقريباً جميع الثروة التي يحملها القّس من الذهب واللآلئ. إلا أنه بقي شيء منها داخل المخدة لم يستولوا عليه لأنهم احترموا فراشه.

يستقبله زعيم القراصنة الخلاسيّ الجبار في حجرته. لايقدّم سوى مقعد وكأس من الرّم. يتدفق عرق بارد على عنق القسّ ويجري على ظهره. يتجرّع جرعة سريعة كان قد سمع عن هذا الكابتن ديبيغيلو. يعرف أنه اعتاد أن يقوم بالقرصنة تحت أوامر المخيف «بيكليك»، إلا أنه الآن يشتغل لوحده بإجازة قرصنة من الهولنديين. يقولون أن «ديبيغيلو» يقتل كي لا يفشل في تحقيق هدفه.

يتوسّل القّس. يتطاير اللعاب من فمه وهو يقول إنه لم يبق معه شيء سوى ردائه الذي يرتديه. يعيد القرصان ملء كأسه ويخبر عن سوء المعاملة التي تعرّض لها حين كان عبداً لحاكم «كامبيتشي».

«ما تزال أمي عبدة في هافانا. ألا تعرف أمي؟ إنها تمتلك قلباً طيباً يا للمسكينة ـ يكلّلك بالعار».

يعوي القّس: «أنا لست إسبانياً. أنا انكليزي». يكرّر كلامه عبثاً. «إن بلادي ليست عدوة لك. ألا تجمع علاقة ودية بين بريطانيا وهولندا؟».

يقول القرصان: «إربح اليوم واخسر غداً.» يحبس في فمه جرعة كبيرة من الرّم ويرسلها ببطء عبر حنجرته.

يأمره وهو ينزع سترته ويكشف عن ظهره المرتفع آثار السياط: «انظر».

يشكر القّس الله لأنه كان يوجد صخب على ظهر السفينة يغطي على خفقات قلبه الوحشية.

ـ «أنا انكليزي».

يخفق وريد في جبهة الأب كيج بيأس. يرفض اللعاب أن يهبط عبر حنجرته.

- «خذني إلى هولنده أتوسل إليك. خذني إلى هولندة من فضلك! لا يمكن أن يتركني رجل كريمٌ هكذا عارياً وبدون..».

يحرّر القرصان بهزة واحدة ذراعه من أيدي القَس الألف. يضرب الأرض بقصبة فيدخل رجلان: «أخرجوه من هنا!».

يدير ظهره مودعاً، ناظراً إلى نفسه في المرآة ويقول له: «إذا ذهبت إلى هافانا في أي وقت، ابحث عن أمي، اذكرني أمامها. قل لها... قل لها: أنا بخير».

حين يعود إلى فرقاطته يشعر الأب كيج بتشنجٍ في معدته. الأمواج تنشط والقسّ يلعن الذي قال هناك في «جيريزديلا فورنتير» منذ اثني عشر عاماً إن اميركا مرصوفة بالذهب والفضة وأنه عليك أن تمشي بحرص كي لا تدوس على الألماس.

١٦٣٧: خليج ماسّا تشوسيتس

- الله رجل إنكليزي -

قال الورع وراعي الأرواح جون إلمر منذ بضعة أعوام إن الله رجل إنكليزي ويقول جون وينثروب مؤسّس مستعمرة خليج ماسّتشوسيتس أن الإنكليز يستطيعون أن يستولوا على أراضي الهنود شرعياً كما فعل أبراهام مع اللواطيين: إن كل ما هو مشاع ليس ملكا لأحد. إن هذا الشعب المتوحش يحكم أراضي كثيرة دون لقب أو ملكية. إن وينثروب هو ريئس البيوريتانيين الذين وصلوا في سفينة آرابيلا منذ أربعة أعوام. جاء مع أبنائه السبعة. ودّع جون كوتون الحجّاج في مرفأ ساوثمبتن مؤكداً لهم أن الله سيطير فوق رؤوسهم ويقودهم من إنكلترة القديمة، أرض الآثام إلى أرض الميعاد.

جاء البيوريتانيون ليشيدوا قدساً جديدة على قمة هضبة. قبل «الأرابيلا» بعشرة أعوام، وصلت «زهرة أيار» إلى بليموث في وقت كان قد وصل فيه إنكليز آخرون جائعون للذهب إلى شواطىء فيرجينيا جنوباً. تهرب الأسر البيوريتانية من الملك وأساقفته. تخلّف وراءها الضرائب والحروب والجوع والأمراض. إنها تهربُ أيضاً من الخطر الذي يهدّد في تغيير النظام القديم وكما يقول وينثروب، محامي كامبردج الذي ولد في مهد نبيل: «إن الله جَل جلاله رتّب بعنايته الأكثر قداسة وحكمة الوضعية البشرية بطريقة، كما في جميع الأزمنة، تقتضي أن يكون البعض أغنياء والبعض في أعلى مراكز القوة والهيبة وأن يكون الآخرون وضعاء وخاضعين».

لأول مرة شاهد الهنود جزيرة عائمة. كانت الصارية شجرة والأشرعة غيوماً بيضاء. حين توقفت الجزيرة خرج الهنود في قواربهم ليقطفوا الفراولة، إلا أنهم وجدوا الجدري بدلاً من الفراولة.

التهمت الجدري القبائل الهندية ونظفت الأرض لرسل الله، للذين اختارهم الله، لشعبِ إسرائيل على رمال الأرض الكنعانية. الذين عاشوا هنا أكثر من ثلاثة آلاف عام يموتون كالذباب. يقول وينثروب. «أرسل اللهُ الجدري ليلزم المستعمرين الإنكليز باحتلال أراضٍ أفرغها المرضُ من سُكّانها».

١٦٣٧: حصن ميستك

- من وصية جون آندرهل بخصوص المجزرة التي ارتكبت ضد هنود بيكوت -

لم يعرفوا شيئاً عن مجيئنا. سلّمنا أنفسنا لله ونحن نقترب من الحصن وتوسّلنا طالبين مساعدته في مشروع كبير....

لم نستطع سوى أن نعجب بالعناية الإلهية في هذا الأمر، إذ أن الجنود غير الخبراء في استخدام أسلحتهم أطلقوا وابلاً نارياً وكأن إصبع الله لمست الفتيل وحجر القداحة. أُطْلِقَ الوابل فجراً حين كانوا نائمين فارتعبوا وصرخوا من الحزن وكأن الله لم يصنع قلوب الرجال بشكل يناسب الخدمة، كان لابد أنه ولد فيهم شفقة نحوهم لكن بما أن كل رجل مجرّد من الشفقة، تابعوا عملهم دون عطف. سفحوا دم سكان بلدنا الأصليين وتعاملوا معهم بشكل بربري وذبحوا حوالي ثلاثين شخصاً. اقتربنا من الحصن حاملين سيوفنا في أيدينا اليمنى وبنادقنا في اليسرى.

حرق كثيرون في الحصن وأجبر آخرون على الخروج.. استقبلهم جنودنا وتسلّوا بهم بحدّ السيف. سقط الرجال و النساء والأطفال، أما الذين نجوا فقد وقعوا في أيدي الهنود الذين كانوا في مؤخرتنا. لقد رووا ذلك بأنفسهم. كان يوجد في الحصن أربعمائة روح ولم ينج أكثر من خمسة منهم من أيدينا. كان عظيماً ومحزناً بالنسبة للجنود الشبان الذين لم يشاركوا أبداً في حرب أن يشاهدوا أرواحاً كثيرة تشهق على الأرض وكثيفة جداً في بعض الأمكنة بحيث لا تستطيع أن تمر إلا بصعوبة. يمكن أن يسألنا أحد ما لماذا كان عليكم أن تكونوا متوحشين؟ ألا يجب أن يمتلك المسيحيون بعض الرحمة والشفقة؟ لكن سأحيلكم إلى حرب داوود. حين يسفح شعب الدم ويذنب ضد الله والإنسان ويشترك الجميع في الفعل هناك يجب ألاّ يحترم الأشخاص ولكن يجب أن ينكّل بهم بالسيف وبأكثر الميتات رعباً. أحياناً يصرّح النصّ المقدّس أن النساء والأطفال يجب أن يعانوا مع آبائهم وأحياناً تتغيّر الحالة ولكن لن نتنازع حول هذا الآن. نمتلك ضوءاً كافياً من كلام الله من أجل أعمالنا.

١٦٣٩: ليما

- مارتن دي بوريس -

تدق أجراس كنيسة سانتودومينغو دقة الموت. ففي ضوء الشمعة، مغتسلاً بالعرق، أسلم مارتن دي بوريس روحه بعد عراك طويل مع الشيطان بمساعدة مريم المقدّسة والقدّيسة كاترين، العذراء والشهيدة. مات في فراشه، حيث أسند رأسه إلى حجر بدلاً من المخدة ووُضعت جمجمة إلى جانبه، بينما ركع نائب الملك في ليما وقبّل يده وتوسّل إليه أن يتوسّط له من أجل مكان صغير في الفردوس.

كان مارتن دي بوريس من ذرّية عبدة سوداء وسيدها، الذي كان من نسب إسباني نقي والذي لم يحبّلها ليستخدمها كأداة، بل ليطبّق المبدأ المسيحي الذي يقول إن الجميع متساوون في الفراش أمام الله.

منح مارتن لأبرشية رهبان دومينيكاينين في سن الخامسة عشرة. هناك قام بأعماله واجترح معجزاته. لم ينصب أبداً كقسّ كونه خلاسياً، إلا أنه يعانق المكنسة بحب ويكنس كل يوم الغرف والأروقة والمشفى والكنيسة. كان يحلق كل يوم بالموسى لمائتي قسّ ويعتني بالمرضى ويوزّع الملابس الجديدة المعّطرة بحصى البان[1].

حين عرف أن الأبرشية أفلست مالياً ذهب ليقابل رئيسه: «سلاماً لك يا مريم».

- «سلاماً لك يا مريم الطاهرة».

عرض عليه: «يجب أن يبيع نيافتكم[2] هذا الكلب الخلاسيّ».

وضع في فراشه شحاذين متقرّحين وصلّى راكعاً على ركبتيه طوال الليل. أضفى عليه ضوء غير عادي لوناً أبيض كالثلج. خرجت ألسنة لهب بيضاء من وجهه حين عبر الرواق في الليل هارباً كشهاب مقدّس متجهاً إلى عزلة حجرته. مشى عبر أبواب مقفلة وصلّى أحياناً وهو راكع في الهواء مرتفعاً عن الأرض. رافقته الملائكة إلى الكورس حاملة في أيديها شموعاً. قدّم العزاء للأسرى في الجزائر دون أن يغادر ليما وأنقذ أرواحاً في الفيليبين، والصين واليابان، وقرع دون أن يتزحزح من مكانه، ناقوس التبشير شفى الميتين بخرق غمست في دم الديكة السوداء ومسحوق الضفادع وبرقى تعلّمها من أمه. أوقف آلام الأسنان بلمسة إصبع وحوّل الجراح المفتوحة إلى ندوب والسكّر الأسمر إلى أبيض وأطفأ النيران بنظرة فتوجّب على الأسقف أن يمنعه من اجتراح معجزات كثيرة بدون إذن.

---

(١) - حصى البان: نبات عطر من الفصيلة الشفويّة.

(٢) - نيافة: لقب شرف لرئيس أساقفه.

بعد صلوات الصبح سيشقّ ظهره بسوط مصنوع من جلد ثور فيه عقد سميكة ويصرخ وهو ينزف: « أيها الكلب الخلاسيّ الشرير، كم ستطول حياتك المذنبة؟».

يطلب دائماً الصفح بعينين متوسلتين غاصتين بالدموع. كان أول إضافة داكنة الجلد إلى قائمة الكنيسة الكاثوليكية المقدّسة الناصعة البياض كالزنبق.

١٦٣٩: سان ميغيل دي توكومان

- من بيان شجب للأسقف توكومان أُرسل إلى محكمة التفتيش في ليما -

بالحقيقة والإخلاص الذي يجب أن تخاطب بهما محكمة مقدّسة، أشجب المبجّل، أسقف توكومان دي سافيردا الذي سمعت عنه أشياء منيرة للشك بشكل خطير في ديننا الكاثوليكي المقدّس والتي هي منتشرة في الأبرشية كلها. لقد حدث في «سالتا» أثناء احتفالات تثبيت العمادة أن جاءت فتاة جميلة وقال لها: «من الأفضل ان تنتزع قداستك بدلاً من أن تؤكد». وأنه حدث في قرطبة العام المنصرم ١٦٣٨ أن جاءت فتاة أخرى فقال لها، وبحضور بشر عديدين وهو يرفع رداءه: «أخرجي يجب ألا أعمدك من الأسفل بل من الأعلى». ولقد تعايش مع الأولى بدون زواج بشكل معروف.

١٦٣٩: بوتوسي

- وصية رجل أعمال -

ينتأ أنف الكاتب بالعدل من خلال الستائر. تفوح رائحة غرفة النوم بالشمع والموت. يمكن أن تشاهد في ضوء الشمعة الوحيدة الجمجمة تحت جلد الرجل الذي يحتضر.

- «ما الذي تنتظره أيّها العقاب؟».

لا يفتح رجل الأعمال عينيه إلا أن صوته يعلو بحزم.

يقول متنهداً: «لقد تناقشتُ أنا وظلّي». ثم يأمر الكاتب بالعدل: «يجب ألا تضيف أو تحذف أي شيء، أتسمعني؟. سأمنحك طيوراً يبلغ ثمنها مائتي بيزو، بحيث تستطيع أن تطير بريشها وبالريش الذي تكتب به إلى الجحيم، هل تسمعني؟ إن كل يوم أعيشه هو وقت مستعار. وكل يوم يمرّ يكلفني أكثر. اكتب. أسرع بالكتابة أيها الرجل. آمر أن يبنى بجزء رابع من ثروة الفضة التي

أخلفها، مرحاض كبير في الساحة العامة لكي يمجّدني في كل يوم نبلاء وعامة «بوتوسي». آمر أن يدفن جزء آخر رابع من سبائكي الذهبية وقطعي النقدية في ساحة منزلي وأن يوضع على المدخل أربعة كلاب شرسة مربوطة بالسلاسل وأن تزوّد بكمية كبيرة من الطعام لتحرس هذا الكنز».

لايتدلى لسانه. يتابع الكلام دون أن يأخذ نفساً: «وأُوصي أن يطبخ طعام عالي الجودة بجزء آخر رابع من ثروتي ويوضع في آنيتي الفضيّة ويدفن في حفرة مع كل شيء تبقى في موضع حفظ اللحوم لأنني أريد أن تتخم الديدان نفسها حتى تمرض كما ستفعل بي. وآمر...».

يحّرك سبّابته راسماً ظلاً كالهراوة على الجدار: «وآمر أن لايحضر أحد كائناً من كان جنازتي وأن ترافق جثتي جميع البغال الموجودة في بوتوسي مزيّنة بأغلى الألبسة وأفضل المجوهرات ويفعل هذا بالجزء المتبقي من ثروتي».

- يقول الهنود -

أللأرض مالك؟ كيف حصل هذا؟ كيف تُشْترى؟ إذا لم تكن لنا، إذن ماذا حدث؟ نحن منها. نحن أبناؤها. هكذا كان الأمر دائماً. الأرض حيّة وتغذّي الديدان كما تغذّينا. لها عظام ودم. فيها حليب وهي ترضعنا. لها شعر وعشب وقش وأشجار. تعرف كيف تنجب البطاطا. تنجب المنازل تنجب الناس. تعتني بنا ونعتني بها. تشرب الشيكا وتقبل دعوتنا. نحن أبناؤها. كيف إذاً يمكن أن تباع؟ كيف يمكن أن تشترى؟.

١٦٤. ساو سلفادور دي باهيا

- فييرا -

يطلق الفم شرراً وهو يتفوّه بالكلمات المهلكة كقذائف المدافع. إن أخطر خطيب في البرازيل هو قسّ برتغالي نشأ في «باهيا» وهو باهيٌّ إلى روحه.

غزا الهولنديون هذه الأراضي وأنطونيو فييرا الجزويتي يسأل الأرستقراطيين المستعمرين: «ألسنا سوداً بالنسبة للهولنديين كما هم الهنود بالنسبة إلينا؟».

من على المنبر يوبّخ لورد الكلمة لوردات الأرض والشعب قائلاً: «أيجعلني سيداً أنني ولدت بعيداً عن الشمس ويجعل الآخرين عبيداً أنهم ولدوا قربها؟ لايوجد سوء فهم فادح كهذا وخطأ فادح في الحكم كهذا بين البشر».

في كنيسة آيودا الصغيرة، أعرق كنيسة في المكسيك، يتهم أنطونيو فييرا أيضاً الله الذي أذنب بمساعدة الهولنديين الغزاة: «رغم أننا جميعاً مذنبون ياإلهي، أنت يجب من يتوب اليوم».

١٦٤١: ليما

- آفيلا -

حقّق مع آلاف مؤلفة من الهنود دون أن يجد أحداً منهم برئياً من الهرطقة. دمّر الأوثان والمعابد، أحرق المومياءات حلق الرؤوس وسلخ الظهور بالسوط. أثناء مروره، طهرت ريح الإيمان المسيحي البيرو.

وصل القسّ فرانسيسكو دي آفيلا إلى سن الخامسة والسبعين ليجد أن قوته تخونه. إنه نصف أصم وثيابه تؤلمه ويقرر أن لايغادر العالم قبل أن يحصل على ما كان يريده منذ أن كان طفلاً. وهكذا يقدّم طلباً ليدخل إلى صحبة يسوع.

يقولُ الكاهن الجزويتي أنطونيو فاسكويز: «لا».

«لا»، لأنه رغم أنه يدّعي بأنه رجل متعلّم ولغوي كبير فإن فرانسيسكو آفيلا لايستطيع أن يخفي وضعه كهجين.

١٦٤١: موروري

- الإرساليات التبشيرية -

المماليك قادمون من إقليم سان بابلو. يتقدّم صائدو الهنود، ملتهمو الأراضي على إيقاع الطبول رافعين علمهم. يتقدّم منفذو الأمر العسكري كعاصفة من الرياح الحربيّة عبر البارغواي. يحملون حبالاً طويلة بياقات للهنود الذين سيصطادونهم. ويبيعونهم عبيداً في مزارع البرازيل.

كان المماليك أو قطاع الطرق يدمّرون طوال أعوام كثيرة إرساليات الجزويتيين. لم يبق شيء من البعثات التبشيرية الثلاث عشرة في غويرا سوى الأحجار والفحم. خرجت مجموعات تبشيرية جديدة في هجرة جماعية (سفر خروج) نحو اتجاه مجرى نهر «البارانا» إلا أن الهجمات لم تتوقّف. يجد الثعبان في البعثات التبشيرية الطيور مجتمعة وسمينة، آلاف الهنود المدربين على العمل والبراءة، غير مسحلين، ومن السهل اصطيادهم. يتقاسم الكورانيون حياة منظمة تحت رعاية الأساقفة دون ملكية خاصة أو نقود أو عقوبات قتل بدون رفاه أو ندرة ويتقدمون إلى العمل وهم يغنون على ألحان المزمار. لا تفيد سهامهم المصنوعة من قصب السّكر في وجه بنادق المماليك الذين يختبرون شفرات سيوفهم بقطع الأطفال إلى نصفين ويحملون أردية الكهنة المزقة وقوافل من العبيد كغنائم حرب.

لكنّ مفاجأة تنتظر الغزاة في هذا الوقت. أمر ملك إسبانيا الذي خاف من هشاشة هذه الجبهات منح الكوارانيين الأسلحة النارية. يهرب المماليك مشتتيين.

يتصاعد ريش الدخان وأغاني المديح لله فوق المنازل. هذا الدخان الذي ليس صاعداً من المباني المحترقة بل من المداخن، يحتفل بالنصر.

مدريد: ١٦٤١

- الأبدية ضد التاريخ -

يقضم كونت ودوق أوليفاريس قبضتيه ويطلق اللعنات. يصدر أوامر كثيرة بعد عشرين عاماً من الأعمال والتعطيل في المحكمة، إلا أن خطوة الله أقوى.

كان مجلس اللاهوتيين قد رفض مشروعه بفتح قناة تصل بين نهري تاكوس ومنزناريس والتي سترحب بها سهول قشتالة. ستبقى الأنهار كما خلقها الله وستنتهي مخططات المهندسين كاردوشس ومارتيللي في الملفات.

أعلن في فرنسا أن قناة «لانكويدوك» ستفتتح حالاً لتصل بين البحر الأبيض المتوسط ووادي «غارون». أثناء ذلك وفي إسبانيا التي غزت أميركا يقرّر مجلس اللاهوتيين: «إن كلّ من يحاول أن يحسّن كلّ ما أرادته العناية الإلهية أن يبقى غير مكتمل يذنب ضدّها. لو كان الله يرغب في أن يجعل الأنهار صالحة للملاحة لجعلها كذلك».

١٦٤٤: جيمس تاون

- أوكانكانوف -

قبل أن يطلق جندي إنكليزي النار على ظهره، يسأل أوكانكانوف نفسه: «أين الحارس اللامرئي لخطواتي؟ من الذي سرق ظلي؟».

حين وصل سنه إلى المائة هزم. جاء إلى ساحة المعركة محمولاً على محفة.

أخذه الأميرال بدرو ميندينيز دي آفيلز إلى «كاديز» منذ ثمانين عاماً. قدّمه في بلاط الملك فيليب الثاني قائلاً: «هنا أمير هندي رائع لفلوريدا»، ألبسوه بنطالاً قصيراً وسترةً وطوقاً. علّموه في أبرشية دومينيكانية في سيفيل لغة ودين قشتالة ومنحه نائب الملك في المكسيك اسمه فأصبح اسم أوكانكانوف لوي دي فيلايسكو. عاد فيما بعد إلى أرض أجداده مترجماً ودليلاً لليسوعيين. ظن قومه أنّه عاد من الموت. بشّر بالمسيحية وبعد ذلك نزع ثيابهم وذبح اليسوعيين وعاد إلى اسمه القديم.

قتل الكثير منذ ذلك الوقت ولم يشاهد إلا قليلاً. رأى قرى وحقولاً تلتهمها النار وأخوته يباعون إلى الذي يدفع الثمن الأعلى، في هذا الإقليم الذي عمّده الإنكليز باسم فيرجينيا تخليداً

لذكرى ملكة عذراء روحياً. رأى رجالاً ابتلعتهم الجدري وأراضي التهمها التبغ المستعبد. شاهد سبع عشرة قبيلة من القبائل الثمانية والعشرين التي كانت هنا تكْنَسُ عن الخارطة ورأى آخرين منحوا الخيار بين الشتات أو الحرب رحّب ثلاثون ألف هندي بالبحارة الإنكليز الذين وصلوا إلى خليج «تشيسابيك» في صباح عذب من عام ١٦٠٧. بقي منهم فقط ثلاثة آلاف على قيد الحياة.

١٦٤٥: كويتو

ـ مريم المسيح ـ

يحلّ عام من الكوارث في المدينة. يتدلى قوس أسود على كل باب. لقد غزت ودمّرت الجيوش اللامرئية للحصبة والخناق. خيّم الليل تماماً بعد الفجر وانفجر البركان «بيتشينشا»، ملك الثلج: تقيّأ كمية كبيرة من الماغما والنار سقطت على الحقول وإعصاراً من الرماد

ـ «مذنبون، مذنبون!».

يقذف الأب ألونزودي روخاس اللهب من فمه كالبركان. على المنبر المتوهج لكنيسة اليسوعيين المشيّدة من الذهب يضرب الأب ألونزو على صدره الذي يرجع الصدى وهو يبكي ويصرخ صاخباً: «اقبل يا إلهي تضحية الأكثر تواضعاً بين خدمك اجعل لحمي ودمي يكفّران عن ذنوب «كويتو».

بعد ذلك تنهض امرأة شابة عند قدم المنبر وتقول: «أنا» .

تعلن مريم أمام الناس الذين ملأوا الكنيسة أنها هي المختارة. سوف تهدىء غضب الله. سوف تتحمّل جميع العقوبات التي تستحقها مدينتها.

لم تعرف مريم السعادة أبداً ولم تحلم بأنها كانت سعيدة. ولم تنم أكثر من أربع ساعات كل يوم. كانت المرة الأولى التي لمسَ فيها رجل يدها حين أصيبت بالحمى. قرّرت وهي طفلة أن تصبح عروس الله ومنحته حبها ليس في الدير فحسب، بل في الشوارع والحقول، وليس بالتطريز وصناعة الحلوى والمربيات في الأديرة بل بالصلاة ركوعاً على الأشواك والحجارة وهي تبحث عن خبز للفقراء وعلاج للمرضى وعن ضوء للراعين في ظلمة الجهل بالقانون الإلهي.

تشعر مريم أحياناً أن صوت المطر أو صوت النار يدعوها، إلا أن صوت رعد الله يعلو أكثر دائماً: إله الغضب، الذي له لحية من الأفاعي وعينان من البرق، والذي يظهر عارياً في أحلامها ليختبرها.

تعود مريم إلى البيت. تتمدّد في فراشها وتجهّز نفسها للموت بدلاً من الجميع. تدفع لتحصل على صفح الله. تقدّم جسدها له ليأكل ودمها ودموعها ليشرب حتى يدوخ وينسى.

بهذه الطريقة سيتوقف المرضَ وسيهدأ البركان وتكفّ الأرض عن الإرتجاف.

١٦٤٥: بوتوسي

ـ قصة إستيفانيا، امرأة بوتوسي المذنبة ـ

(عرض موجز للأحداث نقله بارتولومي آرزانز أورسواي ميلا)

ولدت إستيفانيا في البلدة الملكية واكتسبت جمالاً تعجز الطبيعة عن زيادته.

غادرت الشابة الجميلة المنزل في سن الرابعة عشرة متأثرة بنصائح نساء أخريات ضالاّت. حين شاهدت أمها هذا التصميم البغيض الذي دفع ابنتها إلى الرحيل أسلمت روحها بعد بضعة أيام.

لم يجعل هذا الأمر الفتاة تعود إلى الطريق المستقيم. بعد أن فقدت سابقاً كنز عذريتها المجاني بدأت تلبس ثياباً فضائحية وأصبحت مذنبة علنية مثيرة للفضائح.

بعد أن طالت السمعة شقيقها استدعاها إلى منزله وقال: «مهما تألمت يجب أن تسمعينني. إن استمرارك في هذه الخطايا المهلكة سيجعلك عدوة لله وعبدة للشيطان وستلطخين نبالتك وتسيئين إلى شرف سلالتك. فكّري أيتها الأخت. إن ما تفعلينه يخرج من هذه القذارة خافي الله وتوبي». أجابت إستيفانيا: «ماذا تريد مني أيّها المنافق؟». حين وبّخها شقيقها تناولت بسرعة هائلة خنجراً كان معلقاً على الجدار وهجمت عليه بوحشية شيطانية قائلة: «هذا هو الجواب الوحيد الذي تستحقه كلماتك». تركته ميتاً في بحيرة من الدم. قنّعت بعد فترة فعلها السيء بالتظاهر بالحزن وارتدت ثياباً سوداء وعبّرت عن أحزانها الكثيرة.

نجح والدها المتقدم في السن والمتأسف على موت ولده الطيب وفضيحة ابنته السيئة في التصدي لها بكلمات مقنعة، استمعت إليها الفتاة القاسية القلب ضدّ إرادتها وبدلاً من أن تصلح نفسها، اشمأزّت من العجوز، أشعلت ليلاً النار في سقف منزله، قفز العجوز المتألم من فراشه صارخاً بأعلى صوته: «حريق! حريق!» إلا أن الأعمدة التي تدعم السقف انهارت والتهمه العنصر المريع.

بعد أن وجدت نفسها حرة كرّست إستيفانيا نفسها للآثام والخطايا بفسوق أكبر.

جاء إلى بوتوسي في تلك الأيام رجل من إسبانيا. كان تاجراً غنياً، جاء في سفينة شراعية إلى البيرو ولفت انتباهه جمال وفتنة المذنبة. أغراها. بينما كانا يتمتعان بفحشهما قرّر عاشق سابق للسيدة مسلّح بجميع أصناف الأسلحة أن ينتقم لهذه الإساءة.

وجد العاشق السابق المرأة وحيدة إلا أنها كبحت روحه الغاضبة بكلمات مخادعة وحين هدأت غضبه أخرجت سكيناً من كمّها بسرعة كبيرة وطعنته فسقط المسكين ميتاً على الأرض.

ذكرت إستيفانيا الحادثة للتاجر الغني. هدّد بعد عدة شهور وبعد أن عذّبته الغيرة كثيراً أن يحاكمها من أجل الجريمة. في تلك الأيام ذهبا ليستحما في بحيرة «تارابايا». خلعت ثيابها

الفاخرة كاشفة ثلج جسدها المنقّط باللون القرمزي الجميل ورمت نفسها في الماء عارية. تبعها التاجر السعيد، وعندما أصبحا في وسط البحيرة دفعت رأس الرجل المنحوس في الماء بكل قوة ذراعيها.

لا يظنّ أحد أن أفعالها الشنيعة انتهت هنا. بضربة سيف واحدة أنهت حياة سيّد من دم نقّي وقتلت إتنين آخرين بالسم الذي دسّته في وجبة الغذاء. أنهت ألعابها الماكرة حياة الآخرين بطعنات سيف في الصدور وأفرحها أن هذا الدم كله يسفك من أجلها.

واستمر الأمر إلى عام ١٦٤٥ حين سمعت المرأة المذنبة موعظة ألقاها الأب فرانسيسكو ماتينو خادم الله الذي كانت فضائله المثيرة للإعجاب ممتعة جداً في ذلك الوقت في بوتوسي. كان حزن إستيفانيا كبيراً فبدأت تبكي وترخي جداول الدموع من عينيها مطلقة تنهدات عظيمة. وشهقات بدت وكأنها تمزّق روحها وحين انتهت الموعظة رمت نفسها على قدمي الكاهن متوسلة من أجل الإعتراف.

حثّها الكاهن على التوبة وغفر لها إذ أنه معروف بشكل جيد بأية سعادة تسلّم النساء أنفسهم ليدي الأفعى وذلك عائد إلى ذنوب موروثة منها تلك التي أغرت آدم. نهضت إستيفانيا عن قدمي كاهن الاعتراف كأنها ماجدولين أخرى وحين كانت في طريقها إلى البيت ـ آه للمذنبة السعيدة ـ اكتسبت مظهر مريم الأكثر قداسة التي قالت لها: «يا ابنتي لقد صفح عنك. توسلت لإبني من أجلك لأنك صلّيت في طفولتك وأنت تحملين مسبحتي».

١٦٧٠: سانتياغو ـ تشيلي

ـ منع لعبة للهنود التشيليين ـ

يعلن القائد العام دون مارتن موخيكا منع لعبة «الشويكا» التي يلعبها الآروكانيون وفق تقاليدهم ضاربين كرة بعصي محنية في ساحة محاطة بأغصان خضراء.

يعاقب بمائة جلدة الهنود الذين لاينفذون الأمر وتفرض ضرائب على الآخرين لأن لعبة «الشويكا» السيئة انتشرت بشكل واسعٍ بين الجنود الكريبوليين.

يقول مرسوم القائد العام أن المنع فرض ليتم تجنّب الذنوب المخالفة لشرف الله أبينا ولأن مطاردة الكرة تدرّب الهنود على الحرب وتسبّب اللعبة إزعاجات وبعد ذلك تأتي السهام. يقول القرار إنه من غير اللائق أن يتجمّع الرجال والنساء عراة تقريباً من أجل اللعبة، لايرتدون شيئاً سوى الريش وجلود الحيوانات التي يعقدون عليها آمالهم في الربح. يستحضرون في بداية اللعبة الآلهة لتدعم شجاعتهم وسرعة أقدامهم وفي النهاية يشرب الجميع وهم يتعانقون محيطات من شراب «الشيكا».

١٦٤٨: أوليندا

- مغذّي المدفع -

كان طفلاً حين اقتادوه من قريته الأفريقية ورحّلوه بحراً من لواندا وباعوه في ريسيف. كان رجلاً حين فرّ من حقول القصب ولاذ إلى أحد المعاقل التابعة للسود في بالماريس.

حالما دخل الهولنديون إلى البرازيل وعد البرتغاليون أن يعتقوا كلّ من يقاتل من العبيد ضدّ الغزاة. قرّر الهاربون إلى بالماريس أن الحرب ليست حربهم ولم يكن يهم كثيراً إذا كان الذين يحملون السوط في حقول القصب وطواحين السكر برتغاليين أم هولنديين. إلا أن «هنريك دياز» ذهب وتطوّع وأصبح قائداً لفوج من السود الذي يقاتلون من أجل التاج البرتغالي في شمال شرق البرازيل. منحه البرتغاليون لقب نبيل.

أرسل القائد هنريك دياز من أوليندا رسالة تهديد إلى الجيش الهولندي المتمركز في «ريسيف». قال فيها: إن فوجه يتألف من أربعة أمم. من المينيّين والآرديين والأنغوليين والكريبوليين. وهؤلاء المينيّون حاقدون لا يعرفون الخوف ومتوحشون تخضع سمعتهم من لا يستطيعون الوصول إليهم. والآرديون غاضبون يريدون أن يقطعوا الجميع بضربة واحدة والأنغوليون خشنون لا يتعبهم العمل. فكّروا الآن إذا لم يكن الرجال الذي حطّموا كل شيء مقدر عليهم أن يحطموا كلّ هولندا.

١٦٤٩: مريم، قديسة قبيلة الهورن

- لغة الأحلام -

يفكر الأب راغوينو وهو يراقب هنود «الهورن» يحيطون بالهدايا والطقوس رجلاً حلم البارحة حلماً غامضاً ويقول: «إنهم مساكين». تضع القبيلة الطعام في فمه وترقص له تضربه الشابات ويدلكنه بالرماد. بعد ذلك يتحلق الجميع وهم جالسون ويبدؤون تفسير الحلم. يطاردون الحلم بصور لامعة أو كلمات ويتابع هو القول: «لا لا!»، إلى أن يقول شخص ما: «النهر». ثم ينجح الجميع في التقاطه: النهر، جدول غاضب، امرأة وحيدة في زورق. فقدت المجذاف. يجرفها النهر بعيداً. تسأل إحدى النساء. «أهذه أنا؟»، تسأل أخرى. تدعو القبيلة المرأة التي تخترق عيناها الرغبات الأكثر غموضاً لتفسّر رموز الحلم. حين تشرب شاي الأعشاب العطرية تستحضر العصارة روحها العارفة وتفك رموز الرسالة.

يؤمن هنود الهورن مثل جميع شعوب «الأوركوا» أن الأحلام تحوّل الأشياء الأكثر وضاعة إلى رموز حين تلمس بأصابع الرغبة. يؤمنون أن الأحلام هي لغة الرغبات غير المتحققة ويستخدمون

كلمة «أوندينوك» من أجل الرغبات السرية للروح التي لا تعرفها اليقظة. وتأتي الرغبات السرية في الرحلات التي تقوم بها الروح حين يكون الجسد نائماً.

يفكّر الأب راغوينيو: «مساكين».

يعتبر الهورنيون كل من لا يحترم ما تقوله الأحلام أنه يرتكب جريمة كبيرة. يأمر الحلم. إذا لم ينفّذ الحالم الأوامر تغضب الروح وتُمرِضُ الجسدَ أو تقتلهُ. تعرف جميع شعوب «الأوركوا» أن المرض يمكن أن يجيء من الحرب أو الصدفة أو من الساحرة التي تغرز أسنان الدب أو نتف العظام في الجسد، إلا أنه أيضاً يجيء من الروح حين ترغب بشيء ولا يمنح لها. يناقش الأب راغوينيو الموضوع مع يسوعيين فرنسيين آخرين يبشرون في المنطقة يدافع عن هنود كندا: «من السهل أن ننعت باللادين ببساطة كل ما هو غباء...».

يرى بعض الكهنة قرني الشيطان يبزغان من هذه الخرافات مرتعبين لأنه عند نزع قبّعة سوف يحلم الهنود ضد الوصية السادسة وسينغمسون في اليوم التالي في طقوس الشفاء العربيدية. ينتقل الهنود عراة وينظرون إلى بعضهم ويلمسون بعضهم بحرية شيطانية ويتزوّجون ويطلّقون متى شاؤوا. ويكفي أن يأمر الحلم ليبدأ الإحتفال الذي هو دائماً مناسبة لارتكاب الذنوب المسعورة. لا يستطيع الأب راغوينيو أن ينكر أن الشيطان يستطيع أن يجد أرضاً خصبة في هذا المجتمع الذي هو بلا قضاة أو شرطة أو ملكية حيث تتقاسم النساء القيادة مع الرجال ويعبدون سوية آلهة مزيفة إلا أنه يصرّ على البراءة الأساسية لهذه الأرواح البدائية التي ما تزال تجهل شريعة الله.

وحين يرتجف اليسوعيون الآخرون من الهلع لأن بعض الأوركوانيين يمكن أن يحلموا في إحدى الليالي بقتل كاهن، يتذكّر راغوينيو ما حصل سابقاً عدة مرات وأنه حين حصل هذا، كل ما كان ضرورياً هو أن تجعل الحالم يمزق رداءً وهو يرقص حلمه في إيماء غير مؤذ.

يقول الأب راغوينيو: «هذه عادات غبية إلا أنها ليست إجرامية».

- قصة إركوية -

إنها تثلج في الخارج وفي وسط المنزل يتحدّث الحكواتي المسنّ ووجهه إزاء النار. يصغي الجميع جالسين على جلود حيوانية وهم يخيطون الثياب ويصلحون الأسلحة.

يقول العجوز: «لقد نمت الشجرة الفائقة الحسن والبهاء في السماء. امتدّت جذورها البيضاء الأربعة في جهات أربع. ولدت جميع الأشياء من هذه الشجرة...».

يروي العجوز أنه في أحد الأيام اقتلعت ريحُ الشجرة من جذورها. من الثغرة التي فتحت في السماء سقطت زوجة الزعيم العظيم حاملة حفنة من البذار. أحضرت لها سلحفاة التربة في درعها

فاستطاعت أن تزرع البذار وهكذا بزغت النباتات الأولى التي منحتنا الطعام. فيما بعد أنجبت المرأة فتاة كبرت وأصبحت زوجة الريح الغربية. نفخت الريح الشرقية الكلمات في أذنيها..

يروي الحكواتي الجيّد قصة ويجعلها تحدث. تهبُّ الريح الغربية الآن على المنزل الكبير، تدخل من المدخنة ويحجب الدخان جميع الوجوه.

يعوي الأخ الذئب الذي علّم «الإوروكوانيين» ان يجتمعوا سوية ويصغوا. إنه وقت النوم.

في أحد الصباحات لن يستيقظ الحكواتي. إلا أن واحداً من الذين سمعوا قصصه سيرويها للآخرين. وفيما بعد سيموت هذا الشخص أيضاً وستبقى القصص حية طالما توجد منازل كبيرة وبشر مجتمعون حول الموقد.

- أغنية عن أغنية للأوروكوانيين -

حين أغني
يمكن أن يساعدك ذلك
نعم يمكن، نعم.
إنه غناء قوي

حين أغني
يستطيع ذلك أن يوقظها
نعم، يمكن، نعم
إنه غناء قوي

حين أغني ينبسط ذراعاها
نعم، يمكن ذلك، نعم
إنه غناء قوي.

حين أغنيّ
يتمدّد جسدها
نعم، يمكن ذلك. نعم
إنه غناء قوي.

١٦٥. مدينة المكسيك

- الغزاة والمغزوون -

تتدلّى شارة العائلة بأبهة على الحديد المزخرف فوق البوابة وكأنها فوق مذبح. ينطلق سيد المنزل في عربة من خشب الماهوغاني مع حاشيته من الأتباع والأحصنة المزيّنة. يتوقّف أحد ما في الداخل عن العزف على موترة المفاتيح. يُسْمَعُ حفيفُ الحرير والأنسجة وأصوات بناتٍ قابلاتٍ للزواج ووقعُ خُطىً على سجّادٍ ناعمٍ مستسلمٍ ثمّ يُسْمَعُ رنينُ الملاعق الفضّية المنقّشة على الخزف الصيني.

إن مدينة المكسيك هذه، أو مدينة القصور هي من أضخم المدن في العالم. ورغم أنها بعيدة عن البحر، تحضر السفن الصينية والإسبانية بضائعها وفضّتها إلى شمال المدينة. إنّ غرفة تجارتها القوية تنافس تلك التي في سيفيل. ومن هنا تتدفّق البضائع إلى البيرو ومانيلا والشرق الأقصى.

إن الهنود الذين بنوا مدينة الغزاة هذه على خرائب مدينتهم تينوشتيتلان يحضرون الطعام في القوارب. يمكن أن يعملوا هنا أثناء النهار، إلا أنهم يُنقلون في الليل تحت ألم ضربات السياط إلى أحيائهم القذرة خارج الأسوار.

يرتدي بعض الهنود الجوارب والأحذية ويتحدثون الإسبانية آملين أن يُسْمَحَ لهم بالبقاء وبهذه الطريقة ينجون من دفع الجزية والعمل الإجباري.

- من أغنية الناواتل حول سرعة زوال الحياة -

نعيش دورة حياة واحدة
نتلاشى في يوم ونهبط في ليلة
إلى إقليم اللغز.
جئنا إلى هنا لنعرف أحدنا الآخر
نحن هنا فقط في العبور
فدعونا نمضي الحياة في سلام ومتعةٍ
تعالوا ودعونا نستمتع بها.
إن الأرض ليست واسعة

لأولئك الذين يعيشون غاضبين.
كم هو جميل أن نحيا إلى الأبد.
وأن لا نموت أبداً.

وبينما نحن نحيا. وروحنا محطمة
هنا يضايقوننا باستمرار ويتجسّسون علينا
ولكن رغم كلّ المصائب
وكلّ جراح الروح
يجب ألاّ نحيا عبثاً.
كم هو جيد أن نحيا إلى الأبد
وأن لا نموت أبداً.

١٦٥٤: أوهاكا

- الطب والسحر -

أخبر هنود الزابوتيك، الذين كانوا قبل أن يسقطوا على الأرض طيوراً متألقة الألـوان، غونزالـو بالسالوبر بعض الأسرار. بعد أن عاش بينهم وبعد البحث في أسرار الديـن والطـب، كتـب دون عونزالو تقريراً مفصّلاً في أواهاكا سيرسله إلى مدينة المكسيك. يشتكي التقريـر الهنـود إلى محكمـة التفتيش المقدّسة، ويطلب معاقبتهم بسبب الشعوذات التي لم يقدر الكهنة والعدالة الطبيعية علـى قمعها. منذ فترة غادر «آلاركون» الجامعة ليعيش عشرة أعوام مع قبيلة «كويهـو» الهنديـة. عـرف الأعشاب السرية التي تشفي المرضى وشجب فيما بعد الممارسات الشيطانية للهنود.

أثار الطب المحلّي في الفترة الأولى للغزو فضولاً كبيراً في أوروبا وأضيفت العجائب على نباتـات أميركا. جمع فراي بيرناندو ساهاغن ونشر حكمة ثمانية أطبـاء «آزتيكيـين» وأرسـل الملـك فيليـب الثاني طبيبه الخاص فرانسيسكو هرنانديز إلى المكسيك ليقوم بدراسة شاملة للطب المحلّي.

يعتقد الهنود أن الأعشاب تتحدّث وتمـارس الجنـس وتشـفي. إنهـا نباتـات صغـيرة تسـتطيع بمساعدة كلمات إنسانية أن تسحب المرض من الجسم وتكشف الأسرار وتُقَوّم الأقدار وتثير الحـب أو النسيان. تبدو أصـوات الأرض هـذه كـأصوات الجحيـم بالنسبة لإسبانيا القرن السـابع عشـر المشغولة بالإستجواب والرقى والـتي تعتمـد علـى سـحر الصـلاة في الشـفاء وعلـى الاسـتحضارات والطلاسم أكثر من اعتمادها على الشراب والتطهير والتشطيب.

١٦٥٥: سان ميغيل نيبانتلا

- جوانا في سن الرابعة -

تتحدث جوانا باستمرار مع روحها التي هي صديقتها الداخلية حين تمشي على ضفة الجدول. تشعر بسعادة كبيرة لأنها مصابة بالحازوقة. تقف وتنظر إلى ظلها الذي ينمو معها وتقيسه بغصن بعد كل قفزة صغيرة لبطنها. نمت البراكين أيضاً وهي مصابة بالحازوقة حين كانت حيّة، قبل أن تحرقها نيرانها. ما يزال يوجد بركانان يدخّنان إلا أنهما غير مصابين بالحازوقة الآن. إنهما لا ينموان. تكبر جوانا وهي مصابة بالحازوقة وتزداد كبراً.

يجعلك البكاء أحياناً أكثر صغراً. لهذا السبب العجائز وندّابو الجنازات هم بحجم الصراصير. ليس هذا موجوداً في كتب والدها التي تقرؤها، إلا أنها تعرف ذلك. تعرف هذه الأشياء لأنها تتحدّث كثيراً مع روحها. تتحدّث جوانا أيضاً مع الغيوم. لتتحدّث مع الغيوم يجب أن تتسلّق التلال أو قمم الأشجار.

- «أنا غيمة. نحن الغيوم لنا وجوه وأيد. ليس لنا أقدام».

١٦٥٦: سانتياغو لافيكا

- كيج -

مات الراهب الأنجليكاني توماس كيج في جامايكا، في أرجوحة شبكية معلّقة بين شجرتي نخيل.

حلم أن يصبح نائب الملك الإنكليزي الأول للمكسيك منذ الأيام القديمة عندما طاف في أراضي أميركا في رداء راهب كاثوليكي مبشراً ومتجسّساً ومستمتعاً بالشوكولاته وثمار الجوافة. حين عاد إلى لندن حرّك الأحزاب وأقنع اللورد كرومويل أنه من الضروري والممكن تجهيز أسطول جيّد لغزو المستعمرات الإسبانية.

في العام الماضي غزت قوات الأميرال «ويليام بن» جزيرة جامايكا. انتزعت انكلترة من إسبانيا الجزء الأول من امبراطوريتها الأميركية وفقد ورثة كولومبس مركيزات جامايكا أفضل ممتلكاتهم. بعد ذلك ألقى المبجّل توماس كيج موعظة بروتستانتية وطنية من على منبر أضخم كنيسة في سانتياغو لافيكا بينما كان الحاكم الإسباني قادماً بين أذرع عبيده ليسلّم سيفه.

١٦٥٨: سان ميغيل نيبانتلا

- جوانا في السابعة -

ترى في المرآة أمّها قادمةً فترمي السيف الذي يسقط محدثاً جلبةً كطلقة مدفعٍ وتجفل جوانا بطريقةٍ تجعل كل وجهها يختفي خلف القبعة العريضة الحواف.

تقول بغضب حين تضحك أمها: «أنا لا ألعب». تنزع القبعة وتظهر شاربها المرسوم بالسخام. تتحرك قدما جوانا بارتباك في البوط الجلدي الضخم. تزلّ وتسقط وترفس الهواء مذلّةً غاضبةً وأمها لا تستطيع التوقف عن الضحك.

تحتج جوانا والدموع تبزغ في عينيها. «أنا لاألعب. أنا رجل. سأذهب إلى الجامعة لأنني رجل».

تضرب الأم رأسها: «يا ابنتي المجنونة. يا حبيبتي جوانا يجب أن أجلدك بسبب هذه الأعمال غير المحتشمة».

تجلس قربها وتقول بنعومة: «من الأفضل لو أنك ولدت غبية يا ابنتي التي تعرف كلّ شيء».

تداعبها بينما تبلّل جوانا رداء أمها الفضفاض بالدموع.

- جوانا تحلم -

تتجوّل في سوق الأحلام. وضعت نساء السوق أحلاماً على قطع قماشٍ كبيرة على الأرض.

يصل جدّ جوانا إلى السوق حزيناً جداً لأنه لم يحلم منذ زمن طويل. تمسكه جوانا من يده وتساعده على اختيار الأحلام. يختاران أحلاماً من الحلوى أو من القطن، أجنحةً للطيران أثناء النوم ويقلعان سوية محملين بأحلامٍ لن يكون أي ليلٍ كافياً لها.

١٦٦٣: غواتيمالا القديمة

- دخول المطبعة -

إن الأسقف انركويز ريبيرا هو من أشدّ المحامين المتحمّسين لفرض العمل الإلزامي على الهنود بدون أن يفكر بإعطاء الهنود شيئاً يفكّر الأسقف بمن سيحرث الحقول وإذا لم يكن هناك أحد لحراثتها، بمن سيحرث الأرواح؟.

حين كان الأسقف يعدّ سجلاً عن ذلك يتلقى من بويبلا أول مطبعةٍ وصلت إلى غواتيمالا. طلب الرأس الروحي المثقف للكنيسة معها مجموعة حروف مطبعية وأسلوب المادة الطباعية وكلّ شيء لكي يقدر على طباعة أطروحته اللاهوتية.

إن الكتاب الأول الذي نشر في غواتيمالا ليس مكتوباً بلغة المايا أو باللغة القشتالية، بل باللاتينية.

١٦٦٣: ضفة نهر بارايبا

- الحرية -

استمر نباح الكلاب وتبويق صيادي العبيد طويلاً قبل أن يتلاشى. يعبر الهارب حقلاً من الجذامة المفترسة الطويلة ويجري نحو النهر.

يرمي نفسه على الأعشاب مديراً وجهه إلى الأسفل فاتحاً ذراعيه، ماداً رجليه. يسمع أصوات الجنادب والزيزان والضفادع الصغيرة: «لست شيئاً. إن تاريخي ليس تاريخ الأشياء». يقبّل الأرض ويعضّها: «أخرجت قدميّ من الفخ. لست شيئاً». يضغط جسده العاري على الأرض المبلّلة بالندى ويسمع صوت نباتات صغيرة تنمو في التراب متلهفة للولادة. إنه يتضوّر جوعاً ولأول مرةٍ يمنحه الجوع السعادة. جسده مغطّى بالجراح ولايشعر بذلك. يلتفت نحو السماء وكأنه يعانقها. يطلع القمر ويضربه ضربات ضوء عنيفة. تهبط عليه سياط ضوئية من القمر والنجوم. ينهض وينظر إلى جهته.

الآن إلى الأدغال. الآن إلى الشاشة الكبيرة للخضرة.

يسأل الهارب نملةً تزحف على يده: «هل أنت ذاهبة أيضاً إلى بالماريس؟ دلّيني على الطريق».

- أغنية بالماريس -

استرح أيها الرجل الأسود
فالرجل الأبيض لايجيء إلى هنا
وإذا جاء
سيتكفّل به الشيطان
استرح أيها الرجل الأسود
إذا جاء سيغادر
بعد أن يتذوّق طعم هراواتنا.

١٦٦٣: سيرا باريكا

- بالماريس -

حين يلمع البرق في بعض الليالي يمكن أن تشاهد القمم البرّاقة لسلسلة الجبال من الشواطئ. أباد البرتغاليون على تلالها السفحية هنود الكايتي الذين حرمهم البابا كنسياً إلى الأبد لأنهم أكلوا الأسقف البرازيلي الأول. وهنا المكان الذي يؤوي إليه العبيد السود الهاربون بعد أن وجدوا ملاذاً في السنوات العديدة الأخيرة في قرى بالماريس المختبئة.

تشكّل كل مجموعةٍ حصناً وتمتدّ الحقول المزروعة الشاسعة وراء الأسيجة الخشبية المرتفعة ومصائد الأوتاد الخشبية الحادّة. يعمل المزارعون وأسلحتهم في متناول أيديهم وحين يعودون في الليل إلى الحصن يحصون الأجساد ليتأكدوا أنه لا يوجد مفقودون.

يحصلون هنا على موسمي ذرة سنوياً وعلى اللوبياء والمنيهوت والسكر والبطاطا والتبغ والخضار والفاكهة ويربّون الخنازير والدجاج. يأكل سود بالماريس أكثر وأفضل من سكان الساحل حيث يأكل الجميع قصب السكر الذي ينتج لأوروبا ويسرق أوقات الجميع وأمكنتهم.

كما في أنغولا، تعتبر شجرة النخيل ملكةً عند هذه الجماعات السوداء ينسجون من خيوطها الملابس ويصنعون السلاسل والمراوح ويستخدمون السعف لبناء السقوف والأسرة ويأكلون لحم فاكهتها ويصنعون منها الخمرة ويستقطرون زيت النار من قشورها ويجعلون دهونها للطبخ ويصنعون منها أيضاً الغلايين. وكما في أنغولا يؤدي الزعماء الشعائر النبيلة للحدّاد ويحتلّ مشغل الحدّاد مكان الشرف في الساحة حيث يجتمع الناس.

إلا أن أنغولا متعددة وأكثر أفريقية. ينحدر سكان بالماريس من ألف إقليم وألف لغة. إن لغتهم المشتركة الوحيدة هي التي سمعت من أفواه أسيادهم مترافقة مع أوامر يصدرها السوط على ظهر سفن العبيد وفي حقول القصب. إن اللغة البرتغالية المختلطة بكلمات أفريقية وكوارانية هي الآن عقد اتصال بين أولئك الذين أذلّتهم سابقاً.

منذ أن طرد الهولنديون من بيرنامبكو شنّ البرتغاليون أكثر من عشرين حملة عسكرية ضد أرض الأحرار هذه. يكتب راوٍ من البرازيل إلى لشبونة: «إن جيشنا الذي يستطيع أن يروّض كبرياء هولندة لم يصل إلى نتيجة مع هؤلاء البرابرة في غزواته الكثيرة والمتعاقبة لبالماريس».

ولم يحالف الهولنديين حظّ أفضل. انتهت حملاتهم بالفشل أيضاً. حرق البرتغاليون والهولنديون قرى فارغةً وضاعوا في الأدغال ملتفتين حولهم كالمجانين تحت أمطار عنيفة. شنّوا الحرب ضدّ ظلّ يعضّ ويهرب وكانوا يدّعون النصر في كل مرةٍ. لم يفلح أي منهما في تدمير بالماريس أو منع هرب العبيد الذين يغادرون «ملك السكر» وبلاطه دون عمل رغم أن الهولنديين صلبوا سوداً متمردين والبرتغاليون جلدوا وبتروا ليبثوا الخوف والعبرة.

عادت إحدى الحملات البرتغالية على بالماريس لتوها إلى ريكتيف فارغة اليد. كان يقودها ضابط أسود يقود مئتي جندي أسود يدعى كونكالو ريبيلو، ذبحوا بعض الأسرى الذين استطاعوا القبض عليهم.

١٦٦٥ : مدريد

- تشارلز الثاني -

يهتزّ الملك الجديد ويبكي. يرفعونه من الخلف بحمالات مربوطة إلى الإبطين والخصر. لا يعرف أن يتحدث ويمشي في سن الرابعة ويجب أن ينتزعوه عن حلمات أربعين حاضنة ليجلسوه على عرش إسبانيا.

إنه يبكي الآن لأن التاج المنزلق فوق عينيه يؤلمه ولأنه يريد أن يعود ليلعب مع الأقزام ويشرب الحليب الدافئ للجنيّات.

عاش هذا الضعيف بفعل معجزة أو شكراً لحقيقةِ أنهم لم يغسلوه حتى عندما ولد رغم أن رأسه وعنقه مغطيان بالجروح المتقيّحة للجرب (لاأحد يستحم في البلاط حتى منذ أن توفيَ دومينغو سينتوريون من البرد منذ عشرة أعوام).

«آرورو» ، يتلعثم الملك ويضع قدمه على أذنه.

١٦٦٦ : أمستردام الجديدة

- نيويورك -

يسقط الإنكليز ببضع طلقات من مدافعهم العلم الذي يرفرف فوق الحصن ويحتلون جزيرة مانهاتن من الهولنديين الذين اشتروها من هنود «الديلاوير» مقابل ستين «فلوريناً».

يقول هنود «الديلاوير» متذكرين وصول الهولنديين منذ أكثر من نصف قرن: «أراد الرجل العظيم فقط أرضاً صغيرة بمساحة جلد ثور ليزرع فيها الخضار من أجل حسائه. كان أول شيء لاحظناه هنا أرواحهم المخادعة».

تصبح أمستردام الجديدة، أهم سوق عبيد في شمال أميركا وتدعى الآن نيويورك وسمّي «وول ستريت» باسم الجدار الذي شيّد ليمنع هرب العبيد.

١٦٦٦: لندن

- الخدم البيض -

تنحدر ثلاث سفن مليئة بالخدم البيض في «التيمز» متجهة إلى البحر. حين يفتحون بوابات الهبوط في جزيرة «باربادوس» البعيدة سيذهب الأحياء إلى مزارع السكر والقطن والتبغ وسيذهب الموتى إلى قاع الخليج.

يسمّون المتاجرين بالخدم البيض أرواحاً وهم ماهرون جداً في تبخير البشر. يرسلون إلى جزر «الآنتيل» العاهرات والمتشردين الذين خطفوا في أحياء لندن الفقيرة والشبان الكاثوليكيين الذين اصطيدوا في إيرلندا واسكوتلندة والسجناء الذين ينتظرون المقصلة في السجن. يستيقظ السكارى الذين أسروا على رصيف المرفأ ومعهم في الرحلة إلى أميركا بعض الفتيان الذين أغروا بالحلويات ومغامرون كثيرون خدعوا بوعود ثروة سهلة. هناك سيعتصرون في مزارع باربادوس أوجامايكا أو فيرجينيا إلى أن يردوا الثمن الذي دفع لشرائهم وأجرة الطريق.

يحلم الخدم البيض بأن يصبحوا مالكين للأرض وللسود. حين يستعيدون حريتهم بعد أعوام من الندم والكدح بلا مقابل، كان أول ما يفعلونه هو أن يشتروا زنجياً ليهوّي لهم في ساعة القيلولة.

يوجد أربعون ألف عبد أسود في «باربادوس». سجّلت الولادات في كتب إحصاء المزرعة. يسعّر الزنجي الصغير عند الولادة بنصف جنيه استرليني.

١٦٦٦: جزيرة تورتوكا

- صلوات القراصنة -

حين نهب ديفيدنو، المعروف باسم إيل أولونيس مدينة ريميديوس ماراكا يبو فرم بقطلسه[١] كثيراً من الإسبانيين. تعود سفنه بنصف سرعتها بسبب وزن الثروة المسروقة.

يرسو إيل أولونيس، وبين قدميه يهزّ ذيله وينبح صديقه الوحيد الذي يثق به ورفيقه في مغامراته. تجيء خلفه مجموعة من الرجال خرجت حديثاً من نسيج عنكبوت حبال الأشرعة والصواري، جائعة للخمّارات والنساء والأرض الصلبة.

على هذه الرمال الحامية التي تقدر أن تسلق بَيض السلاحف يقف القراصنة صامتين أثناء قدّاس طويل بأجسادهم المرقّعة وستراتهم المتسخة ولحاهم الدهنة ووجوههم التي تشبه السكاكين

---

(١) - قطلس: سيف قصير ثقيل.

التي ثلمتها السنين. إذا تجرأ أيّ شخص على السعال أو الضحك أثنـاء القدّاس يسقطونه بطلقـة ويصلّبون. إن كل قرصان يشـكّل مستودع أسلحة. يحمـل علـى خصـره أربعـة سكاكين وحربـة موضوعة في غمد مصنوع من جلد تمساح ويحمل مسدسين وسيفاً وبندقية معلقة على الصدر.

توزّع الغنائم بعد القدّاس بدءاً بالمبتورين. كلّ من فقد ذراعه اليمنى يحصل على ستمائة بـيزو أو على ستة عبيد. وكل من فقد الـذراع اليسـرى يحصـل علـى خمسمائة بـيزو أو خمسـة عبيـد. وينطبق هذا الثمن على القدمين وكلّ من فقد عيناً أو إصبعاً على شواطىء كوبا وفـنزويلا لـه الحـق بمائة بيزو وعبد واحد.

يبدؤون عمل اليوم بكؤوس الرُّمّ وينهونه بشواء شرائح لحم السلاحف. يطهى لحـم السـلاحف المقطّع ببطء تحت الرمل المغطّى بالجمر داخل الدروع مع محّ البيض والبهارات وهذا يعتبر أفضـل طبق للحفلات في الجزيرة. يشعل القراصنة غلايينهم مستلقين على الرمال مسلمين أنفسهم للدخان والحنين.

حين يخيّم الليل يغطون باللآلىء جسد امرأة خلاسية ويهمسون لها قصص الرعب والعجـائب، قصصاً عن الشنق والتحميل والكنوز ويقسمون لها أنهم لن يبحروا ثانية في وقـت قريـب. يشـربون ويمارسون الحب دون أن ينزعوا أبواطهم: الأبواط التي ستصقل غداً حصى المرفأ باحثةً عن سفينة من أجل غارةٍ أخرى.

١٦٦٧: مدينة المكسيك

- جوانا في السادسة عشرة -

يحدّد الجرس في السفن أوقات المراقبة وفي المنـاجم وحقـول القصـب يستدعي الهنـود الأقنـان والعبيد السود إلى العمل. يحدّد المواعيد في الكنائس ويعلن عن القدّاسات والوفيّات والحفلات.

لكن، في البرج الذي يقع فوق قصر نائب الملك يتدلى جرس صـامت. قيـل إن المفتشين أخـذوه من برج الأجراس في قرية إسبانية قديمة وأزاحوا لسانه ونفـوه إلى «الآنديـز» ولايعـرف أحـد متـى حصل هذا. منذ أن صنعه المايسترو رودريغو عام ١٥٣٠ كان هذا الجرس دائماً نظيفاً ومطيعاً. قيـل كان له مائة نغم على هوى قارعه وكانت القرية كلها فخورة بـه. إلى أن جـاءت ليلـة جعـل فيهـا رنينه العنيف المتواصل الجميع يقفزون من أسرّتهم. كان الجرس يعلن الخطر بدافع مـن الفـرح أو الخوف أو بما لايعرف أحد ماذا، وكانت هذه هي المرة الأولى التي لم يفهمـه فيهـا أحـد. اجتمـع حشد في الرّدهة بينما كان الجرس يرنّ بجنون وذهب رئيس البلدية والقسّ إلى الـبرج وأكـدا وهمـا متجمدان من الخوف أنه لايوجد أحد هناك. لم تحركه يـد بشـرية. نقلـت السلطات القضيـة إلى محكمة التفتيش. أعلن مجلس محكمة التفتيش أن قرع الجرس لاقيمة له إطلاقـاً وأنـه أصمـت إلى الأبد ونفي إلى المكسيك.

تمشي جوانا آنيز أسباخي خارج قصر حاميها، نائب الملك مانسيرا وتعبر الساحة الكبيرة يتبعها هنديان يحملان صندوق ثيابها. تصل إلى الزاوية. تقف وتنظر إلى البرج وكأن الجرس الصامت يناديها. إنها تعرف قصة حياته، تعرف أنه عوقب لأنه كان يغني لوحده.

تتجه جوانا إلى دير سانتا تيريزا لأنتيغوا. لم تعد سيدة في البلاط. ستبحث في الضوء الهادىء للأروقة وعزلة الحجرة عمّا لاتستطيع أن تجده في الخارج. كانت تودّ أن تدرس ألغاز العالم في الجامعة إلا أن النساء يولدن محكوماً عليهن بالتطريز وبالزواج الذي يتم اختيارهن له. ستصبح جوانا راهبة حافية القدمين وستلقّب نفسها سور جوانا آنيز لاكروز.

١٦٦٨: جزيرة تورتوكا

- الكلاب -

لايبقى هنود في هذه الجزيرة التي تقع شمال هايتي، إلا أن الكلاب التي أحضرها الإسبان لاصطيادهم ومعاقبتهم تبقى. تتنازع كلاب الدّرواس التي تكاثرت وتتحرك في قطعان مع القراصنة الفرنسيين للسيطرة على هذه الأرض. يسمع نباحها ليلة بعد أخرى من الأدغال. يرتجف القراصنة وهم نائمون وراء متاريسهم.

تنتمي جزيرة تورتوكا إلى المشروع الذي أسّسه الوزير الفرنسي كولبرت لإدارة تجارة العبيد والقرصنة. عيّن المشروع برتراند دي أوغيرون حاكماً وهو سيد له مقام رفيع بين القراصنة وقطّاع الطرق.

يحضر الحاكم من فرنسا شحنة سمّ ستستخدم لقتل بعض الأحصنة التي ستنتشر أجسادها في الجزيرة وتملأ بطونها بالسمّ. وبهذه الطريقة يتوقّع أن يضع حداً لتهديد الكلاب المتوحشة.

١٦٦٩: بلدة جبرالتر

- كلّ ثروة العالم -

يتابع رجال هنري مورغان البحث على طول شواطىء بحيرة ماراكيبو عن كنز إيل أولينسو المدفون والذي لم يستطع حمله معه، فرغم كل الوقت والجهد الذي بذل لم يكن أولينسو يمتلك الوقت الكافي والسفن الكبيرة لتحميله.

يبدأ الهبوط بعد رشق المدافع المضاد. يقفز القراصنة من مراكبهم الصغيرة ويدخلون المدينة التي يتصاعد منها الدخان بسيوفهم المشهرة.

لا أحد هناك لا شيء هناك.

يستقبلهم شاب رث الملابس في وسط الساحة ضاحكاً. تمتلك القبّعة الكبيرة التي تغطي عينيه حافة مكسورة تتدلى على كتفه.

يصيح: «سرٌ، سرٌ». يحرك ذراعيه كطاحونة هواء ضارباً ذباباً متخيّلاً ولايتوقّف عن الضحك.

حين يخدش حدّ سيف حنجرته يهمس: «لاتناموا وأقدامكم عارية وإلا ستأكلها الخفافيش».

يغلي الجوّ كثيفاً بالدخان والبارود يغلي مورغان من الحرارة وفقدان الصبر. يقيّدون الشاب. «أين أخبأوا المجوهرات؟»، يضربونه: «أين الذهب؟»، يفتحون الجراح الأولى في خديه وصدره.

يصرخ: «أنا سيباستيان شانشيز! أنا شقيق حاكم ماراكايبو، أنا شخص مهم جداً».

يقطعون نصف أذنه.

يجرونه. يقود الشاب القراصنة إلى كهف عبر غابة ويكشف كنزه. كان هناك صحنان من الصلصال مخبأان تحت الأغصان وحدٌ صدىءٌ لرساة ودرع فارغ وبعض الريش الملوّن والحجارة ومفتاح وثلاثة قطع نقدية صغيرة.

يكرّر مالك الكنز قائلاً: «أنا سيباستيان شانشيز»، وهم يقتلونه.

١٦٦٩: ماراكايبو

ـ الطوق المحطّم ـ

يكتشف مورغان فجراً أن سفناً إسبانية خرجت من الليل وأغلقت المدخل إلى البحيرة. يقرر الهجوم. يرسل أمام أسطوله مركباً أحادي الصاري ضدّ بارجة الأميرال. كانت راية الحرب ترفرف متحدية فوق المركب المليء بالزفت والقار والكبريت الذي حصل عليه مورغان في ماراكايبو، ووزّعت علب البارود في جميع الزوايا. كان الطاقم مؤلفاً من بعض الدمى الخشبية التي ترتدي القمصان والقبّعات.انفجر الأميرال الإسباني دون ألونزو ديل كامبو في الجو دون أن يكتشف أن مدفعيته أطلقت على برميل بارود.

يهجم أسطول القراصنة. تكسر فرقاطات مورغان الطوق الإسباني بنيران المدفعية ويربح البحر المفتوح. يبحر محملاً بالذهب والمجوهرات والعبيد.

يتبختر هنري مورغان في ظلّ الأشرعة مرتدياً من رأسه إلى قدميه غنائم ماراكايبو. يمتلك منظاراً ذهبياً وبوطاً أصفر اللون مصنوعاً من جلد قرطبي، أما أزرار سترته فزمّرد صنعه صائغو أمستردام. ترفع الريح التخريم الزبديّ لقميصه الحريري الأبيض وتحمل من بعيد صوت امرأة تنتظر مورغان في جامايكا، تلك الخلاسية النارية التي حذّرته على رصيف المرفأ حين ودّعته قائلة: «إذا متّ فسوف أقتلك».

١٦٧٠: ليما

- « احزنْ من أجلنا » -

قال له هنود مناجم بوتوسي بلا كلام: «احزن من أجلنا»، وكتب العام الماضي الكونت ليموس، نائب الملك في البيرو إلى ملك إسبانيا: «لا يوجد شعب في العالم مرهق هكذا، إنني أريح ضميري وأعلم جلالتكم بكل وضوح: إن ما يجلب إلى إسبانيا ليس فضة بل دم الهنود وعرقهم».

رأى نائب الملك الجبل الذي يأكل الرجال. يحضر الهنود من القرى مقيدين معاً بياقات حديدية وكلما ابتلع الجبل مزيداً من الهنود يزداد جوعه. أفرغت القرى من الرجال.

بعد أن يرسل التقرير إلى الملك يحظّر الكونت ليموس فترات العمل التي تستمر أسبوعاً في الأنفاق الخانقة. تقرع الطبول ويعلن في الشوارع: *يأمر نائب الملك أن الهنود سيعملون في المستقبل من الشروق إلى الغروب لأنهم ليسوا عبيداً ليقضوا الليل في المناجم.*

لاينتبه أحد إلى ذلك.

يتلقى جواباً في قصره في ليما من مجلس «الآنديز» في مدريد. يرفض المجلس قمع العمل الإجباري في مناجم الفضة والزئبق.

١٦٧٠: سان خوان آتيتلان

- متطفل في المذبح -

يحمل الحمار في منتصف الصباح الأب ماركوز رويز إلى قرية سان خوان آتيتلان. من يعرف فيما إذا كانت الموسيقا اللطيفة للماء والأجراس التي يحملها النسيم تجيء من القرية أو من الحلم؟

يلفّ ويدور كثيراً قبل أن يصل آتيتلان القرية التي تقع عميقاً في الريف الوعر. من المعروف جيداً أن الهنود يزرعون محاصيلهم في الزوايا الأكثر خفاءً في الجبال ليبايعوا في تلك المخابيء آلهتهم الوثنية.

حين يصل إلى المنازل الأولى يبدأ فراي ماركوز بالاستيقاظ. كانت القرية مهجورة ولم يأت أحد لاستقباله. ترفّ عيناه بعنف لدى وصوله إلى الكنيسة. كانت تغصّ بالبشر. يخفق قلبه بشدة وهو يشقّ طريقه إلى الداخل ويحك عينيه ليرى ما يحدث: كان الهنود في الكنيسة مزيّنين بالأزهار ومعطّرين كما لم يحدث من قبل ويعبدون أبله القرية. كان جالساً على المذبح مغطّى من رأسه إلى قدميه بالثياب المقدّسة، ويتلقى هدايا البخور والفاكهة والطعام الساخن وسط جدول من الخطب والترنيمات الغامضة. لايسمع أحد صرخات فراي ماركوز الساخطة الذي ينسحب بسرعة ليبحث عن الجنود.

يُغضبُ المشهدُ الراهبَ الورعَ إلا أن دهشته لاتستمر طويلاً. فبعد كلّ شيء ماالذي يستطيع المرء أن يتوقّعه من هؤلاء الوثنيين الذين يعتذرون من الشجرة حين يقطعونها ولايحفرون بئراً إلا بعد أن يعتذروا من الأرض؟ ألا يخلطون الله بحجر أو بآخر؟ بصوت جدول متدفق أو رذاذ مطر؟ ألا يسمّون الخطيئة الجسدية لعباً؟

١٦٧٠: ماسايا

- الأبله -

تشرق الشمس لحظة من خلال السحب ثم تختبىء خجلة أو خائفة من تألق البشر هنا في الأسفل لأن الأرض مضاءة بالفرح: رقص حواري، مسرح للرقص، مسرحيات هزلية موسيقية ظريفة على شفا الوضوح. يدير الأبله المهرجان ليس باللغة النواتلية أو الإسبانية بل بلغة هجينة نمت في نيكاراغوا وغذاها ألف مصطلح طوّره الناس لأنهم تحدّثوا بجرأة وابتكروا وهم يتحدثون فلفلاً حاراً من مخيلة شعب يسخر من أسياده.

يشغل هندي عريق ومتحدث سريع أجش الصوت وسط المسرح. إنه الأبله أو المعروف باسم الفأر ماشو الذي يسخر من الممنوعات، الذي لايقول أبداً ما يقوله ولا يصغي لما يسمعه ويتجنّب ببراعة أن يتمّ تحطيمه من قبل الأقوى: حين لايستطيع أن ينجز إنسحاباً يرتبك.

١٦٧٠: كوزكو

- العجوز مولي -

تنوء جدران الكاتدرائية بالذهب. تهيمن على العذراء الداكنة ذات الشعر الأسود الذي يتدفّق من تحت قبّعتها القشيّة والتي تحمل لامةً صغيرةً بين ذراعيها. يحيط صورتها البسيطة بحر مزبد من الزبد المخرّم. تريد كاتدرائية كوزكو أن تتقيأ من جوفها الغني هذه العذراء الهندية، عذراء اليأس وكأنه لم يحدث منذ زمن بعيد أن منع بوّابوها امرأةً عجوزاً حافيةً من الدخول.

صرخ الكاهن عن المنبر: «اتركوها وشأنها. دعوا هذه الهندية تدخل. إنها أمي».

يسمي الجميع الكاهن خوان إسبينوزا ميدرانوا باسم العجوز ذو الشامات لأن الله غطى وجهه بالشامات. حين يعظ العجوز ذو الشامات تتجمّع الحشود في الكاتدرائية، ولايوجد في الكاتدرائية البيروفية خطيب أفضل منه. والأكثر من ذلك أنه يدرّس اللاهوت في معهد سان أنطونيو اللاهوتي ويكتب المسرحيات. تشبه ملهاته «أحبب موتك» التي كتبها بالإسبانية لغة والده، المنبر الذي

يلقي منه مواعظه: أشعار فخمة تدور في بناء أرابيسكي متباهية ومسـرفة كالكنائس الإستعمارية. وفي نفس الوقت كتب بلغة «الكوينشو»، لغته الأم مسرحية دينية طقسية تركيبها بسيط وأسلوبها تسلسلي ولغتها واضحة تدور حول موضوع الإبن الضال. في هـذه المسرحية الشيطان مالك أراضٍ بيروفي والخمرة هي الشيكا والعجل التوراتي خنزير سمين.

١٦٧١: مدينة بنما

- حول دقة المواعيد -

مرّ أكثر من عامين على وصول هنري مورغان إلى بنما في سفينة علـى رأس حفنة من الرجال وعصف بمتاريس بورتو بيللو حاملاً سكيناً بين أسنانه. استولى بقوته الصغيرة وبدون بنادق ومدافع على هذا المعقل المنيع وطلب كي لايحرقه جبلاً من الذهب والفضة كفدية. أرسل حاكم بنما الذي هزمه وحرّره من وهمه هذا العمل الفذ ليطلب من مورغان مسدساً كالذي استخدمه في الهجوم.

قال القرصان: «ليحتفظ به لمدة عام وسأذهب لأعيده».

يدخل الآن إلى مدينة بنما متقدماً بين ألسنة اللهب. يرفرف العلم الإنكليزي في إحدى يديه وتمسك الأخرى بقطلس. يتبعه ألفا رجل وعدة مدافع. تحوّل النار الليل إلى نهار. يعلو صيف آخر فوق الصيف الأبدي لهذه الشواطىء يلتهم المنازل والأديرة والكنائس والمستشفيات ويلعق شفتي القرصان الذي يصرخ: «أنا هنا من أجل المال وليس من أجل الصلوات».

بعد كثير من القتل والحرق يتحرك متبوعاً بقافلة لانهائية من البغال المحمّلة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة.

يرسل مورغان اعتذاراته إلى الحاكم عن تأخره.

١٦٧٢: لندن

- عبء الرجل الأبيض -

أسّس دوق يورك، شقيق ملك إنكلترة شركة المغامرات الملكية منذ تسعة أعوام. اشترى المزارعون الإنكليز في «الآنتيل» عبيدهم من تجار عبيد هولنديين إلا أن التاج لم يسمح بالحصول على هذه المواد من الأجانب. رتّب المشروع الجديد التجارة مع أفريقيا وضمّ مالكي أسهم من ذوي المكانة الرفيعة: الملك تشارلز الثاني، ثلاثة دوقات، ثمانية إيرلات، سبعة لوردات وكونتيسّة وسبعة وعشرين فارساً. تمجيداً لدوق يورك طبع الضباط الحرفيين الأولين من اسمه على صدور ثلاثة آلاف عبد من الذين كانوا ينقلونهم سنوياً إلى باريادوس وجامايكا بالحديد المحمّى.

سيدعى المشروع الآن شركة أفريقيا الملكية. يشجّع الملك الإنكليزي الذي يملك معظم الأسهم على شراء العبيد في مستعمراته حيث تزيد كلفة العبيد ستة مرات عنها في أفريقيا.

تبدأ أسماك القرش رحلتها إلى الجزيرة وراء السفن منتظرة الأجساد التي ترمى عن ظهورها. يموت كثيرون لأنه لايوجد ماء كاف والأقوياء جداً يشربون ماهو متوفّر، أو يموتون من الزّحار والجدري ويموت كثيرون من الكآبة. يرفضون أن يتناولوا الطعام ولاتوجد طريقة لفتح أفواههم.

يستلقون في صفوف، محطمين فوق بعضهم، تلمس أنوفهم ظهر المركب. تُقَيِّدُ رسوغهم وتسلخُ الأغلالُ كعابهم. حين يتوجَّب إغلاق فُتَح الرمي في البحار العاصفة أو في المطر، ترتفع حرارة كمية الهواء القليلة إلى درجة الحمّى ولكن حين تنفتح الكوى يفوح المعتقل برائحة الكراهية والحقد المتخمّر، أكثر إنتاناً من زنخ المسالخ وتصبح الأرضية زلقة من الدم والتقيؤ والخراء.

يصغي البحارة الذين ينامون على السطح في الليل إلى الأنين الذي لايتوقّف الصاعد من الأسفل وعند بزوغ الفجر يصغون لصرخات أولئك الذين حلموا أنهم كانوا في بلادهم.

- أغنية شعب الماندينغو عن طائر الحب -

دعني، آه يادیامبير
أنت أيها الذي يرتدي حزاماً بهدابات طويلة
دعني أغني للطيور
التي تصغي للأميرة الراحلة
وتتلقى آخر أسرارها
وأنتن ياعذراوات، غنّين، غنّين
بنعومة
للطائر الجميل
وأنت ياسيد البندقية المرعبة
دعني أنظر إلى طائر الحب
الطائر الذي أحبه أنا وصديقي
دعني ياسيد الرداء الرائع
يامالك الثياب المتألقة
أكثر من ضوء النهار
دعني أحبّ طائر الحب

١٦٧٤: ميناء رويال

- مورغان -

كان طفلاً حين باعوه لتاجر في بريستول. استبدله الضابط الذي أخذه إلى «الآنتيل» ببضعة قطع نقدية في باربادوس.

تعلّم في تلك الجزر أن يكسر بضربة فأس واحدة أي غصن يصدم وجهه، وتعلّم أنه لايوجد ثروة لاتجرم الأب أو لا تسيء إلى الأم. أمضى أعواماً يسرق السفن ويرمّل النساء. كان يقطع ببساطة الأصابع التي ترتدي الخواتم الذهبية. إنه أميرال القراصنة. يعلق دائماً على عنقه التي تشبه الضفدعة رخصة القرصنة التي تضفي طابعاً قانونياً على وظيفته وتحميه من المشنقة.

منذ ثلاثة أعوام وبعد نهب بنما، نقلوه إلى لندن كسجين.. حرّره الملك من الأغلال وسمّاه فارس البلاط وعيّنه حاكماً على جامايكا.

صاغ الفيلسوف جون لوك تعاليمه عن الحكومة الجيدة من هذه الجزيرة التي هي مقرّ القراصنة الإنكليز. وسيؤكد مورغان أن الكتب المقدّسة والكلاب التي تصطاد الهاربين ستكون موجودة وسيشنق أخوته القراصنة في كل مرة يقرّر فيها ملكه تحسين علاقاته مع إسبانيا.

يهبط حديثاً في ميناء رويال، ينزع قبعته المريّشة. يسكر من الرُّم ويفرغ الإناء على شعره المستعار الكثير الإلتفاف، يصيح القراصنة ويلوّحون بسيوفهم وهم يتبادلون الأنخاب.

الحصان الذي ينقل مورغان إلى قصر الحكومة مُنَعَّل بالذهب.

١٦٧٤: بوتوسي

- كلوديا الساحرة -

حرّكت الغيوم بيدها وسلّطت ومنعت العواصف. أعادت البشر برفّة عين من أراض بعيدة ومن الموت. مكّنت حاكم مناجم بوركو أن يشاهد مدينته مدريد في مرآة وقدّمت على مائدة دون بدرو دي آيامونت الذي جاء من «أتريرا» كعكات مطهوة حديثاً في فرن «أنزيرا». جعلت الحدائق تزهر في الصحارى وحوّلت العاشقات المحترفات إلى عذراوات. أنقذت أسرى لاذوا إلى منزلها بتحويلهم إلى كلاب وقطط. تقول إن الأوقات السيئة بحاجة إلى وجه متألق وتصرع الجوع بالغيتار. كانت تعزف على غيتارها وتهزّ دفّها لتشفي المرضى وتبعث الموتى. إذا كنت صامتاً ستجعلك تتحدّث وإذا تحدّثت كثيراً تستطيع أن توقفك عن الكلام. مارست الحبّ علناً مع شيطان أسود في الريف. وهربت بعد منتصف الليل.

ولدت في توكامان وماتت هذا الصباح في بوتوسي. استدعت وهي على فراش موتها كاهناً يسوعياً وطلبت منه أن يخرج من الدرج قطع شمع معيّنة ويزيح الدبابيس الملصقة عليها لكي يشفى خمسة كهنة زرعت فيهم المرض.

عرض عليها الكاهن الاعتراف والرحمة الإلهية، إلا أنها ضحكت وماتت وهي تضحك.

١٦٧٤: يورك تاون

- الجواد الأولمبي -

تحدّى جيمس بلوك وهو خياط من يورك تاون، ماثيو سيلدر في سباق أحصنة. غرّمته المحكمة الإقليمية بسبب جرأته وحذّرته أنه من المخالف للقانون أن يشارك في سباق لأن هذه الرياضة خاصّة بالسادة. يجب أن يدفع بلوك ما يعادل مئتي باوند من التبغ.

بشر على أقدامهم، أرستقراطيون على خيولهم: هالة الأرستقراطية هي الغبار الذي ترفعه الحوافر على طول الطريق. تصنع حوافر الأحصنة أو لا تصنع الثروة. يخرج فرسان التبغ من عزلة المزرعة مرتدين ثياباً حريرية وشعراً مستعاراً مجعّداً من أجل السباق بعد ظهر أيام السبت ومن أجل الحديث عن الخيول في أوقات المساء. يتناقشون فوق أكواز عصير التفاح والبراندي ويتراهنون بينما يُرْمى النرد على الطاولة. يقامرون بالمال أو التبغ أو العبيد السود أو الخدم البيض، ويرهنون فقط في ليالي العظمة أحصنتهم. يقاس الحصان الجيد بقيمة مالكه، مزارع التبغ الفرجيني الذي يعيش ويحكم وهو على ظهر الحصان وعلى ظهره يموت طائراً كالريح إلى البوابات السماوية.

لايوجد وقت في فيرجينيا لأي شيء آخر. استطاع الحاكم ويليام بيركلي منذ ثلاثة أعوام أن يلاحظ بفخر: أشكر الله. لايوجد مدارس مجانية ولاطباعة وآمل أن لايحصل على كليهما لمئات السنين لأن التعليم يولّد العصيان والهرطقة والإنقسام وتنشر الطباعة ذلك.

١٦٧٦: وادي كونيكتيكت

- فأس المعركة -

ينتفض هنود الوامبانوغ حين تسقط الثلوج الأولى. لقد تعبوا من رؤية حدود نيوانجلاند تمتدّ جنوبا وغرباً بقدمين سريعتين. خرّبوا وادي كونيتيكت وهم يقاتلون على بعد أقل من عشرين ميلاً من بوسطن.

يجّر الحصان راكبه على الأرض بعد أن علقت رجله بالركاب. لقد قتله سهم. يضرب المحاربون الرشيقون، ضحايا السلب والنهب، يختفون. وهكذا يدحرون الغزاة نحو الساحل حيث جاؤوا منذ أعوام.

١٦٧٦: بليموث

- ميتاكوم -

مات نصف السكان الهنود في الحرب. تستلقي اثنا عشر بلدة انكليزية في الرماد.

يحضر الإنكليز في نهاية الصيف رأس ميتاكوم زعيم الوامبانوع إلى بليموث. إن ميتاكوم هو الشيطان الذي حاول أن ينتزع من البيوريتانيين المستعمرين الأراضي التي خصّهم الله بها.

تتناقش محكمة بليموث العليا: ماذا نفعل بولد ميتاكوم؟ أنرسله إلى المشنقة أم نبيعه؟ آخذين بعين الإعتبار سفر تثنية الإشتراع وأول كتاب الملوك والمزامير من رقم ١٣٧ إلى ١٣٩، يقّرر القضاة أن يبيعوا ولد ميتاكم الذي يبلغ التاسعة من العمر في أسواق النخاسة في جزر الآنتيل.

وكدليل على الكرم يقدِّم المنتصرون للهنود قطعة أرض صغيرة ممّا كان لهم: في المستقبل ستوضع القبائل الهندية التي قاتلت أو لم تقاتل مع متياكوم في أربعة أراض مفردةٍ في خليج ماسّاتشوسيتس.

١٦٧٧: بلدة الطريق القديم

- موت هنا، ولادة هناك -

إن الجسد الذي يعرف القليل، لا يعرف ذلك ولا الروح التي تتنفّس بل الروح التي تحلم، التي تعرف أكثر، تعرف ذلك· إن الرجل الأسود الذي يقتل نفسه في أميركا يولد في أفريقيا. مات كثير من عبيد جزيرة القديسة كيتس رافضين تناول الطعام أو أكلوا فقط التراب والرماد والكلس. شنق الآخرون أنفسهم بالحبال. وفي الغابات بين الأعشاب المتعرّشة التي تعلق بالأشجار يتدلى عبيد انتحروا لا ليمحوا ذكرى الألم بل لينطلقوا في قوارب بيضاء في رحلة العودة الطويلة إلى أرض أسلافهم

يتقدَّم شخص من البوارو مالك للمزارع، عبر الأوراق ويقطع بمنجله رؤوس المشنوقين.

ينصح الأحياء: «اشنقوا أنفسكم إذا أردتم. لن يكون لكم رؤوس هناك في بلدانكم ولن تقدروا على الرؤية والسماع والكلام وتناول الطعام».

يدخل مزارع آخر يدعى« كريبز» خاصي الرجال إلى الغابة ومعه عربة مليئة بورق السكر وقِطَعِ آلة الطحن. يبحث ويعثر على عبيده الفارين الذين تجمعوا سوية وكانوا يجهزون أنفسهم للإنتحار. يقول لهم:

-«سأشنق نفسي معكم. سأرافقكم. اشتريت مطحنة سكّر كبيرة في أفريقيا وهناك ستعملون عندي».

يختار «كريبز» شجرة كبيرة، يربط الحبل حول عنقه ويزلق العقدة المنزلقة. يراقبه السود منذهلين، إلا أن وجهه كان فقط ظلاً تحت القبعة القشيّة ويردّد: «هيا بنا جميعاً! هيا بسرعة أحتاج إلى سواعد في غينيا».

١٦٧٧: بورتوكالفو

- يعد القائد بالأراضي والعبيد والألقاب الرفيعة -

ينطلق الجيش باكراً في الصباح من بورتوكالفو. يتقدّم الجنود والمتطوعون والذين وقعت عليهم القرعة لمحاربة السود الأحرار في بالماريس الذين يحرقون حقول القصب في جنوب بيرانمبكو.
يخاطب فيرناوكاريلهو القائد الأعلى مقاماً في الحرب جنوده بعد القدّاس: «إن جيش أعدائنا كبير وهو جيش عبيد. لقد خلقتهم الطبيعة ليطيعوا لا ليقاوموا. إذا سحقناهم سنحصل على أراض لمزارعنا وعلى سود لخدمتنا وعلى شرف لأسمائنا إن السود يقاتلون كالفارين ونحن سنطاردهم كاللوردات».

١٦٧٨: ريسيف

- غانكا زومبا -

في عيد قدّاس الشكر الذي يقام في الكنيسة الأم يلتقط حاكم بيرانمبكو آيريس سوسا كاسترو أذيال معطفه ويركع أمام عرش الأكثر قداسة. كان يركع إلى جانبه غانكا زومبا، الرئيس الأعلى لفيدرالية بالماريس.
ترنّ الأجراس. تصخب المدفعية والطبول. يمنح الحاكم غانكا زومبا لقب ضابط النظام وكدليل على الصداقة يتبنى اثنين من أولاده اللذين سيحملان اسمه. حدّدت الإتفاقية في نهاية محادثات السلام التي عقدت في ريسيف بين وفد ملك البرتغال وممثلي بالماريس: سيتم إفراغ المعابد البالماريسية. أعلن أن جميع الذين ولدوا هنا أحرار أما الذين يحملون علامة الوشم فيجب أن يعودوا إلى أسيادهم.
إلا أن زومبي ابن أخ غانكا زومبا قال: «لن أستسلم».
يبقى زومبي في ماكاكوس عاصمة بالماريس ويعير أذناً صماء للجماعات المتعاقبة التي تمنحه الصفح.
من بين ثلاثين ألف بالماريسي، يرافق غانكا زومبا خمسة آلاف شخص فقط، إذ أن الآخرين يعتبرونه خائناً يستحق الموت والنسيان.
يقول زومبي: «لا أصدق كلمة أعدائي. إن أعدائي أنفسهم لا يصدقونها».

- رقية يوروبا ضدّ العدو -

حين يحاولون اصطياد حرباء
من بين الأغصان
تتقمّص الحرباء لون الأغصان
فلا يستطيعون التمييز بينهما
حين يحاولون اصطياد تمساح
في قاع النهر
يتقمّص التمساح لون المياه
ولا يستطيعون تمييزه عن الجدول.
حين يحاول الساحر أن يصطادني
يمكن أن أتقمّص سرعة الريح
وأنجو.

١٦٨٠: سانتا في، المكسيك الجديدة

- صليب أحمر وصليب أبيض -

تعلن عقد الحبل المصنوع من ألياف الصبّار عن التمـرّد وتحصـي أيـام الانتظـار. ينقلـه الرسـل الأكثر سرعة من قرية إلى أخرى في المكسيك الجديدة إلى أن يشرق أحد الغضب.

تنتفض أربع وعشرون قبيلة هندية بقيت من القبائل الستة والستين الـتي عاشـت في الأراضـي الشمالية حين وصل الفاتحون. نجح الإسبان في قمع التمرّد في قرية أو قريتين.

- «استسلم».

- «أفضّل الموت».

- «ستذهب إلى الجحيم».

- «أفضّل الجحيم».

يتقدّم الذين ينتقمون لألمهم ويدمرون الكنائس والحصون ويصبحون بعد بضعة أيام أسياد الإقليم بأسره. يغتسل الهنود في النهر ويدلّكون أجسادهم بنباتات الأمول ليزيلوا زيت التعميد ويتخلّصوا

من الأسماء المسيحية. يرتدون ثياباً كالكهنة ويشربون أنخاب استعادة أراضيهم وآلهتهم. يعلنون أنهم لن يعملوا ثانية أبداً للآخرين وأن اليقطين سينمو في كل مكان وسوف تثلج الدنيا قطناً.

ترسم أنشوطة حول مدينة «سانتا في» آخر معقل إسباني في هذه الأقاليم البعيدة. يعدو زعيم الهنود إلى الأسوار مسلحاً ببندقية وخنجر وسيف مرتدياً قطعة نسيج حريرية وجدها في دير ويرمي عند قدم السور صليبين أحدهما أبيض والآخر أحمر.

- «إن الصليب الأحمر هو المقاومة والأبيض هو الإستسلام. اختاروا أحدهما».

يدير ظهره إلى العدو المحاصر ويختفي في هبّة غبار.

يقاوم الإسبان، إلا أنهم يرفعون العلم الأبيض بعد عدة أيام. جاؤوا منذ فترة بحثاً عن مدن سيبولا الذهبية الأسطورية. الآن يبدؤون الإنسحاب جنوباً.

١٦٨١: مدينة المكسيك

- جوانا في سن الثلاثين -

بعد صلوات الصبح وتسابيح الضحى تنصب خذروفاً وتدوّره في الطحين وتدرس الدوائر التي يرسمها. تفحص الماء والضوء والهواء والأشياء. لماذا تتجمّع بيضة في الزيت المغلي وتتفرّق في شراب الفاكهة؟ تشكّل مثلثاً من الدبابيس وتبحث عن خاتم سليمان. تصطاد النجوم بعين واحدة ملتصقة على المنظار.

هددوها بإبلاغ محكمة التفتيش ومنعوها من فتح الكتب إلا أن سور جوانا آنيز كروز، تدرس الأشياء التي خلقها الله والتي تخدمها لتتعلّم منها كتاب العالم.

تبدأ جوانا جدلاً بين الحب الإلهي والحب الإنساني، بين الألغاز الخمسة عشر للمسبحة التي تتدلى حول عنقها وألغاز العالم تمضي ليالي عديدة دون أن تنام وهي تصلّي وتكتب حين تبدأ الحرب اللانهائية ثانية في داخلها بين الهوى والعقل. يدخل في نهاية كل معركة الضوء الأول للفجر إلى حجرتها في الدير الجيرونيمي ويساعد سور جوانا على تذكّر ما قاله لوبريسيو ليوناردو بأنه بإمكان المرء أن يتفلسف وأن يحضّر العشاء. تبتكر القصائد على الطاولة وتعد الفطائر في المطبخ وكل هذا سيمنح للآخرين، قيثارة داؤود المهدئة لسول كما هو الأمر لداؤود، متع الروح والفم التي يشجبها محامو الألم.

يقول لها كاهن الاعتراف: إن المعاناة فقط ستجعلك تستحقين رضا الله. يأمرها أن تحرق ما تكتب وتجهل ما تعرف وأن لا ترى ما تنظر إليه.

١٦٨١: مدينة المكسيك

ـ سيكوينزا غونكورا ـ

أضاء شهاب سماء المكسيك منذ نهاية العام الماضي. أية شرور يعلنها النبيّ الغاضب؟ أية مشاكل سيسبّب؟ هل ستضرب الشمس الأرض كقبضة الله الكبيرة؟ هل ستجفّ المحيطات وتتلاشى آخر قطرة من الأنهار؟ يقول الحكيم للبشر المرتعبين: «لا يوجد سبب يوضح أن النيازك تجلب الحظ السيء».

ينشر كارلوس سيكوينزا غونكورا بيانه الفلسفي ضدّ النيازك الضالّة التي تبقيها الإمبراطورية فوق رؤوس الجبناء، والذي شكّل اتهاماً مرعباً للخرافة والخوف. ينفجر جدل بين علم التنجيم وعلم الفلك، بين الفضول البشري والوحي الإلهي. يضع اليسوعي الألماني أوسيبيو فرانسيسكو كينو الذي يزور هذه الأقاليم ستة أسس توراتية لتأكيده أن جميع النيازك تقريباً هي بشائر بحوادث شريرة ومخربة وكارثية.

يحاول كينو بازدراء أن يصلح نظرية سيكوينزا غونكورا، وابن كوبرنيكوس وغاليليو وهراطقة آخرين، ويجيب الكريبولي المتعلم: «هل ستسلّمون على الأقل أنه يوجد أيضاً علماء رياضيات خارج ألمانيا يمكن أن يوجدوا بين خيزران وديس[1] بحيرة مكسيكية».

يحدس كوزموغرافي[2] الأكاديمية الأول سيكوينزا غونكورا بقانون الجاذبية ويؤمن أن نجوماً أخرى، يجب أن يكون لها مثل الشمس، كواكب تدور حولها. معتمداً على الكسوفات والنيازك، ثبّت تواريخ أحداث تاريخ المكسيك الطبيعي وكما أن الأرض من اختصاصه كما السماء ثبّت بدقة خطوط طول هذه المدينة ورسم الخريطة الأولى للإقليم وقال كل هذا في أعمال شعرية ونثرية لها عناوين طنّانة متناسبة مع عصره.

١٦٨٢: آكرا

ـ أوروبا كلها تبيع اللحم البشري ـ

غير بعيد عن الحصون الإنكليزية والدنمركية، في المدى المجدي لطلقة مسدّس، ينتصب المكتب التجاري البروسي. يرفرف علم جديد على هذه السواحل فوق سقوف مستودعات العبيد المصنوعة من جذوع الأشجار وعلى صواري السفن التي تبحر بحمولة كاملة.

---

(١) ـ الديس: عشب مائي من الفصيلة السعدية.

(٢) ـ الكوزموغرافيا: وصف عام للعالم أو الكون، علم يبحث في مظهر الكون وتركيبه العام وهو يشمل علوم الفلك والجغرافيا والجيولوجيا.

ينضمُّ الألمان إلى العمل الأكثر إدراراً في تلك الفترة بشركتهم التي تدعى أفريقيا. يصطاد البرتغاليون ويبيعون السود عبر شركتهم التي تدعى غينيا. تعمل شركة أفريقيا الملكية للتاج البريطاني. يرفرف العلم الفرنسي على سفن شركة «السينيغال» وتعمل الشركة الهولندية للآنديز الغربية بشكل جيد. ويدعى أيضاً المشروع الدنماركي المتخصّص بتسويق العبيد شركة الآنديز الغربية. وتملأ شركة البحر الجنوبي جيوب السويديين.

ليس لإسبانيا عمل في تجارة العبيد، إلا أن غرفة التجارة في سيفيل أرسلت إلى الملك منذ قرن تقريراً موثّقاً يشرح أن بيع العبيد هو التجارة الأربح في أميركا. تدفع المؤسسات التجارية الأجنبية للصناديق الملكية من أجل حقوق بيع العبيد في المستعمرات الإسبانية. بنيت بهذه الإيداعات من بين أشياء آخرى قصور مدريد وطليطلة. تجتمع لجنة الزنوج في القاعة الرئيسية لمجلس الآنديز.

١٨٦٢: ريميديوس

- بأمر من الشيطان -

يرتجف. يلتوي. يزأر. يسيل لعابه. يهزّ أحجار الكنيسة. يتصاعد البخار في كلّ مكان من أرض كوبا الحمراء.

- «أيتها الشيطانة، أيتها الكلبة! أيتها الكلبة السكرانه، تكلّمي وإلا سأبول عليك». يهدّد المفتّش خوسيه غونزاليس لاكروز، كاهن أبرشية ريميديوس ويرمي أرضاً المرأة السوداء ليوناردو أمام المذبح الرئيسي. ينتظر بارتولومي دي كاستيللو الكاتب بالعدل دون أن يتنفّس. يمسك كومة ورق سميكة في يد ويلوّح بريشة طائر في الأخرى.

يلهو الشيطان مرتاحاً في الجسد الساحر لليوناردو السوداء.

يضربها المفتّش فتسقط على وجهها، تأكل الغبار وترتد. ترفع نفسها إلى الأعلى وتلتفت، محترقة ونازفة على الرقعة الآجرّية.

- «أيتها الشيطانة! لوسيفر! الزنجية! تكلّمي أيتها الخراء النتن».

يخرج من فم ليوناردو اللهب والرغوة وأصوات صاخبة لا يفهمها أحد سوى الأب خوسيه الذي يترجم ويملي على الكاتب بالعدل:

- «تقول إنها لوسيفر. تقول إنه يوجد ثمانمائة شيطان في ريميديوس».

تخرج أصواتاً أكثر صخباً من فم المرأة.

- «ماذا أيضاً؟ ماذا أيضاً أيتها الكلبة؟»، يرفعها الكاهن ليوناردو من شعرها.

- «تكلمي أيتها الخراء!». لا يلعن أمهّا لأنه ليس للشيطان أمّ

قبل أن يُغمى على العبدة يصرخ الكاهن ويكتب الكاتب بالعدل: «تقول إن ريمبديوس ستنهار إنها تعترف بكل شيء. تقول إن الأرض ستبتلعنا».

يزأر: «فم الجحيم! تقول إن ريميديوس هي فم الجحيم!».

يصرخ الجميع. يقفز جميع سكان ريميديوس صارخين وصاخبين. يغمى على أشخاص عديدين. يرخي الكاهن المستحم بالعرق، ذو الجلد الشفاف والشفتين المرتجفتين، قبضته عن عنق ليوناردو. تنهار المرأة السوداء.

لا أحد يسعفها.

١٦٨٢: ريميديوس

- إلا أنهم يمكثون -

ثمانمائة شيطان! إذاً يوجد شياطين في سماء ريميديوس أكثر مما يوجد بعوض. يخصّص ١٣٠٥ شياطين لتعذيب كلّ مواطن.

إن الشياطين عرجاء منذ السقوط الذي يعرف العالم كله عنه. ولها لحى ماعز وقرون وأجنحة خفافيش وأذيال جرذان وجلود سوداء. ولهذا فإن الدوران في جسد ليوناردو أكثر متعة لها لأنها سوداء.

تبكي ليوناردو وترفض أن تأكل.

يقول لها الأب خوسيه: «إذا كان الله يريد أن يطهّرك فسوف يبيّض جلدك».

تصدر الأغاني الحزينة للزيزان والجنادب عن الأرواح التي تتعذّب. السراطين مذنبة مكتوب عليها أن تمشي عرجاء. تعيش في المستنقعات والأنهار عفاريت تسرق الأطفال. حين يسقط المطر يسمع شجار الشياطين من الكهوف والشقوق عنيفاً وصاخباً لأن الشرر الذي تطلقه لحرق السماء يصبح رطباً. والنقيق الحاد للضفادع في مرجة بوكويرون هل يتنبأ بالمطر أم يلعن؟ هل يأتي ذلك الضوء الذي يشعّ في الظلام من الحباحب؟ هل هاتان العينان للبومة حقاً؟ ضدّ من يهسهس الثعبان؟

يسمع طنين الخفّاش الليلي الأعمى: إذا مشّطك بجناحه. ستذهب إلى الجحيم مباشرة، الجحيم تقع تحت ريميديوس، هناك ألسنة اللهب تحرق ولا تصدر ضوءاً ويجعل الجليد الأبديّ أسنان الذين أذنبوا واتبعوا شهواتهم على الأرض، تصطك وترتعش.

- «ابق مكانك».

يقفز القس في جرن المعمودية المقدّس.

- «ابقى مكانك أيها الشيطان».

يغسل الخسّ بالماء المقدّس. يتثاءب البشر وأفواههم مغلقة.

- «يسوع! يا يسوع!». يصلّب الأساقفة.

لا يوجد منزل غير مزيّن بجدائل الثوم ولا يوجد هواء لا يجبله دخان الحبق العذب.
- «يمتلكون أقداماً إلا أنهم لا يصلون إليّ وحديداً إلا أنهم لا يجرحونني وأنشوطات إلا أنهم لا يقيدونني..».
إلا أن الناس يمكثون. لا يغادر أحد. لا أحد يهجر مدينة ريميديوس.

١٦٨٢: ريميديوس

- بأمر من الله -

ترنّ أجراس الكنيسة المنصوبة إزاء السماء من أجل الخدمة. يغادرُ جميع سكان ريميديوس منازلهم. يجلس الكاتب بالعدل إلى يمين المذبح. ينضغط الحشد عبر الأبواب المفتوحة.

تدور شائعة تقول إن الأب خوسيه سيسمع شهادة من الله. كان يؤمل أن المسيح سينزع يده اليمنى عن الصليب ويُقسم أن يقول الحقيقة، الحقيقة كاملة ولا شيء سوى الحقيقة.

يتقدّم الأب خوسيه إلى المذبح الرئيس ويفتح وعاء خبز القربان. يرفع كأس القربان وخبز القربان المقدّس ويركع أمام جسد ودم الإله على ركبتيه ويصيغ طلبه. يدوّن الكاتب بالعدل ملاحظاته. سيُظهر الله لسكان ريميديوس أين يجب أن يعيشوا.

إذا تحدّث الشيطان من خلال فم ليوناردو فستكون ليوناردو أداة عدوّه الذي لا يقهر

يغطي الكاهن عيني الصبي ليوناردو الذي لا يصل إلى خصره بعصابة ويغمس ليوناردو يده في حُق القربان المقدّس الفضي الذي يحتوي على بعض القطع الورقية التي كُتبت عليها أسماء الأمكنة.

يلتقط الولد قطعة ورقية. يفتحها الكاهن ويقرؤها بصوت مرتفع: «سانتا ماريا دي كوادليوب! دوّن أيها الكاتب!» ثم يضيف بانتصار: «لقد أشفق الله علينا. هو، برحمته اللانهائية، يقدم لنا الحماية. هيّا يا أبناء ريميديوس لقد آن أوان الرحيل».

يذهب الكاهن.

ينظر خلفه. يتبعه البعض.

يأخذ الأب خوسيه معه كلّ شيء: كأس القربان، خبز القربان، المصباح والشمعدانات الفضيّة، الصّور والنقوش الخشبية. يرافقه فقط النساء العزّل والرجال الخائفون إلى أرض الميعاد.

تجر ممتلكاتهم الأحصنة والعبيد. يأخذون الأثاث والثياب الأرز واللوبياء، الملح والزيت والسكر واللحم المجفّف والتبغ وكتباً من باريس وقطناً من«روين» وبعض الأشياء الأخرى المهرّبة إلى كوبا.

الطريق طويلة إلى سانتا ماريا دي كوادليوب. هناك تقع أراضي هاتو ديل كيوبي التي يمتلكها الأب خوسيه. كان الكاهن يبحث منذ سنوات عن مشترين لها.

١٦٨٨: هافانا

- بأمر الملك -

كان الموضوع الرئيسي للمحادثة في كل أنحاء كوبا. كانت المراهنات تُعقد أينما اجتمع الناس.

هل سيطيع سكان ريميديوس؟

يبقى الأب خوسيه الذي هجره أتباعه وحيداً ويعود إلى ريميديوس. إلا أنه يتابع حربه العنيدة المقدّسة التي تردَّد صداها في القصر الملكي. أمر تشارلز الثاني من مدريد أن سكان ريميديوس يجب أن ينتقلوا إلى أراضي «هاتو ديل كيوبي» في سانتا ماريا دي كوادليوب.

يعلن رئيس الحكومة وأسقف هافانا أن أمر الملك يجب أن يُحترم.

ينفذ الصبر.

يستمر سكان ريميديوس بالتظاهر بالصمم.

١٦٩١: ريميديوس

- ما يزالون لا يتحركون -

يصل الضابط بيريز دي مورالیز فجراً من هافانا مع أربعين رجلاً مسلحين جيداً.

يذهبون إلى الكنيسة. يتلقى الجنود العشاء الرباني ويبارك الأب خوسيه بنادقهم وفؤوسهم القتالية.

يجهزون المشاعل.

تتحول بلدة ريميديوس ظهراً إلى نار كبيرة. يراقب الأب خوسيه الدخان المتدرج نحو الزرقة متصاعداً من الحطام الملتهب.

حين يخيِّم الليل يظهر الناس من مخابئهم في الأدغال ويعودون إلى الحطام.

يجلسون في حلقة، أعينهم مثبتة على سحب الدخان المتواصلة. يلعنون ويتذكرون. لقد سرق القراصنة هذه البلدة مرات عديدة. وحملوا في السنوات الماضية حتى كأس القربان الأكثر قداسة وقيل أن أسقفاً مات من القرف، وقالوا إنه من الجيد أن وشاحه بقي على صدره إلا أن أي قرصان لم يشعل النار في ريميديوس.

يعقد الناس في ضوء القمر، تحت شجرة سيبة مجلساً للبلدة. يقرّر الذين ينتمون إلى أرض التربة الحمراء هذه في الغابة أن يعيدوا بناء ريميديوس.

تضمّ النساء الأطفال إلى صدورهن ويحدّقن بأعين أمهات النمور الجاهزة للقفز.

يفوح الهواء بالاحتراق، لكن ليس برائحة الكبريت، أو روث الشيطان.

الأصوات المتصاعدة بين الأشجار هي أصوات تتناقش وصوت طفل حديث الولادة، يبكي من أجل الحليب، واسمٍ يعرف به.

١٦٩١: مدينة المكسيك

- جوانا في سن الأربعين -

يضيء جدول من ضوء أبيض كلسي سور جوانا آنيز لاكروز وهي راكعة في وسط المسرح. ترفع ظهرها وتنظر نحو الأعلى حيث ينزف مسيح كبير، ذراعاه مفتوحتان على السلّم الرفيع المخطط بالمخمل الأسود والمليء بالصلبان والسيوف والرايات. يقف على المنصة مدّعيان يوجهان اتهاماتهما.

كان كل شيء أسود حتى القلنسوتين اللتين تغطيان وجه المدّعيين. كان أحدهما يرتدي ثياب راهبة ومن تحت القلنسوة تظهر التجعدات المائلة إلى الأحمر للشعر المستعار: إنها لأسقف «بويبلا»، مانويل فرنانديز من سانتا كروز في دور الأخت فيلوتي. الآخر هو أنطونيو نونيز دي ميراندا، راهب اعتراف الأخت جوانا، يمثّل نفسه. ينتأ أنفه الأعقف من تحت القلنسوة، يتحرك وكأنه يريد أن يتحرّر من مالكه.

الأخت فيلوتي (تطرز على إطار): غامض هو الله. لماذا يضع رأس رجل على جسد الأخت جوانا، لكي تهتم بقضايا الأرض البائسة؟ إنها ترفض ما تنصّ عليه الكتب المقدّسة.

كاهن الإعتراف: (مشيراً إلى الأخت جوانا بصليب خشبي): العاقّة!

الأخت جوانا (عيناها مثبّتتان على المسيح فوق رؤوس المدّعيين): إنني فعلاً أردّ على كرم الله بشكل سيء. أنا أدرس لأرى إن كانت الدراسة ستجعلني أقل جهلاً لأقود خطواتي نحو قمم اللاهوت المقدّس. إلا أنني درست أشياء كثيرة ولم أتعلّم شيئاً. إن الحقائق المقدّسة تبقى بعيدة عني، دائماً بعيدة. أشعر أحياناً أنها قريبة مع ذلك أعرف أنها بعيدة. منذ أن كنت فتاة صغيرة في الخامسة أو السادسة من عمري بحثت عن تلك المفاتيح في كتب جدّي تلك المفاتيح... قرأت وقرأت وحين عاقبوني بدأت أقرأ بشكل سري.

كاهن الإعتراف (مخاطباً الأخت فيلوتي). لم تقبل أبداً إرادة الله. إنها تكتب الآن مثل رجل لقد رأيت مخطوطات قصائدها.

الأخت جوانا: ... البحث.. عرفت باكراً أن الجامعات ليست للنساء وعرفت أن النساء اللواتي يعرفن ما هو أكثر من الصلاة الربّانية يُعتبرْن فاحشات. كنت أملك كتباً خرساء لمدرسين. ومحبرة من صديقة مدرسة حين منعت الكتب عني كما حصل أكثر من مرة في هذا الدير، درست أشياء العالم. إن المرء يستطيع أن يكتشف أسرار الطبيعة حتى وهو يطبخ

الأخت فيلوتي: الجامعة الملكية والأسقفية للفطائر المحلاّة. مقلاة حرم الجامعة.

الأخت جوانا: ما الذي نستطيع أن نعرفه نحن النساء ماعدا فلسفة المطبخ؟ إن أرسطو لو طبخ لكتب أكثر مما كتبه. هذا يضحككم أليس كذلك؟ حسناً! اضحكوا! إذا كان هذا يسرّكم. يشعر الرجال أنهم حكماء جداً لمجرد كونهم رجالاً. لقد توّج المسيح أيضاً بالشوك، وضحك عليه.

كاهن الإعتراف: (يمحو ابتسامته يضرب الطاولة بقبضته). هل سمعت مثل هذا الكلام؟ هذه الراهبة الصغيرة المتفقّهة؟ تستطيع أن تكتب بعض الأغاني وتريد أن تقارن نفسها بالمسيح.

الأخت جوانا: لقد عانى المسيح أيضاً من هذه اللاعدالة. هل هو واحد منهم؟ وهكذا عليه أن يموت. لقد اتهم، ولهذا السبب يجب أن يعاني.

كاهن الإعتراف: يجب أن تتواضعي.

الأخت فيلوتي: فعلاً يا ابنتي، إنك تخيفين الله بكبريائك.

الأخت جوانا: كبريائي؟ (تبتسم بحزن) لقد استخدمت هذا منذ وقت طويل.

كاهن الإعتراف: لقد صفّق العامة لشعرها وهكذا تظنّ نفسها من النخبة. إنها أشعار تجلب العار إلى منزل الله هذا، إنها تمجيد للجسد (يسعل) إنها الفنون الشريرة للحيوان الذكري.

الأخت جوانا: أشعاري المسكينة! إن التصفيق مجرّد غبار، ظلّ، عظمة متلاشية هل طلبت أنا هذا؟ أيّ وحي إلهي يمنع النساء من الكتابة؟ بنعمة الله أو بلعنته، إن السماء هي التي جعلتني أصبح شاعرة.

كاهن الإعتراف (ينظر إلى السقف ويرفع يديه مبتهلاً): إنها توسّخ طهارة الإيمان وتلوم السماء على ذلك.

الأخت فيلوتي: (تضع الإطار المطرز جانباً وتضع يديها علىمعدتها): تمتلك جوانا كثيراً من الأغاني للروح الإنسانية وقليلاً منها للروح المقّدسة.

الأخت جوانا: ألا تعلّمنا الأناجيل أن السماوي يعبّر عن نفسه في الدنيوي؟ إن قوة جبارة تدفع يدي..

كاهن الإعتراف: (ملوحاً بالصليب الخشبي وكأنه يريد أن يضرب جوانا من بعيد) أهذه قوة الله أم قوة الشيطان؟

الأخت جوانا: سأستمر في الكتابة، سأظل خائفة ما دام يوجد ظل لجسدي. لقد هربت من نفسي حين ارتديت رداء الراهبة وسبّبت البؤس لنفسي.

الأخت فيلوتي: إنها تستحمّ في العري. يوجد أدلة.

الأخت جوانا: يا إلهي أطفىء ضوء فهمي واترك فقط مايكفي لحفظ شريعتك. أليس الباقي غير ضروري للمرأة؟

كاهن الإعتراف (صارخاً بحدّة كغراب): لقد جلبت العار إلى نفسك. أميتي قلبك أيتها العاقّة.

الأخت جوانا: أطفئني! أطفئني يا إلهي!

(تستمر المسرحية بحوار مشابه إلى عام ١٦٩٣)

١٦٩١: بلاسنتيا

أداريو، زعيم هنود الهورون يتحدث مع البارون لاهونتان، المستعمر الفرنسي لنيوفاوندلاند

إنك بائس بما يكفي ولا أستطيع أن أراك خارج ذلك. أي نوع من الرجال هم الأوروبيون؟ إلى أيه أنواع من المخلوقات ينتمون؟ إن هؤلاء الأوروبيين يجب أن يُجبروا على القيام بالأعمال الجيدة. ولا يوجد لديهم باعث آخر لتجنّب الشر سوى الخوف من العقاب.

من منحكم هذه البلدان التي تسكنونها الآن؟ بأية حق تمتلكونها؟ لقد كانت سابقاً «للألكونكونيز». إنني يا أخي العزيز آسف عليك من أعماق قلبي وبشكل جدي. اسمع نصيحتي وتحوّل إلى «هورنيّ»، لأنني أرى بوضوح فرقاً كبيراً بين وضعيتك ووضعيتي. أنا سيد نفسي ووضعي. أنا سيد جسدي. أمتلك السيطرة على نفسي.؟ أفعلُ ما يسرّني. أنا الأول والآخر في أمتي، لا أخاف من أي رجل وأعتمد فقط على الروح العظيمة، إلا أن روحك وجسدك مقدر عليهما أن يعتمدا على الضابط الكبير، نائب ملككم، وليس لك حرية أن تفعل ما تريد. أنت خائف من اللصوص وشهود الزور ومن القتلة.. الخ. وتعتمد على عدد لانهائي من الأشخاص الذين رفعتهم منزلتهم فوقك. أصحيح هذا أم لا؟

١٦٩٢: قرية سالم

- ساحرات سالم -

لايعلم سوى المسيح كم شيطان يوجد هنا؟ يزأر المحترم صموئيل باريس، راعي أبرشية بلدة سالم ويتحدّث عن يهوذا والشيطان الجالس على مائدة الرب الذي باع نفسه بثلاثين قطعة فضّية تعادل ٣,١٥,٠ من الباوندات الإنكليزية، وهو سعر عبدة أنثى يثير السخرية.

يصيح راعي الأبرشية أنه لايوجد حياد ممكن أو ملاذ مؤكد في حرب الحملان ضد التنانين. لقد زرعت الشياطين نفسها في منزله: كان أول من عذّبته الشياطين ابنة المحترم باريس وابنة

أخيه أيضاً، الشياطين التي عصفت بهذه البلدة البيوريتانية. ربتت الفتاتان الصغيرات على كرة كريستالية لتعرفا قدرهن فشاهدتا الموت. منذ أن حدث هذا بدأت كثيرات من فتيات «سالم» يشعرن بحمّى الجحيم في أجسادهن، الحمّى المهلكة التي تحرقهن من الداخل، فيلتوين ويدرن ويتدحرجن على الأرض وتمتلىء أفواههن بالرغوة ويجدّفن ويفحشن بكلمات وضعها الشيطان على شفاههن.

يشخّص الطبيب ويليم كريكز رقى شريرة تقدّم لكلب كعكة من طحين الشعير خلطت ببول الفتيات الممسوسات، يأكلها الكلب ويهزّ ذيله وينام بسلام. يفضّل اشيطان المساكن البشرية.

بين تشنج وآخر، تتهم الضحايا.

كان أول من شنق النساء والفقراء. شنقت امرأتان بيضاوان وواحدة سوداء: سارة أوسبورن، عجوز محنية التي دعت منذ سنوات خادمتها الإيرلندية، التي كانت تنام في الاصطبل ومنحتها مكاناً في فراشها. وسارة كود الشحاذة الفوضوية التي تدخن غليوناً وتدمدم حين تقدّم لها الصدقات وتيتوبا، العبدة السوداء سيدة شيطان مشعر له أنف طويل، وابنة سارة كود، ساحرة صغيرة في سن الرابعة وضعت في سجن بوسطن مغلولة القدمين.

إلا أن الصرخات المؤلمة لفتيات سالم لاتتوقف وتتكاثر الاتهامات والأحكام وينتشر اصطياد الساحرات من قرية سالم التي تقع في الضواحي إلى مركز بلدة «سالم»، من البلدة إلى المرفأ ومن الأضعف إلى الأقوى. لم تنج حتى زوجة الحاكم من إصبع الاتهام. تدلى على المشانق مزارعون أثرياء ورجال أعمال، مالكو حوانيت يتاجرون مع لندن، أعضاء الكنيسة أصحاب الامتيازات الذين يتمتّعون بحق العشاء الرّباني.

قيل أن مطراً كبريتياً انهمر على بلدة «سالم»، مرفأ ماسّاتشوسيتس الثاني، حيث الشيطان يعمل بجّد ويطوف واعداً المدن البيوريتانية بالذهب والأحذية الفرنسية.

١٦٩٢: كوابولو

- تأميم الفن الإستعماري -

يبدأ ميغيل الذي هو من سانتياغو بعرض لوحاته الزيتية في حرم كوابولو، القرية التي تطلّ على كويتو.

يرسم ميغيل، تمجيداً للعذراء المحلية، مجترحة المعجزات العظيمة، هذه الجبال والسهول والسماء والمناظر الطبيعية التي ستحتوي حياة فقيرة لو أن الناس الذين يتحركون فيها لايضيئونها. يتحرك بشر محليون في خلفيات محلية، في مواكب أو لوحدهم. لم يعد ينسخ الفنان أعمالاً من مدريد أو روما عن حياة القديس أوغسطين. يرسم الآن مدينة كويتو المضيئة المحاطة

بالبراكين، أبراج الكنائس، هنود بوجيلي وماشنفازا، هضبة بيلافستا ووادي كوابولو والشموس التي خلف الجبال، سحب دخان النار الصاعدة والأنهار الضبابية التي لاتتوقف أبداً عن الغناء والتي تنتمي كلها إلى هنا.

لايعمل ميغيل وحده. تهرب الأيدي المجهولة لرسامين محليين أو هجن لامات، إلى لوحاتهم المتعلّقة بعيد الميلاد بدلاً من الجمال وأناناساً وبلحاً وقرون ذرة وأفوكاتة إلى النقوش الخضراء لواجهة الكنيسة، وشموساً معصوبة الرأس إلى قرب المذبح. يوجد في جميع الجوانب عذراوات حبالى، ومسيح يحزن كالبشر، كبشر هذه الأماكن، من أجل حزن هذا العالم.

١٦٩٣: مدينة المكسيك

- جوانا في الثانية والأربعين -

دموع بطول الحياة، تنبع من الزمن والألم وتبلّل وجهها. ترى العالم حزيناً وضبابياً مثلها. تودّعه منهزمة.

كانت تعترف طوال أيام بذنوب وجودها كله للأب أنطونيو نونيز ميراندا الذي لايعرف الصفح وكرّست أيامها الأخرى للتوبة. تكتب رسالة، مستخدمة دمها حبراً، إلى المحكمة المقدّسة وتطلب الغفران.

إن سفينتها ستتوقف عن الإبحار في بحار الشعر. تهجر جوانا دراساتها البشرية وتشجب الأدب. تطلب من الله هبة النسيان وتختار الصمت أو تقبله، وهكذا تخسر أميركا أفضل شعرائها.

لن يعيش جسدها طويلاً بعد انتحار الروح هذا. «ليلحق العار بالحياة لأنها استمرت طويلاً معي...»

١٦٩٣: سانتافي، المكسيك الجديدة

- ثلاثة عشر عاماً من الاستقلال -

مرّ ثلاثة عشر عاماً على احتفال الأجراس في «سانتا في» بموت إله المسيحيين وأمه مريم.

احتاج الإسبان إلى ثلاثة عشر عاماً لإعادة فتح أراضي الشمال الوحشية. حين كانت هدنة الإستقلال مستمرة استعاد الهنود حريتهم وأسماءهم ودينهم وعاداتهم، وأدخلوا في خدمتهم المحراث والعجلة وأدوات أخرى أحضرها الإسبان.

لم تكن إعادة الفتح سهلة على القوى الإستعمارية. كانت كلّ قرية هندية في المكسيك الجديدة حصناً محكم الإغلاق محاطاً بأسوار حجرية وطوبيـة عاليـة. يعيـش في وادي ريوكرانـد بشـر غـير معتادين على الطاعة أو على العبودية.

- أغنية هنود المكسيك للصورة التي تهرب من الرمل -

وهكذا يمكن أن أعالج نفسي
رسم الساحرة
صورتك في الصحراء
عيناك من رمل ذهبي
وفمك من ثلج رملي أحمر
ومن رمل أزرق شعرك
ودموعي هي من رمل أبيض.
رسم طوال النهار.
ترعرعت كآلهة
على ضخامة القماش الأصفر
ستبعثر ريح الليل ظلك
وألوان ظلك
ولن يبقى شيء لي وفق القانون القديم
لاشيء ماعدا بقية دموعي
التي هي الرمال الفضية.

١٦٩٤: ماكاكوس

- الحملة الأخيرة على بالماريس -

وُلِدَ صيّاد الهنود العظيم، الذي يقتلهم على بعد فراسخ عديدة، من أمّ هندية، يتحـدث اللغـة الكورانية وقليلاً من البرتغالية، إنه دومينغوز خورخي فيلهو. قـائد مماليك «سان بـاولو»، قـائد الهجن الذين بذروا الرعب في نصف البرازيل باسم سادتهم المستعمرين وطهـروا بوحشية نصـف دمهم.

أجّر دومينغوز خدماته في الأعوام الستة الماضية للتاج البرتغالي ضد هنود «الجانديوم» المتمردين في المناطق الواقعة خلف ساحل «برنامبكو» وفي ريوغراند دي نورتي. بعد حملة طويلة من الذبح يصل منتصراً إلى «ريسيف» وهناك تعقد معه إتفاقية لتدمير بالماريس. يقدمون له غنيمة مدهنة من الأرض والعبيد السود ليبيعهم في ريودي جانيرو وبيونس آيرس ووعدوه بإعفاءات لانهائية وبأربعة رتب دينية وبثلاثين رتبة عسكرية ليوزّعها على رجاله.

يمشي الضابط دومينغوز باستعراض على ظهر حصانه بمنظار معلق على صدره العاري وبسترته الملوثة بالشحم في شوارع ريسيف على رأس ضباطه الهجن وضباط صفه قاطعي رؤوس الهنود. يركبون وسط سحب من الغبار وهبات من بارود المدفعية والرّم وسط التصفيق وخفق المناديل البيضاء: سينقذنا هذا المسيح من السود المتمردين. يؤمن الناس أو يأملون، مقتنعين أن الهاربين يجب أن يلاموا على قلة الأيدي في مطاحن السكر وعلى الأمراض والقحط الذي يلتهم الشمال الشرقي، بما أن الله لن يرسل الصحة أو المطر مادامت فضيحة بالماريس قائمة.

تنظم الحملة الصليبية الكبيرة. يأتي المتطوعون من جميع الجهات يدفعهم الجوع للبحث عن أرزاق مؤكدة. تفرغ السجون وينضم المجرمون المزمنون إلى أكبر جيش تمت تعبئته في البرازيل.

يتقدّم الكشافة الهنود إلى الأمام ويحمي الحمّالون السود المؤخرة. يعبر تسعة آلاف رجل الدغل ويصلون إلى الجبال. يتسلقون إلى القمة حيث تنتصب تحصينات الماكاكوز. أحضروا معهم المدافع هذه المرة.

يستمر الحصار عدة أيام، تحطم المدفعية المتاريس الثلاثية المصنوعة من الخشب والصخر. يقاتلون رجلاً لرجل على حافة الهاوية. تكدّس الكثير من الموتى ولم يبق مكان للساقطين واستمرّ الذبح بين الأشجار. يحاول كثير من السود الهرب ويسقطون عن الجرف في الفراغ. يختار كثيرون الجرف ويسقطون.

تلتهم ألسنة اللهب عاصمة بالماريس. يمكن أن تشاهد من مدينة بورتو كالفو البعيدة النار الكبيرة المشتعلة في الليل، تحرق ذاكرتها. تعلن الأبواق دون توقف النصر.

يهرب الزعيم زومبي الذي جرح. يصل من القمم الشامخة إلى الأدغال. يتجوّل عبر الأنفاق الخضراء باحثاً عن قومه في الأجمات.

ـ شكوى شعب آزاندي ـ

الطفل ميت.
لنغطي وجوهنا
بتراب أبيض.
أنجبت أربعة أبناء

في كوخ زوجي
عاش منهم الرابع فقط.
أريد أن أبكي
إلا أن الحزن
ممنوع في هذه القرية.

١٦٩٥: سيرا دوا إرموس

- زومبي -

ينبسط منظر الأدغال، تنبسط أدغال الروح. يدخن زومبي في غليونه وعيناه تراقبان الصخور الحمراء العالية والكهوف المفتوحة كجراح ولا يرى أن النهار يشرق بضوء العدو ولايرى أن الطيور تحلّق مرتعبة.

لايرى الخائن يقترب. يشاهد رفيقه سوريس وينهض ليعانقه. يطعنه أنطونيو سوريس عدة طعنات بالخنجر في ظهره. يثبت الجنود رأسه على رأس رمح ويأخذونه إلى ريسيف، ليتركوه يتعفّن في الساحة وليخبروا العبيد أن زومبي ليس خالداً.

توقّفَتْ بالماريس عن التنفس. استمرت فسحة الحرية الواسعة هذه التي تأسّست في أميركا المستعمرة قرناً وتصدّت لأكثر من أربعين حملة. طيّرت الريح رماد المتاريس السوداء بعيداً عن ماكاكوز وسوبوبيّرا ودامبرابانكا وأوبينغا وتابوكاز وآروتيرين. انتهى قَرْن بالماريس بالنسبة للفاتحين حين قضى الخنجر على زومبي. سيخيّم الليل ولن يبقى شيء تحت النجوم الباردة. لكن ما الذي يعرفه المستيقظون إذا ما قورن بما يعرفه الحالم؟.

يحلم المقهورون بزومبي ويعرف الحلم أنه طالما يبقى رجل مالكاً لرجل آخر في هذه الأراضي، سيظل شبحه يمشي. سيمشي أعرج لأن رصاصة أعطبت رجله، سيمشي صعوداً وهبوطاً في الزمن وأعرج سيقاتل في أدغال النخيل وفي جميع أراضي البرازيل سيسمّى جميع زعماء التمردات السوداء التي لاتتوقف باسم زومبي.

١٦٩٥: ساو سلفادور دي باهيا

- عاصمة البرازيل -

يوجد في هذه المدينة المضيئة كنيسة لكل يوم من أيام العام وكل يوم هو يوم قديس. تتوهج الأبراج والأجراس والنخيل السامق. تتوهج الأجساد والهواء الدبق بالزيت: سَيُحْتَفَلُ اليوم بقديس

وغداً بعاشق في مدينة جميع القديسين واللاقداسة التي تدعى باهيا. إن ساو سلفادور دي باهيا، مقر نائب الملك والأسقف هي أكثر المدن البرتغالية اكتظاظاً بالسكان بعد لشبونة وتثير حسد لشبونة بأبرشياتها وكنائسها الذهبية وبنسائها المثيرات وبمهرجاناتها وبحفلاتها التنكرية ومواكبها. هنا تلبس العاهرات الخلاسيات كالملكات ويحمل العبيد أسيادهم على المحفّات في ممرات ورقية وسط قصور من العظمة التي تثير الهذيان. هكذا يصوّر غريغوريو دي ماتوس المولود في باهيا، الأرستقراطيين النبلاء لمزارع السكر:

إن نبلاء البرازيل
ليسوا نبلاء
وليس سلوكهم الجيد جيداً
إذاً إلى ماذا ينتمون؟
إلى كومة من المال.

إن العبيد السود هم آجر وملاط هذه القلاع. يصرّ الأب أنطونيو فييرا من على منبر الوعظ على أن يشكر أنغولا، لأنه بدون أنغولا لما كان هناك برازيل وبدون البرازيل لن توجد البرتغال، لهذا من العدل أن يقال إن جسد البرازيل هو في أميركا أما روحها في أفريقيا. أنغولا التي تبيع عبيد البانتو وأنياب الفيلة، أنغولا، كما تعلن موعظة الأب التي ربّت البرازيل بدمها البائس وروحها السوداء السعيدة وقوّتها ودعمتها وخدمتها وحفظتها.

يبقى هذا الكاهن الجزويتي إلى سن التسعين العدوّ الأسوأ لمحكمة التفتيش ومحامياً للهنود المستعبدين والمتّهم الملحّ لأسياد الاستعمار، الذين يؤمنون أن العمل هو للحيوانات ويبصقون على الأيدي التي تغذيهم.

١٦٩٦: ريغلا

- عذراء سوداء، إلهة سوداء -

تجيء العذراء إلى ميناء ريغلا التي تربطها علاقة ضعيفة مع هافانا، تجيء لتستقر. جاء النقش الأرزي من مدريد ملفوفاً في كيس بين ذراعي نصيرها وتابعها بدر وآراندا. إن اليوم هو ١٨ أيلول، يوم المهرجان في مدينة الحرفيين والبحارة العابقة بالقار والمحار حيث يأكل الناس اللحم والذرة واللوبياء والمنيهوت والطبخات الكوبية والأفريقية والإيكو والأوليلي والإيكرو والكويمبومبو والفوفو، بينما ترحّب أنهار الرّم وزلازل الطبول بالعذراء السوداء الصغيرة راعية وحامية خليج هافانا.

البحر منقّط بقشور الجوز وأغصان الريحان الزكية وبنسيم من الأصوات التي تغنّي حين يخيّم الليل.

إن عذراء «ريغلا» السوداء هي أيضاً العذراء الأفريقية «يمايا» إلهة البحار الفضّية وأم الأسماك وأم وعاشقة «شانغو» الإله المحارب، المحبّ للمشاكل، وزير النساء.

١٦٩٧: كاب فرانسيز

- دوكاسي -

تصل سفن دوكاسي حاكم هايتي وزعيم القراصنة الفرنسيين في جزر الأنتيل محملة بالذهب وبالعملة الذهبية الصعبة وبدبلونات مضاعفة ومجوهرات وصحون وكؤوس قربان ذهبية وتيجان عذراوات وقديسين. أذلّ دوكاسي «كارتاجينا» وحوّل وابل مدفعيته المتاريس الصخرية للحصن إلى غبار وترك الكنيسة دون جرس والحاكم بلا خواتم.

إلى فرنسا يذهب ذهب المستعمرة الإسبانية المسروقة. يتلقى دوكاسي في فرساي لقب أميرال وصولجاناً جديراً بملك.

قبل أن يصبح حاكم هايتي وأميرالاً للأسطول الملكي، كان دوكاسي يشتغل وحده ويسرق العبيد من السفن الهولندية والكنوز من السفن الإسبانية. كان يعمل منذ عام ١٦٩١ للويس الرابع عشر.

١٦٩٩: مدريد

- المسحور -

رغم أن البواق لم يعلنها، طارت الأنباء في شوارع مدريد: لقد اكتشف المفتشون مَنْ سَحر الملك تشارلز وسَتُحْرَق الساحرة إيزابيل في المحرقة في الساحة الرئيسية.

كانت إسبانيا كلها تصلي لتشارلز الثاني. عندما يستيقظ كان يتناول مسحوق الثعبان الناجع في منح القوة إلا أنه لم يتحسن. استمر عضوه التناسلي مخدّراً غير قادرٍ على إنجاب الأطفال واستمرت الرائحة الكريهة والرغوة بالخروج من الفم الملكي. ولم تخرجٍ كلمة واحدة تستحق الإصغاء.

لم تأت اللعنة من كوب شوكولاتة معيّن وضعت فيه خصى المشنوقين كما ادّعت بعض ساحرات «كمانغار» ولا من الطلسم الذي يرتديه الملك حول عنقه كما اعتقد الساحر فراي مورو. اقترح أحدهم أن أم الملك سحرته بتبغ أخضر من أميركا أو باللبان الجاوي وأشيع أيضاً أن مدير الخدم في القصر، دوق قلعة فلوريت قدّم للمائدة الملكية فخذ خنزير وضعت فيه أظافر امرأة مغربية أو يهودية أحرقتها محكمة التفتيش.

أخيراً عثر المفتشون على مجموعة الدبابيس وعلى دبابيس الشعر وعلى السمك الصدفي وعلى شعرات جلالته الشقراء التي أخبأتها إيزابيل قرب المخدع الملكي.

يميل الأنف إلى الأمام، تتدلى الشفة، يتدلى الذقن، تبدو عيناه وقد لمعتا. يرفع قزم شمعة لينظر إلى الصورة التي رسمها له كارينو منذ أعوام.

أثناء ذلك، لايوجد خارج القصر خبز أو لحم سمك أو خمرة كأن مدريد مدينة محاصرة

ماكوبا: ١٦٩٩

- شرح عملي -

أخبر الأب جان بابتيست لابات عبيده ليزرع فيهم النشاط في أرض الكسل والنعاس هذه أنه كان أسود قبل أن يأتي إلى المارتينيك وأن الله وهبه اللون الأبيض مكافأة على حماسة خضوعه الذي خدم به أسياده في فرنسا.

يحاول بخار الكنيسة الأسود أن يضع تعشيقة صعبة في لوح خشبي ولايستطيع الحصول على الزاوية الصحيحة يرسم الأب لابات بعض الخطوط مستخدماً مسطرة وبوصلة ويأمر «اقطعه من هنا».

كانت الزاوية صحيحة.

يقول العبد ناظراً إليه في عينيه: «أصدّقك الآن. لايستطيع أي رجل أبيض أن يفعل هذا».

١٧٠٠: أورو بريتو

- البرازيل كلها، إلى الجنوب -

أظهرت الخريطة في الأيام القديمة باهيا قريبة من مناجم بوتوسي المكتشفة حديثاً وكتب الحاكم إلى لشبونة قائلاً إن أرض البرازيل والبيرو واحدة. ليحولوا جبال البارانا بياكابا إلى سلسلة جبال الآنديز أحضر البرتغاليون مئتي لامة إلى سان باولو وجلسوا لينتظروا ظهور الذهب والفضة.

اكتشف الذهب بعد قرن ونصف. كانت مجاري الأنهار والجداول المتدفقة على منحدرات جبال «اسبينهاكو» مليئة بالأحجار المشعّة. وعثر مماليك «ساو باولو» على الذهب حين كانوا يصطادون هنود «كاتاكواز».

نشرت الريح الأنباء في كل أنحاء البرازيل واستجاب الكثيرون. كان كلّ ما عليك أن تفعله للحصول على الذهب في إقليم «ميناس جيراس» هو أن تجمع حفنة رمل أو تقلع باقة عشب وتهزّها.

جاء الجوع مع الذهب. كان سعر القطة أو الكلب في المعسكرات (١٠٥) غراماً من الذهب وهو المبلغ الذي يحصل عليه العبد مقابل عمل يومين.

١٧٠٠: جزيرة القديس توماس

ـ الرجل الذي يجعل الأشياء تتحدّث ـ

تدقّ أجراس حزينة وتقرع طبول كئيبة في الجزيرة الدنماركية في جزر الآنتيل، والتي هي مركز للتهريب والقرصنة. يتوجّه عبد إلى المحرقة. حكم عليه الرئيس الكبير «فانبل» بالإعدام لأنه يتحوّل إلى مطر حين يشعر بذلك ولأنه ركع أمام ثلاث أشجار برتقال ويمتلك تمثالاً طينياً يجيب على أسئلته كلها ويريحه من جميع الشكوك.

يتقدّم الرجل المحكوم نحو المحرقة ناظراً إليها مبتسماً ابتسامة عريضة.

يعترضه فانبل: «لن تثرثر مع وثنك مرة أخرى أيها الساحر الأسود»

يجيب العبد بهدوء دون أن ينظر إليه: «أستطيع أن أجعل قصبتك هذه تتكلّم».

«قف». يصيح فانبل بالحرس: «حلّوا وثاقه»

يرمي القصبة إليه أمام الحشد المنتظر ويقول له: «افعل هذا»

يركع العبد ويهوّي بيديه على القصبة المركوزة في الأرض. يدور حولها عدة دورات ويركع ثانية ويلاطفها.

يقول السيد: «أريد أن أعرف إذا كانت السفينة التي ستأتي إلى هنا قد أبحرت ومتى ستصل ومن عليها وماذا حدث..».

يتراجع العبد عدة خطوات إلى الوراء ويقول:

ـ «اقترب ياسيدي. سأخبرك».

حين يقرب فانبل أذنه إلى القصبة يسمع أن السفينة قد أبحرت منذ فترة من هلسنغور في الدنمارك ولكن عاصفة حطمت شراعها الثاني وحملت شراع المؤخرة حين وصلت إلى المنطقة الإستوائية. يرتعش عنق فانبل كبطن ضفدع. يرى المراقبون أنه ابيضّ.

يقول فانبل بينما تتابع القصبة كلامها وتقول له أسماء الكابتن والبحارة: «لاأسمع أي شيء».

يصرخ: «لا شيء».

تهمس القصبة له: «ستصل السفينة بعد ثلاثة أيام ستجعلك حمولتها سعيداً». ينفجر فانبل. يكسر صولجانه، يصرخ: «أحرقوا الزنجي».

يزأر: «أحرقوه».

يعوي: «أحرقوا الساحر».

- أغنية شعب البانتو عن النار -

أيتها النار التي يراقبها البشر في الليل،
في الليل العميق.
أيتها النار التي تلتهب دون أن تحرق
التي تشع دون أن تلتهب
أيتها النار التي تطير بلا جسد
أيتها النار التي لاتملك قلباً ولاتعرف
منزلاً أو أكواخاً
يانار ورق النخيل الشفّافة
يحرّضك الإنسان بدون خوف
يانار السحرة أين والدك؟
أين أمك؟
من غذّاك؟
أنت والدك وأمك
تعبرين ولاتتركين أثراً
لايولّدك الخشب الجاف
ولاتملكين شرارات للبنات
تموتين ولا تموتين
تتحوّل فيك الروح الرحّالة
ولا يعرفها أحد.
يانار السحرة،
ياروح المياه في الأسفل والهواء في الأعلى
أيتها النار المتوقدة، أيتها الدودة المتوهجة التي تضيء
المستنقع.
ياطائراً بلا جناحين، ياشيئاً بلاجسد
ياروح قوة النار
اسمعي صوتي:
ثمة إنسان يحّرضك
دون خوف.

١٧٠٠: مدريد

ـ الظلّ الناقص للخريف ـ

لم يستطع أبداً أن يرتدي ثيابه لوحده أو أن يقرأ بطلاقة أو أن يقف معتمداً على نفسه. يستلقي في سن الأربعين رجلاً صغيراً عجوزاً بلا سلالة محتضراً ومحاطاً بكهنة الاعتراف وطاردي الأرواح الشريرة وبالحاشية والسفراء الذين يتنازعون على العرش.

أزاح الأطباء المنهزمون الحمامات الميتة وأحشاء الخروف عنه. لم يعد الأطباء يغطّون جسده ولايقدمون له الرّم ليشرب أو ماء الحياة الذي أحضر من «مَلَقَة» لأنه لم يبق شيء سوى انتظار التسهقة التي ستزيله من العالم. في ضوء المشاعل، يترأس مسيخ نازف على رأس السرير الطقس الأخير. يرشّ الكاردينال ماء مقدساً من أشنات داؤود. تفوح غرفة النوم برائحة الشمع والبخور والوسخ. تضرب الريح مصاريع القصر المغلقة بشكل سيء.

سيأخذونه إلى مقبرة الإسكوريال حيث ينتظره المدفن الرخامي الذي نقش عليه اسمه منذ أعوام. كانت هذه هي رحلته المفضّلة وكان قد مرّ وقت لم يزر فيه مدفنه أو يخرج من قصره. مليئة مدريد بالحفر وبالقمامة وبالمتشردين المسلحين وبالجنود الذين يعيشون على الحساء الرقيق للأبرشيات ولايخرجون للدفاع عن الملك. في المرة الأخيرة التي تجاسر أن يخرج فيها ركضت النساء الغاسلات وفقراء الشوارع خلف عربته وقذفوه باللعنات والأحجار.

تشارلز الثاني، ذو العينين الجاحظيتن المحمرّتين يرتجف ويهذي. أصبح قطعة صغيرة صفراء من اللحم تنفذ تحت الأغطية كما ينفذ القرن أيضاً، وهكذا تنتهي السلالة التي غزت أميركا.

❋

لمحة عن المؤلف

ولد ادواردو كاليانو في مونتفيديو. الأرغواي عام ١٩٤٠ دخل عالم الصحافة كرسام كاريكتير سياسي لمجلة «الشمس» وأصبح فيما بعد محرراً لمجلة مارشا.

في عام ١٩٧٣ نفي إلى الأرجنتين حيث أسّس وحرّر مجلة «الأزمة». عاش في إسبانيا من عام ١٩٧٦ إلى عام ١٩٨٤ وبعد ذلك عاد إلى الأرغواي.

من كتبه:

١ ـ الشرايين المفتوحة لأميركا اللاتينية (١٩٧١)

٢ ـ أيام وليالي الحب والحرب (١٩٧٨).

٣ ـ أغنية أنفسنا (١٩٧٥).

٤ ـ ذاكرة النار:

أ ـ سفر التكوين.

ب ـ الوجوه والأقنعة.

ج ـ قرن الريح.

الفهرس

صدر عن
دار الطليعة الجديدة

ـ الحضارة البشرية أمام مفترق طرق	تألبف: د. قدري جميل
ـ الكتاب الأبيض لأبخازيا	ترجمة. د تيسير كم نقش تدقيق د أحمد باكير
ـ حوارات سجين	تأليف· فكتور أنبيلوف ترجمة: عدنان جاموس
ـ العمل الشيوعي الفلسطيني في سوريا	تأليف حمد موعد
ـ الدراما التلفزيونية	إعداد· عماد ندّاف محمد ندّاف
ـ ميثاق الموج	شعر: أسامة اسبر
ـ آكان، أحرث صوتك بناي	شعر: أكرم قطريب
ـ ثلاث ليالٍ لقمر أريحا	شعر: وليد عيسى الزوكاني
ـ علم السلوك (بحث)	بإشراف: أ.د. زياد درويش د.منال المختار
ـ محاولة في رصد ما حدث	تأليف: أمين الحسن
ـ ماالذي حصل ياإلهي	تأليف: عماد نداف
ـ خالد بكداش (كلمات ـ أحاديث ـ مقالات)	
ـ حول الصراع الإيديولوجي	تأليف: ديمتري تسيخوف ترجمة: زياد الملاّ
ـ آه منا نحن معشر الحمير	تأليف· عزيز نيسن ترجمة: جمال دورمش

ـ حكايات من الشام	تأليف: محمد خالد رمضان
ـ وردة غان	تأليف: عماد ندّاف
ـ نقد أفكار زعماء الردة في الفكر الماركسي اللينيني المعاصر	تأليف صالح بوزان
ـ خالد بكداش يتحدث	إعداد وحوار. عماد نداف
ـ على المبدأ	تأليف: ن.ك نيفيوديفا ترجمة. زياد الملاّ
ـ جلجامش والبحث عن الخلود	ترجمة: سهام شاهين
ـ سامبو، الطاحونة السحرية	ترجمة: سهام شاهين
ـ إبرة الساحر	ترجمة: عمار مصطفى



ذاكرة النار

كنت طالب تاريخ بائس. كان حضور دروس التاريخ يشبه الذهاب إلى معرض التماثيل الشمعية أو إلى إقليم الموتى. كان الماضي ميتاً، أجوفَ وأخرسَ، علّمونا عن الماضي بطريقة جعلتنا نستكين للحاضر بضمائر جافة: لا لنصنع التاريخ الذي صُنِعَ سابقاً بل لكي نقبله. توقف التاريخ المسكين عن التنفّس، تمت خيانته في النصوص الأكاديمية، كُذِبَ عليه في المدارس، أغرق بالتواريخ، سجنوه في المتاحف ودفنوه تحت أكاليل الزهر ووراء تماثيل برونزية ورخامٍ تذكاري.

ربما يساعده «ذاكرة النار» على التنفس ويستحضر حريته والكلمة.

جُرِّدَتْ أميركا اللاتينية طوال قرون من الذهب والفضة، من النترات والمطاط والنحاس والزيت وانتُهِكَتْ ذاكرتها.

حكمَ عليها من البداية بداء النسيان أولئك الذين منعوها من الوجود. إن التاريخ الرسمي لأميركا اللاتينية يقتصر على استعراضٍ عسكري لطغاة يرتدون بزّات عسكرية لم تستخدم من قبل.

لست مؤرخاً: أنا كاتب يحبّ أن يساهم في إنقاذ الذاكرة المخطوفة لكل أميركا وخصوصاً لأميركا اللاتينية، الأرض المحتقرة والمحبوبة: أحب أن أتحدث معها، أن أتقاسم معها أسرارها، أن أسألها من أي صلصال شاق ولدت ومن أية ممارسات جنسية واغتصابات جاءت.

لا أعرفُ إلى أي شكل أدبي ينتمي صوت الأصوات هذا. ليس «ذاكرة النار» مقتطفات أدبية مختارة وهذا واضح. ولكن لا أعرف إن كان رواية أو مقالة أو ملحمة شعرية أو شهادة أو تاريخاً أو.. إن اتخاذ قرار حول هذا الأمر لا يسرق مني النوم، كما لا أؤمن بالحدود التي تفصل بين الأجناس الأدبية استناداً إلى ضباط جمارك الأدب.

لم أرغب بكتابة كتاب موضوعي ولا أستطيع ذلك. ولا يوجد شيء حيادي حيال هذا السرد التاريخي، ولأنني لم أستطع أن أبعد نفسي اتخذت موقعاً متعاطفاً: أعترف بذلك ولست آسفاً.

على أية حال، إن كل قطعة من هذا الموزاييك الضخم مبنية على أساس توثيقي صلب. ماقيل هنا حدث سابقاً رغم أنني أقوله بأسلوبي وبطريقتي.

إدواردو كاليانو